المشرق
بيروت
السنة الرابعة والثلاثون — نيسان – حزيران ١٩٣٦

دمشق الشام

لمحة تاريخية

منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر

بقلم جان سوفاجيه

كان الاستاذ سوفاجيه قد القى في ٦-٩ ايار ١٩٣٥ ، برعاية معهد الدروس الاسلامية ومعهد الفنّ والآثار القديمة في باريس ، ثلاث محاضرات في تاريخ دمشق منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر ؛ فرغبنا اليه في تعريبها ونشرها على صفحات « المشرق » ، مناسبة لافتتاح معرض دمشق ، فأذن راضياً ، وباشرنا العمل شاكرين . وها هي مواد المحاضرات الثلاث ننشرها مجرّدة من ذكر المصادر ، خالية اجمالاً من اساليب المناقشة . وما ذاك الا لان المؤلف يُعدّ ، في الموضوع نفسه ، دروساً اوسع واعمق ستظهر حافلة بكل ما تتطلبه طرق النقد العلمي. ف. ا. ب.

تمهيد

مَن يقابل بين سورية وسائر البلدان التي دخلها العرب ، على اثر الفتح الاسلامي ، لا يلبث ان يرى سورية تمتاز بانه لم يُنشأ فيها ، منذ ظهور الاسلام ،

مدينة واحدة نالت اهمية جديرة بالذكر . وان المدينة الوحيدة المُنشأة بكلها في الاراضي السورية ، وهي الرملة التي مصرها سليمان بن عبد الملك ، لم ترتقِ يوماً الى مصاف الحواضر المهمّة.

وذلك ان سورية عرفت ، في العصور التي تقدمت الفتح العربي ، تحضراً مزدهراً متتابعاً تشهد له مدنها المشهورة من امثال صور وصيدا واورشليم ودمشق وانطاكية وتدمر وغيرها . حتى انها فاقت بهذا الازدهار الحضري سائر البلاد الاسلامية ، لا نكاد نستثني منها الّا تركية . اما السبب في هذه الظاهرة فتكوين البقعة الجغرافي من جهة ، وقد قسمتها الطبيعة « بلداناً » متنوعة ، يفرض كلّ بلد منها وسطاً تجارياً وسياسياً ؛ ومن جهة اخرى تفاعل العوامل التاريخية في تلك البقعة الواقعة بين مصر والجزيرة ، بين منطقتين مشهورتين بخصب ارضها حتى انها اصبحتا من مراكز المدنية العاملة ، منذ فجر التاريخ . فكان لسورية ان تنيل جارتيها الغنيتين المواد الطبيعية الاولى التي تنقصهما كخشب البناء والمعادن وما شاكل . فنشأت فيها التجارة والصناعة ، اولى مظاهر التحضُّر ، ولم تلبث مدنها ان ازدهرت منذ العصور الاولى.

ومما يجدر بالملاحظة ان قدم هذه الحركة الحضرية في سورية جعل للجماعات الاسلامية فيها صفة خاصّة . فبينا نرى ان القيروان والبصرة لم تخرجا بعد من حيّز العدم ، زمن الفتح العربي ، نجد دمشق واورشليم على ماضٍ عريق في القدم . وهكذا بدت المدن السورية مختلفة اختلافاً جوهرياً عن مدن المغرب حتى امكن احد الجغرافيين ان يقول عن مكنس انها اقرب الى شيكاغو منها الى دمشق . ذلك ان المظهر الاسلامي في المدن السورية كان نتيجة تطور متتابع مدة القرون العديدة . ولا بدّ من الوقوف على تفاصيل هذا التطوّر لنفهم ميزات تلك المدن ، بل لنفهم ، الى حدّ ما ، تطوّر مدن القرون الوسطى نفسها.

وان للمدن السورية ، فوق ما تقدّم ، لفائدة اخرى . وهي انها كانت ، على ما نرى ، ذات أثر يُذكر في نشأة المبادئ الحضرية التي تطوّرت بموجبها مدن اسبانية والمغرب . ولا يخفى انه في سورية ، لا في مصر ولا في العراق — ذينك البلدين الزراعيين اصلاً — امكن العرب ان يتصلوا اتصالاً وثيقاً بالمجتمعات

الحضرية الجديدة باسم « المدن » الا وهي المدن الرومانية . فتأثروا بترتيبها وبنظامها ، واستوحوا منها في منشآتهم . يدل على ذلك تصميم مدينة الرملة ، وهي مربعة الزوايا يقسمها شارعان اساسيان يتقطعان في الوسط على زاوية قائمة ويحيط بكل منها سماطان من الحوانيت . بل قد يكون العرب تأثروا بدائرة المديرية الحضرية الرومانية في القسطنطينية مثلاً ، فقلدوها في انشاء دائرة « المحتسب » . واذا فان لنا من الحق بالقول ان بعض ميزات المدن المغربية ، التي تظهر اصلاً غربية عن شاطئ المتوسط الغربي ، كالقيسارية مثلاً ، ان هي الا ظاهرات سورية نقلها الامويون الى الاندلس اولا ، ومنه انتقلت الى افريقية الشمالية .

وعليه فلا يمكننا ان ندرس المدن السورية باسلوب تلخيصي سطحي قد يمكننا ان نسير عليه في درس سائر المدن الاسلامية .

اما اختيارنا دمشق مثالاً للمدن السورية فيبرره الاعتبارات التالية :

١ً ان مدن الساحل تتصف بصفات خاصة من حيث أنها مرافئ بحرية ، ومن حيث مركزها في عالم البحر المتوسط . ثم لا يخفى انها اكتسحت وأخربت مرات عديدة ، بل ان بعضها نقلت عن مركزها الاصلي كما جرى لطرابلس ، حتى اصبح من الصعب على الدارس ان يتتبع ظواهر تطورها بالوضوح الكافي .

٢ً أما مدن الداخلية الصغيرة كحمص وحماه والمعرة وغيرها ، وكلها جديرة بالدرس لعراقتها في القدم ، فليس لنا من المصادر القديمة ما يسهل علينا وضع تاريخ لها .

٣ً بقيت المدن الثلاث الكبيرة التي تتوافر بشأنها المعلومات التاريخية ، وهي اورشليم وحلب ودمشق . اما اورشليم فصرفنا النظر عن اختيارها بسبب مركزها الديني الخاص ، وبسبب احتلال الصليبيين اياها ، فزيادة فصل جديد في تاريخها الصعب المعقد . اما حلب ودمشق فقد اخترنا منهما الاخيرة لأنها لم تزل ، منذ الفتح العربي ، عاصمة سورية . وهكذا فان تأثير العوامل السياسية ، الماتة بالصلة القومية الى التاريخ الاسلامي العام ، يظهر فيها على وضوح اتم منه في ظهوره في حلب .

موقع دمشق

تقع دمشق تقريباً على الدرجة الواقعة عليها فاس من العرض ، وعلى علوّ ٦٩٠ متراً عن سطح البحر ، عند اقدام المنحدر الشرقي لانتيلبنان ، في اصل تلك السهول الفسيحة الممتدّة شرقاً وشمالاً بشرق حتى الفرات ، وجنوباً حتى قلب جزيرة العرب (الرسم ١) . وبقعتها قاسية جافية لا تظهر ، لاول وهلة ، معدّة لازدهار المدنية فيها . ذلك انها ، على الرغم من قربها للبحر (١٠٠ كيلومتر) ، تشارك صحارى بلاد العرب الشمالية في مناخها الجافّ ، لان قمم لبنان وانتيلبنان الشاهقة تؤلف حاجزاً متتابعاً يمنع عنها غيوم البحر المتوسط ، فيخفف كثيراً من حركة الامطار ، حتى تصبح على غاية من الشذوذ ، سواء أنظرنا الى توزيعها على ايام السنة أم الى كميّتها (الرسم ٢) وهي ، على ايّ حال ، لا تتجاوز كميتها ٢٥٠ الى ٣٠٠ مليمتر ، ولا تتسع ايامها الى ما وراء الثلاثة الاشهر تقريباً . اما الربيع والخريف فقصيران يأكل منهما الصيف السوري القاسي ممتدًا من نيسان الى تشرين الثاني ، متّصفاً بجفاف تامّ تتجاوز فيه الحرارة النهارية ٣٥ درجة في الظلّ ، ويزيد وطأته شدّةً تلك الرياح الغربية العاصفة التي يستدعيها الفراغ الهوائي في الصحراء العربية . وعلى الجملة فان مناخ دمشق يتصف بدورين متميّزين : دور شتاء قصير جداً قليل الامطار ، ودور جفاف طويل تختلف حرارته كثيراً بين الليل والنهار . فهو مناخ الصحراء يلطّفه ، بعض الشيء ، ارتفاع الموقع ، وقربه من البحر .

ومن ثمّ فلم يكن من المنتظر ان نرى ، في هذه المنطقة ، من النبات ما يكفي بكميته ، وخصوصاً بدوامه ، للقيام بحياة الحيوان والانسان . بيد ان الانسان توفّق ، فانتزع من القفر بقعةً صغيرة جعلها من اغنى المناطق الزراعية في آسية الغربية ، مستغلًا ، في ذلك ، على افضل ما يمكن من الاستغلال ، مواهب عقله وعزيمته ، مستفيداً من النعمة الوحيدة التي منّت بها الطبيعة على تلك المنطقة ، الا وهي كثرة المياه ، هي النهر المتدفق من الجبل على علو ١١٠٠ متر .

يخرج النهر من انتيلبنان ، فيسير اولاً في وادٍ ضيّق ، (الرسم ٤) ثم يتسلّل

الى السهل، حتى يتغلغل بعيداً في الصحراء، فتتخذه الرمال في قعر صحن رحيب علاه بالمستنقعات الفسيحة. ولقد كان في علو مخرجه واتجاه واديه في القسم الاعلى من المجرى، ما يجعل له صفة السيول المندفعة في الشتاء. مياهاً متدفقة باردة، الجافة في اكثر ايام السنة، لولم يمدّه، على نحو عشرين كيلومتراً قبل دمشق، ينبوع فياض يغدق فيه، ايام الشحائح، مقدار خمسة امتار مكعبة في الثانية. وبفضل هذا الينبوع الدائم، اصبحت الحياة ممكنة في تلك البقعة للنبات والحيوان، وبالتالي للبشر، على رغم قلة الامطار واضطراب مواعيدها.

بيد ان الوادي ما كان ليتجاوز مظهر الشريط الضيّق من الخضرة وسط تلك الصحاري الجرداء المحرقة، لولا دهاء الانسان وجدّه في العمل على انشاء طريقة للريّ دقيقة التصوّر (الرسم ٥) تحيل الماء بعيداً عن مجرى النهر، فتروي برطوبتها المحيية تلك الارض الظمأى فتجعلها قابلة للزراعة موجدةً واحة اصطناعية يبلغ طولها العشرين كيلومتراً. (الرسم ٦)

ويوافق ذلك المناخ مزروعات البحر المتوسّط كالقمح، والزيتون، والكرم، والرمان. بيد ان وفرة المياه توجّه الزراعة الى ناحية اخرى فيصبح اكثر نباتها من الاشجار المتعوّدة الرطوبة الدائمة في المناطق الشمالية كالمشمش، والجوز، والاكيدنيا، والحور، والصفصاف، والدلب. ولكن الشتاء القاسي، وهو نتيجة ارتفاع البقعة، يحول بينها وبين زرع الليمون والنخل.

وهكذا تزدهر تلك الواحة بالمزروعات المتنوّعة، فتأهل ضواحيها بالسكان. على ان استنقاع المياه في البرك العديدة المهيّأة لريّ البساتين يسهّل انتشار مرضين هائلين هما الحمّى التيفيّة، والبُرداء.

وهناك غير ما تقدّم من مساوئ موقع دمشق. فليس في تكوين الارض عقبة واحدة جديرة بان توقف سير المكتسح، وتضمن للحامية الظهور عليه. ثم ان الطريقة التي اتسعت بموجبها مدينة دمشق، مهما تكن طبيعية معتدلة، فانها تسهّل على المكتسح ان يقطع الماء على القسم الاكبر من السكّان.

وعلينا ان نشير كذلك الى خلوّ المنطقة من حجر البناء. فان المدينة القائمة على بسائط من الحصى التي يجرفها النهر، لا يمكنها ان تستخدم من موادّ البناء.

الّا صلصال الارض وجذوع حور الوادي ، وهي موادّ ضعيفة ، بعيدة عن الجمال .

واهم تلك النواقص صعوبة المواصلات بين المدينة والبحر (راجع الرسم ٧) .
كيف لا ومن شاء قطع الحاجز الجبلي المزدوج في لبنان وانتيلبنان عليه ان يقطع إما الثنايا المرتفعة المغمورة بالثلج كل شتاء ، او الاودية الضيّقة العميقة ؛ وكلّها طرقات صعبة في كل زمن ، بل انها لا تقطع على مدة من السنة . اما الى الشمال والشرق والجنوب ، وهي الجهات المطلقة ، فالمواصلات صعبة كذلك لا تسهّل حركة للمبادلات شديدة . وسبب ذلك تلك الحرّات المنبسطة في بعض المناطق ، ونقص الماء طول الطريق ، والخوف الدائم من هجوم لصوص البادية .
فان تكن دمشق ، في هذه الاحوال ، قد صارت مركزًا تجارياً فانما كان ذلك لأنها سوق لمنطقة زراعية ، ولأنها مركز صناعي مهم . فهي مدينة في ازدهارها لهذه الصفة المزدوجة اكثر منها لموقعها الجغرافي . واذاً فان اهمية المدينة هي التي عززت حركة الاخذ والعطاء ، بضدّ ما نراه في غيرها من المناطق .

اما صعوبة اتصالها بالبحر فقد نتج منها ان مصير دمشق تعلّق بمصير الشرق خاصّة ، فانحرفت عن البحر المتوسط ، وغدا تاريخها يهيمن عليه البدوي .
واذا بهذا يظهر فيه ، وفقاً للحوادث المتقلّبة ، تارةً صعلوكاً جائعاً عرياناً يروعه جوّ المدينة ولكنه يضطرّ الى دخولها ، فيبدل بمنتجات ماشيته ما يحتاج اليه من الحبوب والسلع ، وطورًا سيّدًا عاتياً جشعاً مخرّباً . وهكذا فان وجود البدو على ابواب دمشق وفّر لها منافع جمّة ، ولكنه وفّر لها كذلك مخاطر مقلقة .
وهو ما انتبهت له السلطات المتتابعة على حكم المدينة .

المدينة الاولى

من الطبيعي ان لا يكون لدينا نصّ اكيد على عهد تأسيس المدينة ، ولا على الحوادث التي احاطت بنشأتها .

بيد ان الإشارات الاولى الى دمشق في النصوص المصرية والاشورية تظهر لنا المدينة مركزًا اقتصادياً وسياسياً ينال اهميته ، دون شك ، من خصب الواحة المحيطة بها . ولا يخفى ان هذا الخصب مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالري ،

-والزي وحده يضمن الحياة الدائمة للنبات في ارض تحرقها الشمس مدة ثلاثة ارباع السنة . فيلزمنا اذاً الاقرار بان تفرّعات النهر العاملة على ازدهار تلك الواحة كانت موجودة ، إمّا بشعبها المهمة او بقسم منها ، منذ منتصف الالف الثاني قبل المسيح على اقل تقدير . ولا يسعُ بالنا عن فقر المعدّات في تلك العصور ، ولا يُعرف منها الّا الحجر ، والخشب ، والبرونز على مقدار ما . ولنتأمل الآن بطريقة الريّ وما تظهر عليه من تشعُّب وتركيب ، وما يفرضه تصوّرها وحده من معرفة واسعة بنواميس المائيات الاساسية . ولنجرّب ، بعد هذا ، تخمين القرون التي مرّت قبل ان يتوصل الانسان الى إحكام العلم وامتلاك المعدّات الضرورية في سبيل تشعيب مياه النهر ؛ فيبدو لنا ازدهار منطقة دمشق الاقتصادي ، كما تبدو لنا عظمة المدينة نفسها في آخر الالف الثاني قبل المسيح ، ثمرة الجهود المتتابعة دون انقطاع مدّة الالوف من السنين ، وبالتالي نهاية تطوّر طويل بطيء .

وقد نتمكّن من رسم الخطوط الاساسية لهذا التطوّر ، اذا ما استندنا الى خصائص المدينة الجوهرية في القرن الحادي عشر قبل المسيح . ونحن نعرفها في هذا القرن معرفة تاريخية واضحة بفضل النصوص الواردة في العهد القديم .

تبدو دمشق ، في هذا العهد ، مدينةً ذات اهمية تتجاوز البيئة القريبة المجاورة ، حتى انها تظهر في المسرح الدولي فتمثّل دورها في مصير الشرق الادنى بكامله . كانت دمشق ، اذ ذاك ، عاصمة المملكة الارامية . وهذه المملكة اعظم دولة في سورية ، ذات منعة وسطوة ، تفرض ارادتها في اكثر الاحيان على مملكة اسرائيل المجاورة ، بل انها كانت تقاوم دولة الاشوريين نفسها ، وتنتصر عليها مرّات . وقد قرنت هذه السطوة السياسية بالازدهار التجاري ، متصلةً بفينيقية وبلاد الجليل مصدرةً اليها القمح والخمر . وكانت ، فوق ما تقدّم ، مركزاً دينياً يتمتع هيكلها بنفوذ لم يفقده الّا في اواخر ايام الوثنية .

وعلى ما نشعر به من عوز للوثائق الاصلية المباشرة ، فاننا نتمكن من تصوّر مظهر هذه المدينة الارامية ، في صفاتها المهمّة على الاقل .

ونحن نعرف نواتها الاصلية وهي هضبة تقع في قلب المدينة القديمة ، مشرفة على الأرض المجاورة من ارتفاع يبلغ خمسة الى ستة امتار (الرسم ٨). ولما كان بعيداً ان تكون هذه الهضبة طبيعيّة ، لزمنا ان نرى فيها «تلاً» ، اي واحداً من تلك المرتفعات التي تكوّنها ، قرناً فقرناً ، آثار الابنية القديمة المتهدّمة ، وما يقام عليها من ابنية حديثة تُرفع على انقاض الاولى بعد ان يُسوّى سطحها . وانه لمن الصعب ان تقدّر قطر هذا التلّ الاصلي وقد تضخم شيئاً فشيئاً بارتفاع مستوى الأرض المتتابع ، حتى ان ارض القرن الثالث قبل المسيح تقع على ثلاثة او اربعة امتار تحت المستوى الحالي . على انه من الراجح ان يكون هنا ، في هذا التلّ ، موقع قلعة المدينة الأولية ، وموقع قصر ملوك دمشق . يؤيد هذه الفرضية بعض التأييد ذلك الاسم التقليدي الذي كان عالقاً بهذه الناحية من المدينة ، زمن الفتح العربي ، وهو اسم «البريص» ومعناه «القلعة» . واصله يوناني-آرامي نتحقق اثره في اورشليم حيث يدلّ على القلعة الانطونية كذلك .

ونعرف في دمشق ايضاً موقع الهيكل القديم حيث كان يُعبد الاله السوري الكبير هَدَد ، إله الصاعقة . وهو يقابل ، دون شكّ ، موقع الهيكل الكبير الذي بُني ، في العهد الروماني ، لعبادة جوبيتر ، وقد أدمج بالاله هدد . نعرف ذلك من ان الهيكل السامي تحيطه عادةً منطقة تدعى «الحرم» ، فتجعله مستقرّ التخطيط ، ثابت الموقع . اما مظهره البنائي فسندرسه في ما يلي .

ثم ان لدينا معلومات دقيقة واضحة في ما خصّ امر توزيع المياه الخطير ، وذلك بفضل حادثة نعمان الابرص الواردة في الفصل الخامس من سفر الملوك الرابع ، وفيها ذكر لنهري دمشق : أبانة وفرفر .

اما أبانة فمن الراجح انه المسمى «بنهر بانياس» ، وهو احد الاقنية التي لا تزال ، الى يومنا هذا ، تمدّ بالماء قسماً من المدينة القديمة . يؤيد ذلك ان اسمه العربي القديم «باناس» قد يوافق النقل اليوناني «أباناس» للاسم الوارد في سفر الملوك . ثم ان تلك القناة ، بين سائر الاقنية المتفرّعة عن النهر ، تظهر اقصرها مدًى واسهلها حفراً (الرسم ٩) ، وهو ما قد يرجّح قدمها . وهناك ،

فوق ذلك ، دليل جدير بالاعتبار على هذا القدم ، وهو ان القناة المذكورة تمدّ بالماء الهيكل والمدينة الاصلية.

اما نَوْفر فقد لا يكون الا النهر نفسه أطلق عليه هذا الاسم لفورانه واندفاع تيّاره، وفي الاسم ما فيه من الدلالة على حركة ناشطة أشبه بحركة جناحي الطائر او « زفرفة » الفراشة.

وليس من شك كذلك في ان القناة التي ظلّ عالقاً بها الاسم الآرامي « نهر ثورا » او الثور، كانت تمتدّ اذ ذاك في كنف الجبل. وهي اعظم الاقنية اهمية في ازدهار الواحة الزراعي مجرية ٢٤/١٤ قيراطاً من المياه راوية اكثر من ٦٠٠ هكتار.

وهكذا فان الهيكل والتلّ ، لاحقاً به القصر ، يمثلان المركزين اللذين تألف حولهما المجتمع الحضري . بيد اننا لا يمكننا تخمين مساحة المدينة لجهلنا تخطيط السور المحصّن الذي كان يحيط بها، وفقاً للعادة المعهودة في ذلك العصر.

اما مظهر المدينة اذ ذاك ، على ما يتصوّره بالاستناد الى الوثائق الظاهرة من الحفريات ، فقد كان لا يفرق كثيراً عن مظهر القرى المجاورة اليوم، وهذه قد نشأت وتطوّرت في الحالات نفسها . ويجب في ذلك ألّا ننسى ما تتصف به العوامل الطبيعية من الاستقرار التامّ ، وما يظهر عليه السكان المزارعون في كل مكان من العراقة بالقِدَم . وعلى مثال كل المجتمعات الحضرية المتكوّنة دون تصميم سابق ، كانت دمشق ، دون شك ، بعيدةً عن التنظيم والترتيب. فكان بناء البيوت ، وفتح الطرقات ، لا يعرف قواعد الا تلك التي تفرضها طبيعة الارض ، وحدود الملكية الخاصة ، واهواء الافراد . فليس من اهتمام بمظهر المدينة ولا بما يجب ان يتصف به من فنّ وجمال . واين هذه الاعتبارات من بنّائي ذلك العصر ، وزيّ البناء العادي يصرفهم عنها ، ولا مادة لهم الا الطين يستخدمونه تارةً دكّاً ، وطوراً لِبناً غير مطبوخة يملأون بها خلايا هيكل يصنعونه من الخشب ، من جذوع حورات الوادي . وهي طريقة في البناء بسيطة ، قليلة النفقات ، لا تتطلّب الا المواد الحاصلة بين ايديهم . ولا يخفى ان مثل هذه البنايات غير شائقة ولا ممتعة ، فلا تبدو لعين الناظر الا

مكعّبات طامسة الجدران ، مطليتها بمزيج من التراب والقشّ المتقطع . وهي ، فوق ذلك ، عرضة للانهيار .

اما البنايات الكبيرة فقد كانت ، على الارجح ، مبنية على الطرق التقليدية نفسها التي رأيناها في البنايات الخاصة . ولكن هذه الاساليب الابتدائية في البناء لا تنفي بعض الترف كان يؤخذ به في تزيين داخلية البناية . ولقد كان في الهيكل مذبح على شيء من الجمال حتى ان احاز ، ملك يهوذا ، اخذ شبهاً عنه فبعث به ليوضع في هيكل اورشليم . ونحن نعرف شيئاً عن اثاث القصر وقيمته الفنية . وذلك بفضل اكتشاف اثري في الجزيرة اطلعنا ، في اطلال قصر اشوري ، على بقايا مهمة من محفة جليلة كانت للملك حازائيل الارامي (٨٤٤ – ٨١٢ ق.م.). وفي تلك البقايا عدد يُذكر من الصفائح العاجية ، مزينة بالحفر وبالنقش الناتئ ، وبالتذهيب في بعضها ، وفيها صفائح من البرونز المنزّل بالمينا . امّا عناصر الزخرف في هذه القطع الفنية فمأخوذة كلها إمّا عن مصر ، او عن أشور ، او عن مجموعة الفنّ الايجي . وبصرف النظر عن بعض التحويرات المميزة ، فان هذا العمل على توفيق النزعات الفنية لدليل على ان وراءه فكرة فنيقية .

هذا مجمل ما نعرفه اليوم عن دمشق الآرامية .

***

بيد انه مهما تتصف به هذه المعلومات من غموض ، ومهما تستند اليه من فرضيات ، فانها كافية لترشدنا الى سبب وجود المدينة ، والى اتجاه تطوّرها ، مدة ألوف السنين السابقة ، تلك المدة التي لا تفيدنا عنها الاصول الادبية ولا الوثائق الراهنة . فيمكننا ، والحالة هذه ، ان نعيّن نقطة مهمّة هي موقع المدينة . ذاك الموقع الذي دلّ عليه مركزه الاصلي ، اي التلّ والهيكل ، والذي كان قائماً على ضفة النهر ، لا في الوادي نفسه ، بل على مرتفع مشرف على قعر الوادي . وهو لا يكاد يختلف عن موقع القرى في المناطق الزراعية المستندة الى الري . فان كل بقعة من الارض قابلة للريّ في تلك المناطق ، ايّاً كان صغرها ، لأثمن من ان تُخصّ بغير الزراعة . ولهذا يمكننا

القول انه وُجد اولاً ، في هذا المكان ، قرية كانت تعيش من حبوب السهل، ومن محصولات الخضر المزروعة في قعر الوادي المرويّة بماء النهر على اساليب ابتدائية بسيطة . وهكذا ، على الارجح ، كانت نشأة مدينتي حلب وحماه . ولا يُعترض على هذه الفرضية بضيق الارض القابلة للزراعة على ضفتي النهر . فان كثيرًا من القرى السورية لتغتبط اليوم لو كان لها مقدار تلك المساحة الضيقة من الارض الرطبة الخصبة ، وان كانت لا تكفي طبعاً لحياة مجتمع كبير من السكان.

أما كيف اصبحت هذه القرية الزراعية الصغيرة مركزًا حضريًا ، بل عاصمة قادرةً على مجابهة المكتسحين الاشوريين ، فقد يكون ذلك نتيجة للفتح الآرامي . وقد يمكن الفرض ان هؤلاء الآراميين أتوا من بلاد ما بين النهرين، وهي البلاد المشهورة بالريّ العريقة بالمدنية ، بأساليب وطرق زراعية اكمل من اساليب السكان الوطنيين ، فاخذوا يهدّون ضفتي النهر لتوسيع المنطقة المرويّة حتى انتصروا على الصحراء . فأخروا حدودها شيئاً فشيئاً امام الاراضي المزروعة . وهناك ما يؤيد هذه الفرضية في اسم المدينة نفسه . فاننا بينا نرى قرى الواحة جميعها تُسمّى بالاسماء الآرامية ككفربطنا وعقربا وغيرهما ، اذا باسم المدينة وحده ، وهو الاسم الذي تدعوها به النصوص المصرية والاشورية ، والذي حفظته مدة القرون العديدة : دمشق ، يبدو غريباً عن اللغات السامية فلا يمكن شرحه بالاستناد الى احداها . ثم انها البلدة الوحيدة ، في كل تلك المنطقة ، التي تظهر قائمة على النهر نفسه ، لا على مجرى متفرع عنه . هذا المظهر الغريب المزدوج : في اسم المدينة ، وفي مركزها ، يدفعنا الى الفرض ان لدمشق نشأة مختلفة عن نشأة سائر القرى القائمة في تلك المنطقة . فنقول انها بعد ان انشأها السكان الاصليون في زمن لا نعرفه ، ولكنه عريق جدًا في القدم ، استفادت مما اتى به المهاجرون من طرق التحسين في استغلال البقعة المجاورة ، فازدهرت حتى اصبحت ، دون غيرها من القرى الاصلية ، سوق الواحة كلها وسوق البدو الرُحّل . وقد تابعت ازدهارها شيئاً فشيئاً كلما اتسعت الاراضي المزروعة حول النهر، وها هي تبدو مدينة متوسطة تحيط بها الضواحي

الزراعية ، فعاصمة اقتصادية وسياسية للمنطقة جميعها ، حتى تظهر « رأس بلاد آرام ».

***

ثم يظفر الاخيمينيون فيضمّون سورية لبلادهم ، وتنتهي الحقبة الاولى من تاريخ دمشق. وذلك ان عوامل ثقافية جديدة تؤثر فيها سريعاً ، فتعجل تطورها الى اتجاه جديد . على انها تظلّ دائماً على ما ظهرت عليه في هذا العصر ، اي اعظم مجتمع حضري في سورية الوسطى ، محتفظة بكل الصفات التي ستزداد بروزاً في القرون التالية ، الا وهي : كون دمشق مركزاً للحكومة ، ووسطاً اقتصادياً ، ومقاماً لهيكل كبير.

المدينة اليونانية - الرومانية

كان شتاء السنة ٣٣٣ ق. م. محطة حاسمة في تطور دمشق . فان المدينة اتصلت ، اذ ذاك ، اتصالاً وثيقاً بالثقافة اليونانية . كانت دمشق قد أدمجت ، بلا عنف ، بامبراطورية الاسكندر ، بعد معركة إيسوس ؛ فاصبحت ، على اثر وفاته ، من نصيب السلوقيين ، بعد ان نازعوا البطالسة عليها وعلى سائر مناطق سورية المتوسطة . وظلّت في ايديهم الى يوم تخلصت فيه رومة من قرطاجة ، فأخذت تتدخّل بشؤون الشرق تدخّل السيد المطلق . فانتزعت دمشق من ورثة انطيوخوس . وكان ان الامبراطور پومپي اعلن سورية مقاطعة رومانية في سنة ٦٤ ق. م. فالتحقت بالغرب سياسة وثقافة حتى الفتح العربي سنة ٦٣٥ .

اما دمشق فكانت طول هذه القرون السبعة ، بفضل سيادة العناصر الغربية ، كأنها مقتطعة من آسية ، فهي أقرب الى المدن الاوربية اتجاهاً واتساقاً في تطورها .

ظلّت مدة القرون الاولى للسيادة المقدونية تحيا حياتها العادية المتتابعة على وتيرة واحدة غير متجاوزة المركز الاقتصادي المحلي الذي عرفناه ، حتى خرجت فجأةً من الظلام ، فتحوّلت ، في زمن لا نعرفه ، الى مدينة يونانية .

ولا يخفى ان خلفاء الاسكندر ، بطالسة وسلوقيين ، اهتموا كل الاهتمام بتابعة عمله . كانوا يونانيين مؤمنين بتفوق مدنيّتهم ، فرأوا ان يرفعوا الشعوب التي اخضعوها الى مستوى ثقافتهم الخاصة ولهذا اكثروا في مناطق الامبراطورية من تلك المدن الجديدة يُنزلونها اليونان او الآخذين باليونانية ، على أمل ان تلك الثقافة تتّسع شيئاً فشيئاً فتبسط نفوذها على ما حولها حتى يأتي يوم يمتزج فيه اليونان والاعاجم في ثقافة واحدة . وقد رموا بانظارهم الى سهول سورية الفسيحة المزدهرة فيها معالم المدنية الوطنية ، فانزلوا في كل من مدنها الكبيرة، حلب ، وحماه ، ودمشق ، طارئةً يونانية كانت غايتها ان تعادل تأثير الجمهور الآرامي وان تستسيغ هذا الجمهور ، اذا امكن .

ونحن لا نعرف شيئاً عن اسم طارئة دمشق ولا عن تاريخ تأسيسها . الا اننا نتحقق تارةً وجود طارئة باسم ارسينوي (*Arsinoé*) يُنشئها بطليموس فيلادلف في سورية المتوسطة في منتصف القرن الثالث ق. م. وطوراً نرى اسم ديمتريَاس (*Demetrias*) لطارئة أسسها احد ملوك السلوقيين في السنة ٩٥ او ٨٨ ق. م - واحياناً يحمل بعضهم طارئة دمشق ذات علاقة بما انشاه انطيوخوس التاسع السيزيكي في المدينة نفسها على اثر قسمة سورية سنة ١١١ ق. م. وليس ما يمنع ان تكون هذه الحوادث الثلاث تناوبت دورياً على الموقع نفسه فتكون الاولى مؤسسة بطليموس المدعوة ارسينوي، يليها اختيار دمشق عاصمة على عهد انطيوخوس التاسع ، ثم انشاء طارئة جديدة مدعوة ديمتريَاس .

بيد ان اليونانيين الطارئين على دمشق ، في هذه الاحوال ، لجدّ بعيدين عمّا كان عليه رفاق الاسكندر . فان هجرهم للوطن الاصلي ، وزواجهم بالنساء السوريات ، والمناخ الغريب ، وسهولة المعيشة ، كلّ هذا أثّر فيهم فغيّر ميزتهم الاصلية حتى اصبحوا اشبه بمواليد المشرق من الغربيين (*Levantins*) . ولكنهم ظلّوا يونانيين بشعورهم وارادتهم ، محافظين ، ما امكنهم ، على لغتهم وآلهتهم ، واوضاعهم السياسية وثقافتهم ، عاملين ، في مقاماتهم الجديدة ، على ايجاد نظام خاصّ يتفق ومرافق حياتهم الاجتماعية ، ظاهراً في طريقة البناء. وخصوصاً في ذلك العنصر الاساسي لكل مدينة يونانية وهو الساحة العمومية

المعروفة بالأغورا (agora) حيث تُقام السوق ، ويجتمع الوطنيون ، وظاهرًا كذلك،اذا كان اليونانيون وافري العدد ، في ساحة الالعاب الرياضية ، والمسرح . لهذه الاسباب نرى اليونانيين الطارئين لا يتزلون داخل المدينة الوطنية نفسها .

واذًا فقد اتسمت دمشق بتلك السمة التي تتحققها كلما اجتمعت ثقافتان مختلفتا المستوى ، او متباينتا الصبغة ، فاضطرتا الى الحياة معاً في المنطقة نفسها . فاصبحت مدينةً مزدوجةً كما نرى اليوم في شنغاي والدار البيضاء مثلًا . اقام الطارئون الى جنب المدينة القديمة ، في احياء جديدة بنوهـا ونظّموها وفقاً لحاجاتهم الخاصة ، وطرق معيشتهم المستقلة ، فأسسوا الى شرقي المدينة الآرامية الاصلية المتجمعة حول هيكلها ، مدينـة يونانية محيطةً بساحتها العامة . واذا بالمدينتين تعيشان ، مدة القرون العديدة ، جنباً الى جنب ، ولا تتفاعلان تفاعلًا عميقًا .

ومما يميز هـذه الاحياء الجديدة عن المدينة السامّية ما يراه الانسان لأول وهلة من تناسق البناء ، وموافقته لتصميم منظّم : فان البيوت ، بدل أن تتكردس بعضها فوق بعض دون ترتيب ، تبدو منسقة في احياء مستطيلة تتعادل مساحةً ، وتخترقها شوارع مستقيمة تتقاطع على زوايا قائمـة . وقد روعي في دمشق ما روعي في سائر المؤسسات اليونانية في سورية من اتساع الشوارع اتساعاً يعادل متوسط المساحة لبيت السكن . فاتت الاحياء بالغة مساحة ١٠٠ متر في ٤٥ مترًا على التقريب . وقد حُدّد هـذا العرض على طريقة تمكن من بناء صفّين متوازيين من البيوت في الحيّ الواحد فتتقابل مؤخراتها ، ويكون لكل منها اتصال مباشر بالطريق العام . اما عرض الطريق فكان قليلًا لا يتجاوز ثلاثة الى خمسة امتار . ولكنه كان كافياً عهد لم يكن من طرُق النقل الا الدواب ، واضخم ما يمكن ان يمرّ بالشارع جمل يحمل عدلَين . واما الساحة العامة فاننـا نجهل مساحتها ، وان كنا نعرف موقعها .

وليس من شكّ في ان هذه المستعمرة اليونانية في دمشق ظلّت ، كسائر المستعمرات في سائر المدن ، ذات اهمية ثنويّة بالنسبة الى المدينة الاصلية التي التصقت بها . وعلى كلّ فقد كانت اقلّ عـددًا واضيق رقعةً ، حتى العهد

الروماني ، فبدأت تتقدّم وتتسع بفضل ازدهار اقتصادي نادر المثال.

***

وكان سبب هذا الازدهار عامل جديد ، بعيد الاثر في النجاح ، عامل لم تعرفه البلاد قبل دخول رومة ، الا وهو السلم . ففي الداخل نظام تام يسود حتى البدو فيضبطهم هائبين ، وفي الخارج لم تكن الحروب ضدّ الفرس لتقف حاجزاً في سبيل تقدّم سورية الاقتصادي ، بل انها افادت المدن مورداً جديداً للثروة ، وذلك ان الجيوش المعسكرة ما وراء الفرات كانت بحاجة الى القمح والزيت والخمر . ثم ان حركة المعاملات الواسعة في مناطق الامبراطورية الغربية لفتت انظار التجار ، فعادوا الى اتخاذ طرق البحر متاجرين حتى رومة وبلاد الغال . وكذلك القول عن تقدّم الزراعة ، وقد اصبحت محمية من اكتساحات البدو ، مزدهرة بفضل انشاء سدود جديدة . وها ان النقد يتداول بكثرة في كل مكان ، وها ان المدن تكبر بسرعة عجيبة كانطاكية وتدمر .

وكان مما ساهم في هذا الازدهار المستند الى الثروة العامة ، ذلك النظام الاجتماعي . وقد احترمت رومة ، في كل مكان ، مؤسسات المدن اليونانية جميعها ، بل انها كافأت بعض المدن على ولائها فاعطتها ميزات دستورية تزيد في استقلالها ، كما حصل لدمشق مثلاً فانها نالت ، على عهد هدريانوس ، لقب « متروبول » ، ثم لقب « مستعمرة رومانية » ، على عهد الكسندروس ساويروس . وهكذا فان تلك المدن ، وقد اثرت وازدادت حركة ، لم تفقد شيئاً من سيادتها السابقة على مقدّراتها الخاصة ، بيد انها ، وان لم يتغيّر مبدأ الحكم فيها تغيّراً محسوساً ، فقد تأثرت دون شكّ بمرور الزمن وانقلاب الاحوال . ذلك ان الادارة الرومانية اخذت تبدل بذلك الاضطراب الفوضوي الذي طالما افسد حياة المدن اليونانية ، ميلها الى النظام ، وروحها الآخذ بالترتيب الرصين ، وفهمها للعمل المتتابع والحقائق المحسوسة . ولأول مرّة في التاريخ نرى المدن السورية تنمو وفقاً لمبادئ جدّ ثابتة ، وطبقاً لتشريع تفرضه الادارة البلدية عن اطلاع ومعرفة ، وغاية جهودها السعي في رفاهية الجمهور ، وتجميل المدينة ، واقرار النظام في سبيل الراحة العامة . وكلها جهود حضريّة

تعمل على ان تحلّ نمواً موجَّهاً محلّ ذاك النموّ الطبيعي الذي عرفتــه المدن سابقاً .

وقد ظهرت هذه الجهود في دمشق اولاً بانشاء مشروعين في سبيل الخير العام ، هما بناء سور يحيط بالمدينة ، وعمل قناة جديدة لماء الشرب .

اما السور ، وهو يجمع مساحة ١٠٥ هكتارات ، فقد كان يحيط بالمدينة الارامية ، وبالاحياء الجديدة ، مبنياً على طريقة التحصين الروماني . اي انه كان مستطيلاً يبلغ ١٠٠٠ متر في ٧٥٠ متراً ، وتمتد اضلاعه مستقيمة تماماً ، ما عدا في الجهة الشمالية وهي المشرفة على النهر ، الذي قام مقام الخندق ، فكان لا بدّ فيها من الالتواءات والمنعرجات . وكان في السور سبعة ابواب : ثلاثة منها في الواجهة الشمالية ، واثنان فقط في الواجهة الجنوبية وهي اصعب حماية ، واثنان ، وهما البابان المهمّان ، في الواجهتين الشرقية والغربية .

واما القناة الجديدة فقد دفع الى حفرها ازدياد عدد السكّان . وهي لا تزال معروفة حتى اليوم باسم « القنوات » ولا تزال تمدّ بالماء اكثر من ثلاثة ارباع المدينة القديمة ؛ تتفرّع عن النهر عند دخوله في السهل ، قبل الوصول الى القناة الاصلية . وقبل ان تدخل المدينة ، تقطع احدى المنخفضات على جسر من قناطر معقودة . ولا شكّ في انها كانت تتصل ، في العصور القديمة ، بخزّان فخم تزينه تماثيل آلهة المياه .

وقد أُعيد بناء الهيكل من آساسه موافقاً لذوق العصر ، ولكنه ظلّ محتفظاً ، على مظهره الغربي الجديد ، بالمرافق والترتيبات الجوهرية في كل هيكل ساميّ . فظهر حولــه سوران دائران احدهما بالآخر : يحدّد الاول منهما ، « حرَم الاله » (téménos) ، المتصف بصفة الملجأ او الملاذ ، بالغاً ٣٦٠ متراً في ٣١٠ امتار ، محفوفاً برواق من الداخل . وفي صدر واجهته الامامية مدخل مسقوف على اعمدة . اما واجهته الخلفية فقد تتابعت مستندة اليها سلسلة مخازن الهيكل ومساكن السَدَنة . وفي وسط هذه الساحة الفسيحة يرتفع السور الثاني (péribole) ، وذرعه ١٦٠ متراً في ١٠٠ متر ، وفيه ، كما في السور الاول ، ذاك المدخل الفخم ذو الاعمدة ، وذاك الرواق الدائر المسقوف ، النافذة منه

الداخل. وهذا السور يحيط بالهيكل نفسه المدعو سيلا او تاروس ، المخيّم على الوثن المعبود ، وعلى كنز الاله ، والقائم امامه المذبح ، وحوض الاغتسال . وكل هذا مبنيّ بالحجر المنحوت على الزيّ الكورنتي .

اما الاحياء الجديدة فظلّت على ما كانت عليه في العهد اليوناني ، على الاقلّ في ما خصّ التصميم . فقد حوفظ ، في اتساع المدينة ، على ما عهدناه من طرق تخطيط الشوارع ، وتقسيم البنايات الى مناطق ، الا في ما ندر ، فان بعض التخطيطات انحرفت عن اتجاه الشوارع الاصلي . واذا قارنّا بين مظاهر هذا الانحراف وبين الاسم العربي الذي أطلق عليها وهو « النيبطون » فاننا نستدلّ على انها من اثر النبطيين الذين احتلّوا دمشق مرّتين ، على العهد الروماني .

وكان ان بناء الاسوار اضطرّ الى توسيع الشوارع النافذة الى الابواب ، واهمها الجادّة الكبرى النافذة من الباب الشرقي الى الباب الغربي ، وهي محور المدينة . كانت تمتدّ خطّاً مستقيماً ، على طول ١٥٠٠ متر ، مخترقةً البنايات المتراكمة في المدينة القديمة ، وقد استُملكت من اربابها ، متسعةً على عرض ٢٥ متراً ونصف المتر ، منها ١٢ متراً للطريق المرصوفة بالبلاط ، وما بقي للرصيفين المسقوفين ، وراءهما الحوانيت المتتابعة دون انقطاع تحت الرواقين المرفوعين على الاعمدة . وكانت هذه الجادّة المستقيمة تزدان بالآثار البنائية تُقام في المفارق المهمة ، من ذلك ثلاث اقواس فخمة . وكان للمدينة جادّة اخرى الى شمال الاولى ، تصل بين الهيكل والساحة العامّة ، وكانت هذه الساحة آخذةً من مدخل مسقوف ، محوطةً ، على ما نرى ، برواقين ، حافلةً دون شكّ بالهياكل ، والمقامات النذورية ، وتماثيل المحسنين الى المدينة (الرسم ١٠) .

وان لنا في الاسماء الغربية القديمة ما يكمّل معلوماتنا عن المدينة في ذاك العهد . فان الحيّ المدعو « الدِّيماس » يقابل موقع « Dêmosion » اي « دائرة المالية » القائمة قرب الساحة العامّة . وكذلك الموضع المسمّى « الفُرناق » فانه يدلّ على مكان الفخّارات « fornaces » لا على اتاتين الكلس ، لان بناء القوم كان بالطين . و « البريص » يُشير الى موقع القصر ؛ و « النُّسقار » « foscarion » يدلّ على مكان صنع الفُسقة وبيعها والفُسقة شراب فيه ماء وخلّ ، كان يشربه الجنود

الرومانيون . ثم المكان المسمّى « المقصلاط » كانت تلتقي فيه ، دون شك ، الاسواق المسقوفة « macella » . وكان امام مدخلها قوس عالٍ يرفع تمثال رجل واقف يمدّ يده .

وان اكثر هذه البنايات التجميلية في المدينة بُنيت على عهد سبتيموس ساويروس وقاراقلّا ، اي في اواخر القرن الثاني واوائل الثالث للمسيح . وواضح ان اهميتها لا تقف عند مظهر الجمال فيها ، بل تتجاوز الى انها تظهر متأثرة بتكوين المدينة نفسها . فان غوّ المدينة في العصور الوسطى تطوّر وفقاً لميزات دمشق الرومانية ، « دمشق الجميلة المقدسة » ، سواء أكان هذا التطوّر متابعاً المبادئ الغربية أم مقاوماً لها .

الامويون

دخل العرب دمشق في ايلول سنة ٦٣٥

ولم يكونوا يجهلون المدينة قبل ذاك . وان تكن بُصرى محطّ رحالهم في اغلب الاحيان يأتون اليها بحاصلات الهند واصاغ بلادهم المعطرة ، تابعين الطريق العظمى الرومانية على حدود جزيرتهم ، فقد وصل غير واحد منهم الى دمشق ، في القرون السابقة وعاد منها يحدّث ، ويردّد حديثه الشعراء ، بما تمثّل تلك الجنائن المتدفّقة انهارها ، الوافرة ظلالها ، المغرّدة طيورها ، تلك البقعة الفسيحة من الخضرة ، الحافلة بعدد من الشجر يربو على اشجار بلاد العرب جمعاء ، الماثلة لذةً فائقةً بل صورة فردوسية لاولئك البدو ارباب القوافل وقد اضنكتهم اسابيع السير في البيداء المقفرة .

ولم يكن تأثير دمشق على الفاتحين المسلمين باقلّ من هذا التأثير . واذا دمشق في نظرهم شامة الارض ، وجنة الدنيا ، واحدى عجائب العالم ، يرون فيها احد المواقع التي شرّفها الانبياء ، — وايّ موقع يشرّفون ان لم يشرّفوا جنة كدمشق ؟ — ففيها قتل قابين هابيل ، وفيها وُلد ابرهيم ، وبها لاذ عيسى وامه لاجئين « إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ » ، وفيها ينزل عيسى في منتهى الازمان ليقاتل المسيح الدجّال . وغير خافٍ ان هذه الصور المجازية ، والعمل على تعيين

الاماكن التقوية، تعبّر كلها عن اعجاب شعب كان محصوراً منذ القدم بين آفاق الحجاز القاحلة الجرداء . بيد ان دمشق لم تمسك العرب طويلاً ، والبدو بحاجة ، في رعاية ابلهم ، الى سهول فسيحة لا يجدونها في واحة دمشق. فغدا مجتمعهم الضخم في سورية الوسطى على ٨٠ كيلومتراً من جنوبي دمشق ، في حاضر الجابية من ارض حوران . وهناك اخذ بعض الافراد ، بل اقسام من القبائل ، في التحضر شيئاً فشيئاً ، ساكنين المضارب او الاكواخ الحقيرة من الطين والقصب.

وهكذا ظلت دمشق في المحل الثاني من الامبراطورية الجديدة ، حتى بويع بالخلافة لمعاوية ، والي سورية . فاختارها عاصمة له سنة ٦٥٦ . وقد جاء هذا الاختيار دليلاً ساطعاً على ما كانت تهتم به الدولة الجديدة . ذلك ان البدو كانوا لا يزالون يؤلفون مادة الحروب في سبيل الاسلام . ولكن الامبراطورية كانت قد تجاوزت حدود جزيرة العرب ، فاتسعت على بلاد عريقة في التمدن ، واخذت تستخرج منها مجموع مواردها المالية.

ثم ان امراء الدولة الجديدة كانوا لا يزالون متعلقين بالعروبة يتدخلون ، عن رضى ، في مشاحنات القبائل ، ويتسللون ، كل سنة ، الى البوادي الفسيحة فيعيشون عيشة امراء البدو في المضارب ، مدة الاسابيع الربيعية . على انهم كانوا يأخذون ، الى ذلك ، بحياة التمدن ، فينعمون بالحمامات ، والموسيقى ، ومجالس الانس في الديورة ، نعيّتهم بمدائح شعراء البدو وبمظاهر الطراد في القفار. وليست مدينة اجدر من دمشق بان تسهل عليهم حكم المناطق المتحضرة ، والمحافظة على الصلة بالبدو ، فتجمع لهم بين مرافق المدنية ، وملذات الماطفة والرياضة في الحياة البدوية .

ولم يكن الحكم العربي ، في اول عهده ، ليؤثر الاثر العميق في ميزات المدينة . فان سكانها من المسلمين كانوا اقلية ضئيلة بالنسبة الى سائر السكان. ولم يبدُ من مظاهر الحكم الجديد الا بناءان ضروريان هما الجامع ، ودار الخلافة . اما الدار فلم تكن الا مسكن الخليفة الخاص . واما الجامع فله اهمية خاصة في حياة المسلمين . هو المعبد يجب على كل مسلم ان يأتي فيؤدي

فيه صلاة الجمعة كل اسبوع. وهو، فوق ذلك، مركز الحياة العامة. فيه تحتشد الجماعة فتبايع الخليفة بيعةً احتفالية؛ ومن على منبره يلقي الخليفة خطبه السياسية؛ وفيه يستقبل وفود القبائل؛ وفيه يُقام نصاب العدل؛ ويُحفظ بيت المال.

ولما كان هذان الصرحان متصلين صلةً وثيقةً احدهما بالآخر، وذلك ان غايتيهما متعلقتان بالخليفة: الاولى بحياته الخاصة والثانية بحياته العامة، شُيِّدا جنباً الى جنب في مكان كان من الامكنة القليلة المتروكة خالية في المدينة، وهو مكان حرم الهيكل القديم، وقد غدا لا غاية له. فبُني الجامع مستنداً الى الجدار الجنوبي من السور الثاني (péribole) (وضمن هذا السور كانت تقوم اذ ذاك، كنيسة القديس يوحنا المعمدان). اما القصر فبُني الى جنوبي الجامع لا يفصله عنه الا جدار جُعل فيه باب لمرور الخليفة من منزله الخاص الى «مقصورة» الجامع. وامام القصر اسطبلات أُطلق عليها اسم «دار الخيل».

وعلى مقربة منها اجتمعت منازل امراء الدولة الاموية. وقد قامت كل هذه البنايات، كما يؤخذ من النصوص التاريخية، على الاسلوب التقليدي في البناء المحلّي فاستُخدم فيها اللبن المجفف والخشب. على ان اسم «الخضراء» المطلق على القصر قد يفرض بعض التزويق في تزيين داخله. ولهذا لم تكن اهمية هذه البنايات في قيمتها الهندسية بل في كونها جُمعت ملتصقةً بعضها ببعض في قلب مدينة اكثريتها الساحقة من النصارى واليهود فالّفت بلدةً صغيرةً اسلامية كانت مركز سادة الحكم فغدت عنصراً مهماً في تطوّر دمشق.

ولم يقلّ اهمية عما تقدّم ما قام به ابن معاوية، في سفح الجبل، من حفر قناةٍ جديدة لا يزال اسمها حتى اليوم «نهر يزيد». فانها فوق ما دفعت اليه من اعادة النظر في توزيع «حقوق الماء» في الواحة كلها، عاملةً على توسيع المنطقة المزروعة باحياء اراضي حرستا والقابون، عملت كذلك على خلق قرى ومزارع في تلك الضاحية كان من نصيبها ان تبلغ في القرون التالية ازدهاراً ما كان ليتوقّع اذ ذاك.

وكان لا بدّ يوماً من ان يضيق الجامع الذي بناه الفاتحون. فان عدد المسلمين على ازدياد متواصل. وها ان الذمّيين ينتقلون الى الاسلام واحداً

واحداً ، تارة عن ايمان ، وطوراً عن طمع ، وحيناً — وهذه حالة الاكثرية — عن تخلص من دفع الجزية الفادحة ، وعن هرب من تلك الحالة المنحطة التي وضعهم فيها الاسلام . فوجب اذاً ان يكون لهذه الجماعة الاسلامية المتزايدة العدد جامع اوسع من الاول ، وافخم ، فيكون منظره اقل ضعة بالنسبة لتلك الكنائس الرائعة التي اقامها نصارى الشام.

ولما عزم الوليد، وهو من كبار بناني الدولة ، على القيام بهذا العمل ، اذا به يصطدم بمشكل صعب الحل : في تلك المدينة الغاصة بالسكان حتى تكاد تتجاوز اسوارها ، لم يبقَ ارض خالية من البناء الا الساحة القديمة . وكانت السوق الاسبوعية لا تزال تُقام فيها كل احد . اما حرم الهيكل فكانت بيوت المسلمين الجديدة قد اكتسحته شيئاً فشيئاً ، مدفوعين بقرب الجامع وبالرغبة في الحياة مع ابناء دينهم . ثم ان تجمعهم في هذا القسم من المدينة كان حائلاً دون التفكير بنقل الجامع . فلم يكن للوليد ، والحالة هذه ، الا حلّ وحيد لذاك المشكل ، وهو ما قام به ، عابثاً بالعهود السابقة ، منتزعاً من النصارى كنيسة القديس يوحنا المعمدان . على انه اعاد اليهم ، مقابل ذلك ، عدة معابد كانت قد أُخذت منهم سابقاً . وفي ذاك الموقع الملاصق للجامع الأول ، بدأ الوليد ، منذ السنة ٧٠٥ ، بناء ذاك المعبد الذي شاءه لائقاً بعظمة سلطانه ، والذي سيبقى شاهداً على دولته فيدعى بحق « جامع بني امية » . (الرسم ١١)

لقد بدأ العمال بهدم كل البنايات داخل السور الثاني ، فلم يبقوا الا على حائط السور نفسه ، وعلى ابراجه الاربعة في الزوايا ، فكان لهم فسحة خالية تزيد مساحتها على الهكتار . عند ذاك اتى دور المهندسين ، وهم دون شك من نصارى الشام ، بل قد يكونون من نصارى انطاكية . وقد فرض عليهم ان يعملوا في هذا الإطار الجاهز ، فنجحوا فيه بمهارة نادرة . افردوا القسم الشمالي من الارض لساحة يحيط بها رواق مسقوف تنفذ فيه الابواب ، ويحتوي على قبة بيت المال . اما في الناحية الجنوبية فقد اقاموا على طول حائط السور الأصلي ردهة واسعة للاجتماع ، تزيد مساحتها عن ٥٢٠٠ متر مربع ، متجهة

اتجاه صفوف المسلمين اثناء الصلاة . وقد قام سقف هذه القاعة على جملون استند الى صفّين من الاعمدة . ولا يخفى ان في هذا التصميم اقل ما يمكن من العوائق . وارتفع سوقها الاوسط ، مكلّلاً بقبة ، مشيرًا الى اهم مكان في الجامع : القبلة ، او وجهة مكة ، ومقام الخليفة ، وهو يصل اليه من باب جديد فُتح في الحائط الجنوبي ، وعُرف باسم « باب الزيادة » . وبُني ، امام هذا الباب ، بين القصر والجامع ، ممرّ مسقوف يماثل تلك الممرات التي أُقيمت في العهد البيزنطي مادةً ، حتى ابواب الكنيسة ، الشوارع القديمة المحفوفة بالاروقة عن الجانبين . ولم يخلُ الحائط الشمالي من تجديد ، فقد رُفعت في وسطه منارة عالية مربّعة دلّت ، الى ابعد ما يمكن ، على آخر تجديد في هيكل دمشق القديم .

وقد أُقيم بناء كل هذه التجديدات وفقاً للتقاليد البيزوية ، على انه اتبع في زخرفها اسلوب القسطنطينية . فغطّيت الجدران كلّها بالتلبيسات النفيسة ، منها تلك الصفائح من الرخام المتعدّد الالوان التي ارتفعت حتى مخارج الاقواس ، وفوقها قطع الفسيفساء الرائعة من معجون الزجاج ممثلة اشجارًا ومنازل تبرز بفواقع الوانها على الصفيحة المذهبة .

ولا يخفى ان اتمام هذا المشروع العظيم يتطلّب ، مدة السنوات العشر ، مبالغ هائلة ، وعددًا كبيرًا من العملة . ولما كان المشروع ذا منفعة عامة ، وهو من بنايات الدولة ، جُلب له العملة مسخّرين من جميع ولايات الامبراطورية . على ان النتيجة لم تكن الا موافقة لتلك الجهود . فان الوليد زيّن العاصمة السورية بجامع كان اول بناء جدير يلقب الفخامة والروعة في ارض الاسلام ، بل كان ، فوق ذلك ، احدى روائع الفنّ البنائي في جميع الأزمنة والامكنة . فغدا موضع اعجاب الشرق كله مدّة القرون العديدة ، وذلك بسعة اقطاره ، وعظمة ترتيبه ، وروعة زخارفه ، وغنى موادّه التي يزيد في اظهار قيمتها فقر بيوت الطين واللبن المحيطة به . بل غدا ، في نظر الشرق ، رمز سموّ الاسلام السياسي ؛ وتأثيره الادبي . حتى ان اعدى اعداء الامويين لا يتمالكون اظهار اعجابهم واحترامهم امام هذا الاثر .

وكان لقرار الوليد ان يبدأ طوراً جديداً في تاريخ دمشق . فقد ظلت المدينة القديمة ، على رغم الزلازل والاكتساحات ، قائمة بسورها ، وساحاتها ، وترتيب شوارعها ، وجادتها ذات الاعمدة (وهي التي اصبحت في ما بعد « السوق الكبرى ») . على ان مدنية جديدة ، اسلامية في جوهرها ، اخذت تنبو فيها شيئاً فشيئاً . فاصبحت الجماعة الاسلامية تجد في جامع الوليد محور حياتها الثقافية ، تلك الحياة التي كانت تزداد سعة وتأثيراً جذاباً كلما ازدادت عقيدة الاسلام ومدنيته ثباتاً وعمقاً .

دمشق في العصور الوسطى

تكوينها

على اثر سقوط الامويين ، تضافرت الحوادث التاريخية فحوّرت مجرى تطوّر المدنية ، وعملت على الاسراع فيه :

كانت سورية هدف استبداد العباسيين ،فارهقوها ارهاقاً منظماً . واتى بعدهم عصر فوضى توالت فيه الحروب وغزوات البدو ، فاخربت البلاد حتى العهد الفاطمي . بيد ان السيادة الفاطمية كانت ابعد من ان تُقرّ الطمأنينة ، فازدادت الحالة حرجاً ولا سيما في دمشق ، وقد نُكبت ، فوق المفاسد الحكومية ، بتلك الاختلافات المتتابعة التي كان يثيرها في جمهور السكان توحّش العسكر البربري . ولم ينته هذا العصر الحافل بالاضطرابات والاغتصابات ، وهو من ادكن العصور التي عرفتها سورية في تاريخها ، الا بظهور الاتراك السلجوقيين .

ولا نخطئ اذا قلنا ان العامل الاساسي في التطور المدني ، مدة هذه القرون الفوضوية الثلاثة ، كان اضطراب الأمن ، على مختلف مظاهره . ونعني باضطراب الأمن لا أزمة كالتي تنشأ عن حالة الحرب ، بل اضطراباً داخلياً دائماً ، مزمناً في بعض مظاهره ، ناشئاً ، في اكثريته ، عن تأليف الحكومة نفسها .

ولم يكن ارباب هذه الحكومة — ولاة وقضاة ومحتسبين — من الموظفين

العادين ، ولا من ذوي الاقطاع ، اذا فهمنا باللفظة معناها الغربي . انما كانوا اشبه بضباط ملكيين لا يقومون باعمالهم الا بناء على تفويض من صاحب الامر . ولما كان هذا التفويض قابلًا للالغاء في كل آن ، اصبح ذاك الاضطراب سائدًا على الحكام ، مسيطرًا على جميع اعمالهم . فهم لا يثقون بالمستقبل بل لا يعرفون ما يخبئ لهم . واذًا فهمّهم الوحيد تقريباً ان يرهقوا المحكومين فينالوا منهم اكثر ما يمكن من المال في اقل ما يمكن من الوقت . ذلك انهم ، على الغالب ، مدينون بارتقائهم لعطف احد كبار الرجال ، من اولئك الذين قد ينالهم غضب السلطان وجفاؤه بين الآونة والاخرى . او انهم اشتروا مركزهم بالمال ، فعليهم السعي الحثيث في استرجاع ما انفقوا ، وهم واثقون بالمناعة لخلوّ الادارة من ايّ دائرة للمراقبة .

وكان من نتائج هذا الاضطراب في الامن ان طبقات الشعب الوضيعة اخذت تعمل على المقاومة . ذلك انه لم يكن لها ضمانة الا الحماية الوهمية التي توليها اياها الشريعة القرآنية ، ولا مرجع شرعي تجاه الظلامات الا الاستئناف لدى الخليفة البعيد حتى لا يمكن ان يوصل اليه بسهولة . واذًا فالسوقة عرضة لاستبداد الحاكم اياً كان . فكان من الطبيعي ان تلجأ الى طريقة الدفاع الوحيدة وهي التعاون . وقد بدا هذا في اجتماع تلك الطبقات وفقاً لنزعاتها الدينية ، والجنسية ، والصناعية خاصة ، حتى امكن افرادها ان يدافعوا بالقوّة ، آن اللزوم ، عن حياتهم واموالهم . بل انهم بلغوا ما فوق ذلك . كانوا يشترون بمالهم الشفاعات ورضى الحكام ، فينالون شيئاً من الراحة وحسن الحال . وقد ظهر خاصة روح المشاركة هذه في العودة الى الحياة الحرفية او اتحاد ارباب الحِرَف ، وهي دون شك ، من بقايا التنظيم الروماني والبيزنطي . وهكذا اصبح كل شخص حتى المكدون والبغايا ، ينتمي الى عصبة او نقابة من ارباب مهنته لها انظمة تحمي اعضاءها من المزاحمة غير المشروعة ، وتعين المصابين منهم والعاطلين . ويسهر عليها رئيس يكون وسيطاً بين ارباب الحرفة والحكومة .

على ان هذه الحياة المشتركة ، التي دفعت اليها الحاجة الى التعاون والتعاضد ، سرعان ما ادخلت التفكك في الوسط الحضري . واذا بالمدينة تظهر منذئذٍ

بظهر مجموعة من « الحارات » المستقلة كل منها بحياتها الخاصة ، منفصلة عن حياة جاراتها . وكأن كلًا من هذه الحارات مدينة مصغرة بمسجدها وطريقة توزيع المياه فيها وحمامها وسويقتها محتوية على الحبوب وسائر الحاجيات (الرسمان ١٢ و ١٣) ولها « شيخها » المسؤول ؛ وشرطتها المؤلفة من افراد العسس الذين يسهرون الليل فيعرفون المارة ؛ بل لها حصونها ، وهي الابواب ؛ وجيشها المؤلف من « الاحداث » ، وهم جنود الحرف . اما سكان « الحارة » فيجتمعون ، على الغالب ، من ارباب المنطقة الواحدة كما نرى في « حارة الحوارنة » مثلًا ، او من ذوي الدين الواحد ، او من ابناء القبيلة او الاسرة الواحدة . ولا يندر ان يكون سكان « الحارة » معادين بل محاربين سكان « الحارة » المجاورة .

وتختلف « الحارات » الاختلاف كله ، من حيث التخطيط ، عن احياء المدينة اليونانية - الرومانية . فان المواصلات والاتصالات بين المساكن في المدينة القديمة كانت تجري في الشوارع نفسها . اما في المدينة الحالية فلم يبقَ الا عدد محدود من الشوارع الكبرى للمواصلات الحرة . ولكنها لا تنفذ الى المساكن . بل يتفرع منها « دروب » خاصة ، عليها ابواب تُقفل كل مساء عند غروب الشمس (الرسم ١٤) ومن هذه الدروب تتفرع « ازقة » و « دخلات » تصل الى المساكن الخاصة ، وعليها كذلك ابواب يمكن اقفالها . وهكذا فلا يظهر من المنزل الى جهة الشارع الا مؤخرته الخالية من النوافذ . فلا يمكن الوصول اليه الا بعد ان يُقطع باب الحارة ، فباب الزقاق ، فباب المنزل نفسه . فيجد المرء شيئاً من الامان والطمأنينة في بيته بفضل هذه العقبات المتتابعة ، وبفضل ما اشرنا اليه من روح التعاون والتعاضد .

وهكذا فاننا ، اذا لم ننتبه الا لهذه الطريقة في السكنى ، تظهر لنا المدينة مجموعة من « الحارات » خالية من كل صلة تربطها . بيد ان هناك بعض المؤسسات المشتركة تعمل على الوحدة بين احيائها ، وهي :

١ ً — السور المحصن يُعيّن حدود المدينة ، ويضمن الامان لسكانها بصرف النظر عن اصلهم ، ودياناتهم ، ومراكزهم من المجتمع . ولهذا نرى « الاحداث » اي جنود الحرف يسيرون بقيادة رئيس التجار ، فيقومون بحراسته ، في حالات

الخطر ، الى جنب العسكر النظامي .

٢ – الجامع الاكبر . وهو لا يزال مركز الحياة العامة ، وان تكن اهميته قلّت عما كانت عليه عهدَ الامويين ، لان مركز السلطان تحوَّل عن دمشق . ففيه تُعلن الانباء التي تهمّ جمهور السكان كتعيين الولاة ، والنساء الضرائب ، وما شاكل . وفيه يظهر الشعب تعلقه بالخليفة وامانته لسلطته ، اذ يأتي كل جمعة فيحتفل بالصلاة ذاكرًا اسمه ، داعيًا له .

٣ – الاسواق . وهي اهم الاسباب في وجود ذاك المجتمع ، بل القسم الاساسي في « المدينة » ، مقابلةً مجارات السكن التي تؤلّف « البلد » . والاسواق آهلة تمامًا بحوانيت التجار والصنّاع تجمع فيها وحدها . واذًا فعلى السكان ان يطلبوا في الاسواق ، لا في غيرها ، ما يحتاجون اليه من بضائع وسلع . اما تخطيط هذه الاسواق فيمثّل مجموعة من الشوارع المتوازية ، تُقفل بابواب في مداخلها ، ويختص كل منها بارباب مهنة واحدة . وعن هذه الشوارع تتفرّع اسواق مغطّاة مسقوفة ؛ وهي «قيساريات» تقوم مقام المثابات (البورصات) ، كقيسارية الحرير ، وقيسارية الصيارفة وغيرهما ؛ وخانات او فنادق تشتغل بتجارة الاستيراد والاصدار ، متصلة اتصالًا مباشرًا بتجارة السوق .

وكان من الطبيعي ان يقوم مجموع « المدينة » هذه في المحل الذي كان يقوم فيه المركز التجاري في العصور القديمة ، فتشعّبت الاسواق مكان الجادّة الرومانية الكبرى المحفوفة بالاعمدة من عن الجانبين . على ان منظرها كان ابعد من ان يُشبه ذاك الترتيب القديم بما فيه من حوانيت واسعة مفتوحة بتخطيط منظّم تحت القناطر الضخمة ، تتسع وسطها الطريق الفسيحة الخاصّة بمرور الحيوانات . لم يبقَ من كل ذلك الا اسواق غير مرصوفة ، مضطربة الاستقامة ، لا يتجاوز عرضها من المتر الى الثلاثة الامتار ، تغطيها الحصر او رفوف الخشب ، او سقوف التراب (الرسم ١٥) ، وتنفتح ، من علي جانبيها ، حوانيت حقيرة لا يندر ان نرى بينها ما لا يتجاوز حجمه حجم الخزانة . وهي تُستخدم للمبادلات واعمال البيع والشراء ، ولا يندر ان تُستخدم محلات للعمل . وهناك الازدحام العجيب من مشترين ، ومارّين ، وباعة نقّالين ، ودلّالين ، وسائلين ،

وحمّالين ، ودواب . حتى كأن الجادّة القديمة تصغرت وضُغط عليها من الجانبين ، بعد ان رفع منها الرصيف والرواق ذو الاعمدة .

اما طريقة هذا التحوّل فتظهر واضحة اذا ما قابلنا بين موقع الاسواق بالنسبة الى الجادة ذات الاعمدة ، وحالة شوارع العصور الوسطى ، وشوارع العهد القديم . وقد كانت هذه الاخيرة تمتدّ ، دون انقطاع ، على خطٍّ مضبوط الاستقامة ، وبعرض لا يتغيّر . اما شوارع العصور الوسطى فقد كانت تنتهي بزوايا لا منافذ لها . وسواء أنظرنا الى مجمل تصميمها ام الى خطوطها المفردة ، فاننا نرى ان الخط المستقيم كان من النادر فيها ، وكذلك القول عن عرضها المختلف باختلاف الممرّات حتى انها كانت تظهر احياناً من الضيق بحيث لا تكاد تتّسع لمرور رجل واحد . على ان هذا لا ينفي النسبة المكانية بين هذه الشوارع والشوارع القديمة . وقد رأينا الكثير منها يتابع نسبياً تخطيط الشوارع اليونانية واتجاهها . واذاً فيحق لنا القول بان سلسلة متتابعة من التعدي على الطريق العام فككت نظام ذلك الترتيب القديم وافسدته ، على طريقة بطيئة ولكنها متواصلة .

وكان مما سهّل حصول تلك التعدّيات ان الشريعة الاسلامية لا تعرف احكاماً خاصّة بنظام المدن ، ولا بالمؤسسات البلدية . وهي لا ترى في المجتمع المدني ما كانت تراه اوربة في العصر نفسه ، اي وحدة اقطاعية متوارثة او جسماً ذا ميزات خاصّة . انما هو جزء متمم غير منفصل من الجامعة الاسلامية الكبرى ، ولا صلاحية لاحد بان يسوسه ويسهر على مقدّراته الخاصة عن معرفة واستقلال . فان سلطة المحتسب ، وهي تتعلق قبل كل شيء بالتحريمات ، لا توليه حقّ الاقدام على اي عمل كان . وكذلك القول عن الحاكم . وواجبه الاساسي يقوم بالدفاع عن المنطقة والعمل على جباية الضرائب . فلا يرى المدينة الا مجموعة من المكلّفين ، او عنصراً يؤثر بحالة الامن العام ايجابياً او سلبياً . وعلاوة على ذلك فان ما تتصف به ولاية هذين الرجلين من الاضطراب والقلق يحول بينهما وبين التعلّق الفعّال بمقام لا يريانه الا موقّتاً ، فلا يسيران على الغالب الا بدوافع الرشوى والزلفى لمن كان اكبر منهما .

زمن هذا حصل امر مثقل بالنتائج ، وهو ان المدينة اختلفت عما كانت عليه ، فخرجت عن كونها شخصيّة مستقلة بل كائناً مركباً نابضاً بالحياة . واصبحت مجموعة من الافراد ذوي المنافع المتماكسة ، ينفرد كل منهم بمصلحته عاملًا لها في منطقته الخاصة ، منصرفاً كل الانصراف عن جاره ، مستغلًا ، على قدر امكانه ، جميع الحوادث والاحوال في سبيل غايته الشخصية . اما الجماعات المنظمة ، وهي الحرف والحارات ، فلم تخرج عن هذا الانتقال حتى امكننا الحكم بان تطوُّر المدينة اصبح نتيجة لمجموعة من المساعي الفردية ، ليس غير . على انه من الحق ان نشير الى اعمال الإمراء . وعظماء المدينة ، وما يجب ان نعلّق عليها من اهمية لما كان لها من التأثير في عامّة الشعب ، وهي اكثرية السكان عدداً ، واقواهم حركةً .

وقد احتفظت المدينة بهذه الصفات ، لا تكاد تتغيّر فيها شيئاً ، طول القرون الوسطى (بالمعنى الغربي) بل طول الحقبة العصرية . فلم تنزع الى تحويرها الا بعد ان دخلتها المؤثرات الاوربية في منتصف القرن التاسع عشر .

تطوّر المدينة

تقدّم لنا القول بان ظهور الدولة العباسية كان بدء عهد انحطاط في دمشق . وذلك ان ذكر الامويين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة فعملت على ملاشاته بطريقة منظمة . فخرّب العباسيون القصور ، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء ، واذروا رمادهم في مهبّ الرياح . وان يكن الجامع الاموي سلم من تلك التخريبات فالفضل لما كان يحيطه من احترام . على ان رجال بني العباس لم يتراجعوا عن تكسير الرقم المشيرة الى مؤسّسه ، ولا عفّوا عن ارسال كثير من الزخارف والقطع الفنية الى العراق . حتى انتهوا بان هدموا اسوار المدينة رغبةً منهم في ان يحرموا السكان ما يتحصنون به اذا ثاروا عليهم . وليس من عجب بعد هذا ان تنحطّ دمشق المقهورة ، المغضوب عليها ، الى مصافّ المدن الثنوية ، فتعمل فيها عناصر الانحلال المذكورة سابقاً ، وتتابع عملها على تفكيك عرى ذلك النظام القديم .

وقد اسرع فيها الانحلال ، على عهد السيادة الفاطمية ، بسبب الحوادث التي

كانت تشبّ فجـأةً وعن غير قصد اثناء المشاغبات والثورات . ولا يخفى ان شعلة النار ، ايًا كانت ، تتسارع السنتها ، ويمتدّ اذاها ، حتى تُصبح حالًا من الكوارث الهائلة في هذا المجتمع المبني كلّه بالموادّ القابلة الاحتراق . ثم يقوم المصابون فيبنون فوق الانقاض ، دون نظام ولا ترتيب ، ولا اهتمام بالخير العام.

ولما كانت السلطة الحاكمة تخشى هجوم العباسيين على المدينـة ، رأت ان تعيد الاسوار ، فرفعتها اولًا دكًّا ثم بالبناء الحجري ، وذلك في القرن العاشر. ولكن التخطيط الجديد لم يوافق ، الا في بعض مواقعه ، تخطيط السور الروماني ، وقد استفاد المجدّدون من ابوابه القديمة ، فاصلحوها واستعملوا منها اربعة او خمسة . ولا سيما ذينك اللذين كانا ينفتحان على طرفي الجـادّة الوسطى . ولكن الابواب صُغّرت حتى نصفها فسهل تحصينها والدفاع عنها .

ومما يجب ذكره في هذا العهد نشأة بعض الضواحي كضاحية « العقَيبة » في الشمال ، وهي تصغير « العقبة » سُميت كذلك لوقوعها على المنحدر الذي يحدّ وادي النهر من ناحية الشمال . وكضاحيـة « الشاغور » في الجنوب . و« قصر الحجّاج » في الجنوب الغربي ، على مسافة من المدينة ، وقد دعي كذلك نسبةً الى منزل احد امراء الامويين . وقد نشأت هذه الضواحي بداهةً ، دون ان يكون لها تصميم يوجّه تطوّرها ، فاخذت المنازل تتتابع ، على عمق قليل ، طول الطرقات الواصلة الى ابواب السور المحصّن.

وهي في اكثرها ضواحٍ زراعية يقيم فيها باعة الخضروات . ومن ثمّ فلا نفترّ باهميتها ، ولا نستنتج منها ازدهار المدينة . انما كانت هذه تقاسي الامرّين من صعوبة الزمن واهمال السلطة فتحتال على الحياة منتظرةً ايام الهناء .

الاتابك والايوبيّون

(الرسم ١٦)

في السنة ١٠٧٦ ، توفّق الامير اتسز التركي ، فنزع دمشق من ايـدي الفاطميين ، واعلن فيها سلطة السلاجقة . فاخذ هؤلاء يحكمونها إما مباشرةً ، وإما بواسطـة اتابكهم . وكان من اشهرهم نورالدين . ثم كان الحكم لصلاح الدين ، فأسس الدولة الايوبية ، متّبعاً مبادئ سلفائه وسياستهم . وقد

ظلّت دمشق ايوبيّة حتى غزوة المغول في السنة ١٢٦٠ .

وكان هذا العصر في دمشق عصر نهضة حقيقية، سيّما وجود البلاط السلطاني في المدينة . ولا يخفى ما كان في ذاك البلاط من جيوش مأجورة، ومن حرس خاصّ معروف باسم « المماليك » ومشهور بالامانة، ومن معاونين، وقوّاد، يُضاف اليهم اقرباء السلطان وحاشياتهم ومماليكهم . وان ظهر هذا الجمهور قليل الاهمية من حيث العدد، وهو لا يتجاوز البضعة الآلاف، فانه كان كثيرها بالنظر الى ما كان لهذه الآلاف من موارد مالية غزيرة تكوّن عاملاً مهماً في الازدهار الاقتصادي. وليس بالقليل ما ينفقونه في سبيل حاجاتهم اليومية، وما يبذرونه في سبيل كمالياتهم الترفيّة والبذخيّة. فلهم وجدهم تقريباً تشتغل العامّة، آمنةً في ظلّ النظام الجديد، وبفضلهم تنهض التجارة والصناعة نهضةً جديدة .

وفوق هذا فان اتابك السلاجقة والايوبيين وسموا دمشق بسمة خاصة دائمة، اذ جعلوها موقعاً حربياً، ومركزاً ثقافياً ودينياً. وكانت سياستهم متجهة بكاملها نحو تمجيد الاسلام السنّي، يعملون له، في الخارج، بمحاربتهم الفاطميين والصليبيين، وفي الداخل، بنشرهم دعوة فعّالة ضدّ البدع الشيعية . واذاً فقد كان من همّهم ان يعتنوا اعتناء خاصاً من جهة بالمنشآت العسكرية الرامية الى الدفاع عن المدينة وقد هدّدها الفرنجة مرّتين سنة ١١٢٩ و١١٤٨، ومن جهة اخرى ببناء « المدارس » العاملة على تثقيف رجال الادارة وفقاً لمبادئ الاسلام الصحيح.

وليس ما يدلّ على هذه النزعات الجديدة كبناء « القلعة » وقد انشأها بكاملها الامير اتسز نفسه دون شك، على الزاوية الشمالية الغربية من السور الروماني، فاستعان بقسم من الأسس القديمة ومن موادّ البناء كذلك . وقد اعتنى الاتابك بها اعتناء دقيقاً . على انهم رأوا ان يرمّموها بكاملها منذ السنة ١٢٠٦، فيجدّدوا مواقع الدفاع فيها وفقاً لتقدّم الفنّ الحربي . والى هذا الترميم ترقى في حالتها الحاضرة، ظاهرةً على شكل مستطيل فسيح يبلغ ٢٢٠ متراً في ١٦٠ متراً عرضاً، له مدخلان، ويدور حوله ثلاثة عشر برجاً عظيماً (الرسم ١٧). ولهذه القلعة قيمة خاصّة بالنسبة الى نظام المدينة وحياتها. فهي لا تكتفي بكونها الملاذ الاخير للمحاصرين تلجأ اليها قوى الدفاع، كما كانت القلعة

القديمة ، بل انها ، قبل كل شيء ، مقام السلطان . تجتمع فيها ، حول شخصه ، دوائر الحكومة بكاملها . فيها منزل السلطان الخاص وما يتعلق به من المرافق . وفيها ردهة العرش او الإيوان ، ودوائر الادارة المدنية والعسكرية ، وبرج الحمائم يأوي اليه حمام الزاجل المستعمل للمراسلات ، وثكنات الحرس ، ومخازن السلاح ، وبيت المال ، ودار صك النقود ، والسجن ، بل فيها قبور الاسرة المالكة . حتى لم يبقَ خارجاً عنها الا المحكمة القائمة ، منذ عهد نور الدين ، في بناء خاص يدعى « دار العدل » على مقربة من القلعة . وللقلعة ايضاً سوقها الخاصة ، وحماماتها ، ومسجدها الجامع يجتمع فيه سكانها لصلاة الجمعة . ولا يخرج منها السلطان الى الجامع الاموي الا في العيدين ، دلالةً واضحةً على كونه رئيساً لدولة اسلامية ، ونائباً للخليفة . وهكذا تبدو القلعة مستقلة الى جنب المدينة ، وكأنها السراي العثمانية لما بينهما من اوجه للشبه دقيقة تتجاوز ما تقدم ذكره . فهي مدينة مستقلة تكتفي بنفسها ، وتنقلنا بالفكر خلالَ بلاد ايران وآسية الوسطى ، الى « المدينة المحرمة » في المدن الصينية .

ومن مظاهر اهتمام السلاطين بالشؤون الحربية ترميم السور ، في القرن الثاني عشر ، ترميماً نُظر فيه الى مبادئ جدّ قريبة من طرق التحصين الرومانية والبيزنطية . وقد بني امامه ، على قسم من الجبهة الشمالية ، سور جديد في اوائل القرن الثالث عشر ، ولا يبعد ان يكون هذا السور نتيجة تصميم حديث كان يرمي الى تجديد الاسوار بكاملها ، كما يظهر في مدينة حلب . فيكون ان العمل اوقف قبل نهايته بسبب الغزوات المغولية سنة ١٢٦٠

ويجب ان نذكر ، من المنشآت المتعلقة تعلقاً وثيقاً بالحياة العسكرية ، ذينك الميدانين اللذين كان ينزلها السلطان وقواده وجيوشه ، على طريقة منظمة ، فيلعبون بالكرة والصولجان ، فيروّضون جيادهم ، ويتمرّنون هم ايضاً منتظرين زمن الجهاد . وكان احد الميدانين ، وهو « الميدان الاخضر » ، يمتد ، غربي المدينة ، على مرج فسيح قرب النهر ، يبلغ نحو ٥٠٠ متر في ١٥٠ متراً . وفي اطرافه معالم تُشير الى الاهداف ، وحوله إطار من الشجر ، على الارجح . اما الميدان الثاني ، وهو اصغر من الاول ، فكان يقع جنوبي المدينة ممتداً على

ارض حصباء ، ولهذا دعي « ميدان الحصى » . ولم يكن الميدانان مختصين بالالعاب ، بل كان يتزلها من تضيق المدينة عن ايوائهم من الجماهير ، كمواكب الامراء والوفود ، والجيوش ، والقوافل المهمة احياناً . وهما ، فوق ذلك ، من اماكن النزهة يقصدها الشعب معجباً بالعاب فرسانه.

اما في المدينة نفسها فقد اتسعت الاسواق فتجاوزت منطقة الجادة القديمة ، متجهةً جهة الجامع الاكبر . وهنا نقطة مركزيـة يجتمع فيها اكثر السكان اسبوعياً ، ان لم نقل يومياً ، فيسهلون المعاملات التجارية . وكان من فضل هذا الازدهار الاقتصادي ان الضواحي اخذت تتسع بدورها . وقد بلغ من اتساعها ان اثنتين منها ، وهما العقبة والشاغور ، اضطرتا الى بناء مسجد جامع في كل منهما .

بيد إن هناك ظاهرة مهمة ، بل حادثاً اساسياً ، يجدر بنا تدوينه في هذا العصر ، وهو نزعة بارزة في الطوائف الدينية الى الاجتماع معاً والاستقلال باحياء خاصة من المدينة . هي نزعة بدأت ، دون شك ، في العصور السابقـة ، وستتسع كذلك في العصور المقبلة ؛ ولكنها جديرة بالذكر في هذا العصر خاصة . فان النصارى اخذوا يتجمعون شيئاً فشيئاً في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، واليهود تجمعوا في الجنوب الشرقي . اما المسلمون فكانوا يتجمعون متكاثرين في القسم الغربي ، يجذبهم اليه الجامع الاكبر والقلعـة والاسواق . كما ان الرغبة في الامن والطمأنينة كانت تدفع الاقليات ــ مع ما نشأوا عليـه من العادات والتقاليد ، وما خصّتهم به الشريعة الاسلامية من حالة خاصة ــ الى تأليف جماعات متماسكة متضامنة اشدّ تضامن . وبالاختصار فان تلك الظاهرة التي رأيناها تؤول الى تأليف الاحياء او « الحارات » في ما مضى ، تعود الآن فتظهر على شكل آخر يتناول المدينة بجملها . على ان الانفصال التـام لا ينال تمامه ضمن هذه الحواجز الا في ما بعد ، جارياً مع تقدم الصفة الاسلامية الخاصة في الدولة ، وعمق العاطفة الدينية .

ومن الطبيعي ان يكون تجمع المسلمين في القسم الغربي قد أثّر في تعيين موقع البنايات الخاصة بهم ومن التي أنشئت في ذلك العصر . فقام مستشفى نور الدين

المعروف « بالمارستان » — وهو من اشهر « المارستانات » التي عهدها الشرق في القرون الوسطى — على مقربة من الجامع الاموي . وفي جواره عدد من الربط او الخوانق ، وكثير من تلك المدارس العاملة على نشر العلوم الاسلامية بين الشعب وعلى تأييد تعلقهم بالسُنة . ولقد كان الطلاب في بعضها ، فوق التعليم المجاني ، يتناولون مبلغاً من المال يكفل معيشتهم ، على شريطة ان يصلوا عن انفس مؤسسي تلك المدارس . وكان هؤلاء المؤسسون ، اول الامر ، من امراء الدولة . ثم اخذ اعضاء الاسرة الحاكمة ، وكبار الرجال والقواد ، ووجهاء المدينة يتنافسون في هذه الابنية ، حتى اصبح في دمشق نحو مائة مدرسة في منتصف القرن الثالث عشر ، يقوم اكثرها ، كما قدمنا ، في القسم الغربي .

على ان منها ما قام بعيداً عن ذلك المجتمع ، خارج الاسوار ، في عزلة موافقة للدرس والصلاة . ويمكننا ان نجمع هذه البنايات القائمة خارج الاسوار في مجموعتين مهمين : احدهما يشرف على الميدان الاخضر ، في مكان وضعت فيه الاسطورة « قبور البرامكة » ، ولم يلبث ان احاطت به مقابر الصوفية . والآخر في لحف الجبل المشرف على دمشق . وفيه ازدحمت المدارس ، والربط ، والمشاهد ، حتى ألّفت ضاحية دُعيت « بالصالحية » نسبة الى مسجد ابي صالح الذي نزله ، على ما يُقال ، مؤسس اول بناء أُقيم في هذا المكان . وكان من نمو سكان الصالحية انهم لم يلبثوا ان انشأوا سوقاً خاصة ، ومسجداً جامعاً . ثم نزل بالقرب من هذا المسجد طارئة من الاكراد لحقوا بوطنيهم السلطان صلاح الدين . بيد ان هذه الضواحي ، وان اعتبرناها تمديدات للمدينة ، فقد ظلت مدة القرون العديدة تحيا حياة خاصة مستقلة عن حياة المجتمع الاصلي .

ولا يؤخذن المطالع بعدد هذه البنايات الجديدة . فانها لم تغير شيئاً مهماً في منظر دمشق العام . لا شك في انها بنايات حسنة التصميم ، جميلة البناء ، ذات واجهات من الحجر المنحوت ، متميزة تماماً عما حولها من الحيطان المطلية بالطين . ولكن قوامها لا يرتفع بارزاً فوق مستوى السطوح ، والقبب التي تعلو قبور مؤسسيها لا تتصف من الارتفاع والفخامة بحيث لا تضيع في المنظر العام الشامل . واذاً فان بناء هذه المدارس لم يكد يؤثر في جمال المدينة .

وكان من تعلق رجال السلطة بالسنة انهم اقاموا في المقابر المختلفة الممتدة امام ابواب السور ، ولا سيما في المقبرة الكبرى الواقعة امام «الباب الصغير» مشاهد تذكارية في عدة مواقع عيّن فيها التقليد قبور الصحابة.

وهكذا كان نصيب دمشق ان تعود الى نهضتها ، منـذ منتصف القرن الثالث عشر ، بفضل النظام والازدهار الاقتصادي الناتجين من ادارة امراء الترك ، فتسترجع صفات المدينة الكبيرة الظاهرة مركزاً سياسياً ، وتجارياً ، وصناعياً ، وحربياً ، وثقافياً ، ودينياً.

المماليك

(الرسم ١٨)

ثم كان الاكتساح المغولي سنة ١٢٦٠ ، فبدأت حقبة جديدة في تاريخ دمشق.

اصبحت سورية بكاملها ، اعتباراً من هذا التاريخ ، مقاطعة لاحقة بدولة مصر. وعلى رأس هذه الدولة «المماليك» الترك الذين ثاروا على سادتهم ، سلاطين الايوبيين ، واغتصبوا عرشهم. وقد ظهرت هـذه الدولة المصرية - السورية ، في اول عهدها ، بارزة القوة حتى انها اعتبرت المركز الحقيقي للسياسة والثقافة في العالم الاسلامي. وذلك بفضل ما امتاز به اثنان من كبار سلاطينها ، هما بيبرس وقلاوون ، من صفات خاصة ، وبما توفّقا اليه من طرد الصليبيـين واتباع تقاليد الايوبيين. على ان هؤلاء المماليك انفسهم اخذوا ، منذ اواخر القرن الرابع عشر ، يجمعون حولهم مماليك جـدداً من الجركس لم يلبثوا ان اغتصبوا الحكم بدورهم ، فبدأوا عهداً من الارهاب ، والسلب ، والتعديات ، والتهاون في ضبط الامور ، عجّل ، دون شك ، خراب المملكة ، حتى ظهرت جيوش العثمانيين فطردتهم ، دون تعب ، سنة ١٥١٦

وان اهم عامل في تطوّر دمشق ، مدة هذا العهد ، بل العامل الوحيـد تقريباً في ذاك التطوّر هو اهمية العنصر العسكري في تكوين الدولة. ولم يكن في هذا العنصر الا المماليك والموالي ، وكلهم جهلة ، جشعون ، شرسو الاخلاق ، يخرج منهم رجال الحكم من اصغر موظفي الدولة حتى السلطان نفسه.

وكان من نتيجة ذلك — وهو امر غريب في الظاهر فقط — ان حركة

المدينة الاقتصادية نالت ازدهاراً عجيباً في هذا العهد التاعس . وذلك ان جميع هؤلاء المغامرين ، الذين نالوا الرفعة من حماقة الحظ فعاشوا يقلقهم خوف الاغتيال او خشية الاعتقال، لم يهتموا ، من شؤون الدولة ، الا بتوفير ملذاتهم، والحياة في بذخ وترف غريبين ، نكتفي بمثل واحد في الدلالة على مبلغهما . وهو ان الامير سِلّار ، بعد ان قضى احدى عشرة سنة في ولاية مصر ، توفي تاركاً عدة ملايين من النقود وعدداً كبيراً من العبيد والبنات . يُضاف الى ذلك وزن طن ونصف طن من آنية الفضة ، و٧٥٠ كيلوغراماً من قنا الرايات المصوغة فضية ، و١٠٠ سرج مزركش بالذهب ، و٤٠٠ ثوب من الحرير المبطن بالفرو ، و٣٠٠ من الثياب الفاخرة للحفلات ، و١٠٠٠ قطعة حريرية ، و١٦ مضرباً مغشى بالحرير الاحمر المزركش ، و٣٠٠ فرس ، و٧٠ كيلوغراماً من الحجارة الكريمة ، و٥٩٣٠٠٠ هكتوليتر من الحبوب . واذاً فلا عجب ان تكثر كماليات هؤلاء السادة الحديثي النعمة فيشتغل في سبيلهم جميع رجال الصنائع التي عززها وجود البلاط السلطاني في دمشق مدة القرون السابقة . وهكذا غدت دمشق مدينة صناعية عظيمة مختصة بالمنتجات الشرقية تغذي بها تجارة داخلية واسعة النطاق .

وكانت تلك المصنوعات تُصدر الى الخارج ايضاً . فان الحروب الصليبية كان من نتائجها ان اعادت العلاقات بين الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ، بعد ان انقطعت مدّة طويلة . وكانت اوربة ، وهي حافلة بمظاهر الحياة اذ ذاك ، لم تتجاوز بعد الافق الجغرافي الضيّق الذي عرفته العصور القديمة ، فلم تعرف غير الشرق الادنى سوقاً للمنتجات الغريبة كالافاويه والاصباغ والحرير وما شاكل . فكانت البندقية وبيزة وجنوى ومرافئ فرنسة الجنوبية تعمل في استغلال تلك السوق على اتمّ ما يمكن من مهارة ، وتتنافس في الحصول على الاولية التجارية . وكان لدمشق ان تستفيد نوعاً ما من هذه الحركة التبادلية الواسعة ، على رغم ما كانت تعانيه من مزاحمة حلب لها . وموقع حلب الجغرافي افضل من موقعها ، ومقامها كذلك اوفق للفرنجة من مقام دمشق لانهم كانوا في دمشق عرضة لاستبداد الحاكم ، وهو من اعظم رجال المملكة سلطة ، وهدفاً

لبغض السكان المستعدين دائماً لرجمهم اذا ما ظهروا راكبين الخيل ، او اذا اهملوا التعتم بعمة النصارى الزرقاء . ولهذا لم يؤنس تجار الفرنجة في دمشق محلاً دائماً على شيء من الاهمية . انما كانوا يأتون السوق كثيراً ، على مثال جاك كور ، فيبيعون فيها الاجواخ الآتية من الفلاندر ، والعبيد المستوردة من المستعمرات الجنوية في البحر الاسود . ويشترون ، لا المواد الاولية كما في اسواق حلب ، بل منتجات الصناعة المحلية النفيسة كالحرائر الدمشقية « *damassés* » والنحاس المنزل بالفضة « *damasquinés* » ، ونصول دمشق الشهيرة ، وقد نقشت قبل سقيها فبدت متموجة اللمعان ، وآنية الزجاج الدمشقية الفائقة الزخرف بالمينا ، تلك الآنية المذكورة في لوائح اثاث ملوك فرنسة ، والتي تفتخر بها كنوز بعض الكاتدرائيات الغربية .

وكان ان هذه الحركة الصناعية والتجارية اثرت ضرورةً في تطور المدينة ، فاتسعت الاسواق اتساعاً جديداً ، واثر فيها كذلك تفوق العنصر العسكري ، فاخذت محلات البيع والشراء تتميز مائلةً الى الاختصاص بالنسبة الى زبائنها .

فظهر ، امام باب القلعة الشمالي ، ميدان فسيح دعي « تحت القلعة » ، كانت تقام فيه « سوق الخيل » . وهي ضرورية لتموين الجيش المؤلف من الخيالة وحدهم . وفي هذا الميدان ، كان الحاكم يجمع الحامية ، مرتين في الاسبوع ، اثناء الحفلة التي تتقدم مجلس القضاء الحافل ، فيستعرض الجند ويراقب الخيل والسلاح والاعتدة ، ويعلن الترقيات والقرارات . ولما كانت سوق الخيل قد اصبحت مركز الحياة العسكرية ، وموقف الجنود العادي ، اخذ جميع الصناعيين العاملين في سبيل افراد الجيش ، كتجار الاقمشة والثياب والخياطين ، وصناع الاسلحة ، واصحاب المطاعم والخمارات ، وباعة السلع العتيقة ، وجميع من يعملون في سبيل الخيل كباعة الشعير والتبن ، وصناع المذاري والغرابيل ، والسروجيين ، يتركون شيئاً فشيئاً حوانيتهم ضمن الاسوار ، ويأتون مجتمعين « تحت القلعة » حول الميدان المذكور ، وعلى ممر الطرقات الموصلة اليه (الرسم ١٩) . وكذلك عمل هذا المركز على جذب باعة الخضر والفواكه ، فاخذ يقام فيه سوق خاصة كل نهار جمعة .

ومن اثر تجمع ارباب الصناعات هذا ، خارجاً عن المركز التجاري الاصلي، أنّ الصناعيين والتجار الذين يعملون في سبيل سكان المدينة وجدوا متسعاً لهم في الاسواق القديمة فاستطلوه وفقاً لمتطلبات الحركة الاقتصادية . فتكاثرت الدباغات ، وهي ضرورية لصناعة السروج ، حتى ان مصانع الورق التي كانت الى جنبها اضطرت الى الانتقال الى منطقة جديدة . وكذلك القول عن مصانع الفخار فانها تكاثرت حتى ألفت ضاحية جديدة خارج الباب الشرقي ، لان مصنوعاتها ، بعد ان ظهر فيها تأثير الخزف الصيني ، اشتهرت شهرة واسعة محتلّةً حتى اسواق القاهرة . اما الساحات التي كانت تُقام فيها اسواق الماشية وسوق الاحد فقد حفلت بالمنازل لان تلك الاسواق لم يبقَ لها من منفعة فتلاشت.

ولا يخفى ان الحاجة الى اليد العاملة تزيد عدد السكان . فنشأ من ذلك ضاحيتان جديدتان خُصّتا بالسكن ، وبرهاننا على ذلك في اسميهما المأخوذين من «السويقة» التي كان سكانها يشترون منها . وقد نشأت الاولى منهما في الجنوب الغربي على الطريق الآخـذة نحو عكا وصور ومصر . ودُعيت «السُويقة» على الاطلاق، وحفلت بالكثير من الخانات الضرورية لنزول القوافل. اما الضاحية الثانية فاسمها «سويقة صاروجا» ولا نعرف مَن يمثل هذا الاسم ؛ نشأت في شمالي المدينة على طريق الصالحية وبيروت ، قريبة من سوق الخيل ، واختصت على الغالب بسكنى الضباط والجنود.

اما القلعة فقد كان لها نظام خاصّ . لم يكن للحاكم ايّ سلطة عليها، بل لم يكن له الحقّ بدخولها ، وذلك خوفاً من ان يستند اليها حكام المدينة في ثورتهم على السلطان . انما كانت تخضع لقائد خاصّ يتعلق رأساً بالسلطان . فهي مدينة ملكية مستقلة ، وان لم يكن هناك سلطان تتعلّق به . اما الحاكم فقد كان يقيم ، مع دوائر حكومته ، في قصر العدل القديم.

ولم يكن ذاك الازدهار الاقتصادي الذي اشرنا اليه كل ما انتجتـه من الغرائب سلطة المماليك . فقد كان هؤلاء المسيطرون السكارى الاميّون الجُفاة يرغبون في البناء، وقد تركوا في دمشق عدداً من الآثار غدت زينة للمدينة. ولما كانوا دائمي القلق في حياتهم ، عمدوا قبل كل شيء ، الى تأمين دفنهم ،

فأقاموا تلك المقابر الفخمة ذات الواجهات المتعددة الألوان ، والقبب الرفيعة ، المزينة بالتصاوير ، الظاهرة في منظر المدينة مظهر الجمال الملوّن . وهي تتسلسل خاصةً على طريق مكة لينال الباني بركة صلوات الحجاج في طريقهم الى البيت الحرام . واهتموا ايضاً ببناء المساجد الجامعة ، وهي من نتائج تطور الافكار الدينية واتساع المدينة ، فقامت في جميع الاحياء مرتفعةً بمآذنها المربعة او المتعددة الاضلاع بما عليها من الشرفات والخرجات ، باسقة ، في كل ناحية ، عن مستوى السطوح العادي ، مضيفةً الى منظر دمشق مشهدًا جديدًا ، معلقةً وسط السماء ، طول ليالي رمضان ، اكاليل متنوعة من الانوار.

بيدَ انه ، منذ منتصف القرن الخامس عشر ، بدأت ازمة اقتصادية شديدة الوطأة وذلك ان النظام الغريب الذي كان سائدًا في مصر وسورية منذ مائتي سنة ولّد فقرًا شاملاً في جميع الطبقات . ففرغت خزائن الدولة ، حتى اضطرت الحكومة الى الاحتيال على المعيشة . وقلّت مقدرة كبار الرجال على المشترى ، تخففت الصناعة من منتجاتها . وثقلت وطأة الضرائب والمكوس على التجار ، فوق استبداد الموظفين ، فدخلت التجارة في طور نزاع حتى قضت عليها اكتشافات البرتغاليين عندما افقدوا طرق البحر المتوسط اهميتها السابقة . ولقد كان نصيب دمشق وافرًا من ذلك الشقاء ، ولاسيما بعد ان اكتسحها تيمورلنك سنة ١٤٠٠ ، فجلا عنها عددًا كبيرًا من الحاكة وصناع الزجاج والاسلحة ، واضطرهم الى المسير نحو سمرقند . فانحطت انحطاطاً لم تنهض منه . ولم تكن الا مدينة نصف خربة عندما دخلها السلطان سليم سنة ١٥١٦

العثمانيون

(الرسم ٣٠)

لم يغيّر خضوع سورية لسلاطين القسطنطينية شيئاً مهماً في النظام الاجتماعي ، الا في ما خصّ مبدأ الحكم . فان الباشاوات لم يكونوا ، على الغالب ، اقل جهلًا ، ولا شراسةً ، ولا اضطراباً في مراكزهم من حكام المماليك ، ولا ابعد عن النهم في المال بفضل ما كانوا يفرضونه على السكان من الضرائب والغرامات بسبب وبغير سبب . وان يكن جمهور الجيش ابعد عن اثارة الفتن من الجيش

المملوكي ، فان هناك فرقتين ممتازتين ، هما « الشرفاء » و « الانكجارية » ، كانتا تتنافسان دائماً في سبيل التفوق وبسط النفوذ ، وكثيراً ما كانت تنتهي منافساتهما بالعراك المسلح . اما خارج المدن فلم يبق من سيادة للامن ، وها ان البدو وقطاع الطرق ينهبون القوافل ولا يخشون عقاباً .

ولكن لم يكن لهذه المظاهر المحلية من تأثير عام . فان تطور دمشق ، في هذا العصر ، تأثر ببوامل اهم مما تقدم ، هي تلك العوامل التي كانت تهم الامبراطورية بأسرها .

واولها كيان تلك الامبراطورية نفسها الشاملة شرق البحر المتوسط بكامله . حتى اصبح ممكناً لكل فرد من رعية السلطان الاعظم ان يسافر من الدانوب الى الاوقيانوس الهندي ، ومن بلاد العجم الى المغرب ، دون ان يخرج عن الشرائع نفسها ولا عن النظام الاداري الذي اعتاده ، بل دون ان يضطر الى استعمال لغة جديدة ، ولا ان يحتاج الى الاخذ بقطع من النقود غير التي عرفها في بلاده . وهي حالة لا تخفى اهميتها في سبيل تعزيز حركة التجارة الداخلية ، حتى ان المكوس والرسوم المتعددة ، واستبداد الموظفين ، واضطراب الامن في الطرقات لم تتمكن من عرقلتها ، لانها كانت تمدّ تجارة خارجية وافرة الارباح . وذلك ان الموافقة على « الامتيازات الاجنبية » فتحت المرافئ التركية لتجار اوربة فاخذوا يصدرون اليها الكميات الهائلة من المصنوعات على اختلاف انواعها ، ويستوردون منها كميات كبيرة من المواد الاولية . وكان اكثر الناس فائدةً من هذه الحركة نصارى البلاد ، فان معرفتهم بالعادات المحلية سهلت لهم اعمال الوساطة والسمسرة والترجمة . وقد استفادت دمشق فائدة جليلة من هذه الحركة التجارية المزدوجة بفضل قربها من « اسكلة » صيدا الفرنسوية .

على ان حركتها المهمة كانت تتجه ناحية اخرى ، وذلك بفضل موقعها الجغرافي على طريق الحج . وهكذا فقد كان الحج الى مكة مورد المدينة الاعظم حتى آخر القرن التاسع عشر .

ولا يخفى ان الوصول الى الحرمين بطريق البرّ يفرض مشقات جمة . فكان اذاً على سلاطين آل عثمان ، وهم رؤساء الاسلام السُنّي ، ان يهتموا بتسهيل

الحجّ على المؤمنين ، منظّمين طريقه . فأنشأوا ، على طرقات مملكتهم المتجهة نحو الحجاز ، الخانات ، والجسور ، والمخافر ، واقاموا في الباديـة حصوناً لحراسة الآبار ، وجعلوا من دمشق ، وهي آخر محطة في بلاد الحضر المأهولة المتمدّنة ، محل اجتماع الحجاج القادمين من الشمال . فكان والي دمشق ، في الميعاد المعيّن كل سنة ، وقد دُعي بلقب طالما تاق اليه الباشاوات وهو لقب « امير الحجّ » ، يترك المدينـة في موكب حافل ، مرافقاً « المحمل » ، شعار سيادة السلطان على « الحرَمين الشريفين » . فيصل الى المزيريب في حوران ، على حدود ارض القبائل ، حيث ينتظره الحجاج . ومن هنـاك يقود بنفسه تلك القافلة العظيمة يحميها الجيش بمدافعه عند الحاجة ملقياً الهيبة في قلوب البدو . وهي مهمّة خطرة قد تذهب بحياة الوالي ان لم يكن جديراً بتحمل مسؤوليتها .

ولكي نفهم اهمية هذا الحادث السنوي ، على وجهه التامّ ، علينا ان نتنبه ان هذا النظام لا يستفيد منه السوريون وحدهم ، بل هناك ايضاً مسلمو الجزيرة العليا ، وكردستان ، والقوقاس ، واذربيجان ، والاناضول ، والبلقان ، والقريم ومسلمو استانبول نفسها ، وهي اوفر مدن البحر المتوسط سكّاناً بعد البندقية . واذاً فان لدينا عشرات الالوف من المسلمين يستدعيهم الامان السائد على « درب الحجّ » فيمرّون في دمشق مرّتين : ذهاباً واياباً .

وفي دمشق يستعدّون لقطع الباديـة . فيستأجرون او يشترون الدوابّ ، ويأخذون المعدّات للنزول في الصحراء ، ويهتمون خاصة بالمؤونـة الكافية لمعيشتهم حتى رجوعهم الى دمشق . لانه لا مورد لهم في الصحارى المقفرة التي سيقطعونها ، ولا في الاماكن المقدسة التي سيتزلونها . ومن الطبيعي ان يفضّلوا اسهل المآكل حفظاً ، وافضلها غذاء ، وهو القمح . وكم يلزم من اطنـان القمح لتغذية عشرين او ثلثين الف رجل مدة ثلاثة اشهر ! ويجتهد الحجّاج في ان يستفيضوا بعض الشيء من نفقات حجهم ، فيأتون ، في ايابهم ، بكثير من البضائع الوافرة الأرباح على صغر حجمها ، كسلع الشرق الاقصى ، والبنّ ، والعبيد السودان والحبش ، فيبيعون كل ذلك في دمشق ، اول مدينة متحضّرة في طريقهم . وهكذا يحدث الحجّ في المدينة حركة نشيطة تظلّ ، حتى اوائل

عصرنا ، العامل الاهمّ في تطوّر تجارتها .

وكان الدور المهمّ في حياة المدينة اذ ذاك للقوافل . وهو ما يبرّر انشاء الخانات العديدة مستودعات وفنادق للاجانب من التجار . واقدم تلك الخانات لا يختلف تصميمه عما نعهده في سورية ؛ ففي وسطه ساحة مربّعة على الغالب ، يحيط بها رواق دائر مرتفع على اعمدة ، تنفتح فيـه الحوانيت والاصطبل ؛ وتختصّ الطبقة العليا بغرف السكن . على انه منذ القرن الثامن عشر ، بل قد يكون منذ القرن السابع عشر ، ظهر بعض التغير في هذا التصميم العادي وذلك ان الساحة المركزية اخذت تضيق وتسقف بالقباب فتتحوّل الى مستودع تكون فيه البضائع بمأمن من تقلبات الجو. وان نشأة هذا الطراز الجديد، الخاصّ بدمشق ، لدليل على ان الخان اصبح اذ ذاك عنصرًا حيًا فعّالًا في المدينة .

ثم اننا نرى ان كل ما يتعلّق بالحجّ من مظاهر التجارة يتمركز على طريق مكة ، فتظهر هنالك خارج الباب القبلي ، على ضفة الخندق ، في المحلّ المدعو «السنانية» ، نسبةً الى الجامع القريب وهو من بناء سنان باشا، مجموعة من الاسواق يجد فيها المسافرون ، وارباب القوافل ، وباعة القمح من الفلاحين ، واصحاب الابل من البدو ، كل ما يحتاجون اليه من ثياب ، واحذية ، ومعدّات للمضارب ، واكياس ، ورحال وما شاكل . وابعد من ذلك ، على الطريق التي تؤدي الى الحجاز والى اراضي حوران الخصبة ، تتتابع مستودعات القمح دون انقطاع بين المشاهد المبنية من عهد المماليك ، فتؤلف ضاحية يبلغ طولها الثلاثة كيلومترات تنمو فتطغى على قرية صغيرة تدعى « القبيبات » اي القباب الصغيرة ، كان يسكنها زرّاع الاراضي المجاورة . ولا تلبث تلك الضاحية ان تدعى «الميدان» باسم «ميدان الحصى» القديم وهو قريب منها . ويـدعى طرفها الجنوبي « باب الله » وهو المحلّ الذي يترك فيه الحجاج مدينة دمشق متجهين نحو البيت الحرام. اما سكان تلك الضاحية فكلهم من باعة القمح ، والفلّاحين ، والبدو ومن اليهم . وكان من الطبيعي ان تُقام سوق الجمال على مقربة من هذه الضاحيـة ذات الاختصاص، كما ان سوق الخيل، وقد فقدت اهميتها، اخذت تتراجع امام تقدّم الاسواق التجارية التي كانت تحيط بها.

وكان من نتائج بعد الحدود السياسية ذاك البعد العجيب ان المدينة اصبحت بمأمن من الغارات والاكتساحات، فلم يبقَ من منفعة للتحصينات القديمة. ولهذا رأينا منازل السكن تكتسح الاسوار شيئاً فشيئاً ؛ والخندق تملأه الاوساخ والفضلات . اما القلعة فقد تداعت للسقوط، ولم يبقَ فيها الا عدد قليل من الرجال العاطلين . على انها ظلّت محافظة على صفتها المعروفة منذ عهد المماليك، فبقيت تتعلق رأساً بالسلطان، وعليها حاكم خاصّ، إشارةً الى سلطة السلطان المجرّدة دائماً. الباشا الوالي . ومقام هذا، مع دوائر الحكومة، في السراي، خارج المدينة، يلتفّ حوله كبار الاسر التركية، موجدين ضاحية جديدة تمتد على طول القناة الرومانية القديمة، وتدعى «القنوات» . اما باقي الضواحي كسويقة صاروجا، والعقيبة، والسويقة، فقد اتسعت كذلك بتأثير تلك الحركة العامة . وكذلك القول عن الصالحية المتسعة بفضل وصول طارئة جديدة من الاكراد . وكان الاوربيون من قناصل، ومرسلين، وتجار، يتزلون، بين ارباب دينهم، في حيّ باب توما الحافل بالمنازل الجميلة.

ولنشر اخيراً الى ان الباشاوات انشأوا بعض الجوامع الكبيرة، وان كانت قليلة العدد . وقد بنوها على طراز جوامع القسطنطينية (الرسم ٢١) فرفعت في الفضاء قبابها الفسيحة النصف الكروية، ومآذنها النحيفة المتوّجة بما يشبه مطافئ الشمع، فأثرت في منظر المدينة بما اثرت فيه بنايات المماليك . وكان لساحاتها التي تحيطها الاروقة اللطيفة ذات القبب، وتظللها الدوالي وشجر الدلب، ان تثير، في قلب دمشق، تلك اللذة الكنسية التي تمتاز بها استانبول.

هذا مظهر دمشق، وقد بدت مستعدّة للتأثر بالثقافة الاوربية، على اثر احتلال محمد علي لسورية ١٨٣٢ — ١٨٤٠

المدينة العصرية

(الرسم ٢٢)

ان درس المدينة في العصر الحاضر يتعلق بالجغرافية اكثر منه بالتاريخ . على اننا رغبةً في ان لا نترك الوصف ناقصاً، نشير، وان اشارة سطحية، الى

ما ظهر من نزعات جديدة منذئذ ، والى ما كان لها من تأثير في التطور الحضري .

وانا نميز حقبتين في تطور المدينة المعصرية :

تبدأ الاولى منها بالاحتلال المصري سنة ١٨٣٢ ، وتنتهي بانتهاء السيادة العثمانية سنة ١٩١٨ . ولا يظهر فيها التأثير الاوربي الا بواسطة الشرقيين انفسهم كالموظفين المصريين ، والباشوات المصريين ومنهم مدحت باشا ، والمنتمين الى حزب «تركية الفتاة» . ولا يخفى ان هذا التأثير كان ناقصاً .

ظهر من جهة باهتمامات جديدة اخصها ما تعلق بالصحة العامة ، وبحركة السير ، ومن جهة اخرى بتنظيم اداري جديد ادى الى اقامة بنايات جديدة اختصاصية .

وقد قامت هذه البنايات على الاراضي التي ظلت خالية حتى ذاك العهد ، وهي غربي المدينة القديمة ، في «المرجة» على ضفتي النهر . فبنيت هناك السراي — وهي غير مركز اركان الحرب المعروف «بالمشيرية» — ومركز البلدية ، وادارة البوسطة ، وقصر العدل ، والجامعة ، والثكنات ، ومحطة سكة حديد بيروت والحجاز ، وادارة شركة الترامواي الخ . . .

وكان من اثر الاهتمامات الصحية اعادة توزيع المياه ، ونشأة احياء بعيدة عن وسط المدينة القديم . وكانت السلطة في اواخر القرن التاسع عشر ، قد انزلت في سفح الجبل في الطرف الغربي من الصالحية ، من هاجر من مسلمي اقريطش ، في حي قسمته الى اقسام منظمة ، ودعي منذئذ بحي «المهاجرين» . وكان ان الهواء الدائم في ذاك الحي ، وما يمتاز به من جمال المنظر ، اهاب بسراة الاتراك فاخذوا يسكنون فيه . كما ان كثيراً من الاسر الموسرة اخذت تنتقل من المدينة القديمة ، ملاقية طول طريق الصالحية ، بين الجنائن المتتابعة ، منازل افضل من منازلها الاولى .

بقي ان الرغبة بتسهيل حركة السير للعربات الداخلة حديثاً في المدينة دفعت الى توسيع السوق المهمة ، تلك التي تقابل الجادة الرومانية . فنشأ بسبب تضييق مجال التجارة في تلك السوق ، اسواق جديدة قامت مكان خندق القلعة ، وقد

طرقه الحكومة وقسمته .

اما الحقبة الثانية فتبتدئ بالسنة ١٩٢١ ، وفيها استقرّ الانتداب الفرنسوي في دمشق . فاخذ تقدّم المدينة بالنظر الى الترب يسير سيرًا حثيثًا . وذلك لان الاوربيين اخذوا يشتركون فعلًا بادارة البلاد ، ولأن طارئة فرنسوية اخذت تقيم في المدينة ، وان تكن تلك الطارئة قليلة العدد ، فانها شديدة التأثير بسبب غناها النسبي ، واتحادها بعضها ببعض ، ونفوذها الاجتماعي والثقافي .

وبفضل اقامتها في دمشق ، وفي سبيل حاجتها ، تقدمت تلك الاحياء الممتدّة بين الصالحية والمدينة القديمة ، والتي ظلّت ضئيلة حتى ذلك العهد . وهكذا رأينا « الجسر » و« عرنوس » و « الشهداء » ، في اقل من عشر سنوات ، تنمو نموًّا فاق كل تقدير . فتظهر بمظهر مدننا الغربيـة بشوارعها العريضة المستقيمة ، واختلاط سكانها ، حتى لا نرى اثرًا لتلك الحواجز العنصرية ، فالاوربيون يعيشون والسوريين جنبًا الى جنب . بل ان نصارى المدينة انفسهم اخـذوا ، بفضل الامن المستتب ، يتركون حيّهم القديم في باب توما وينتقلون شيئًا فشيئًا الى هذه الاحياء الجديدة . وهذه الحوانيت والمخازن تتابع الآن طول الجادة الوسطى ، في هذه الاحياء ، فتظهر لا بمظهر السوق القديمة ، بـل بمظهر شارع اوربي تجاري تجد فيه جميع اصناف التجارات الواحدة جنب الاخرى .

وليس ما يمنع تتابع هـذه الحركة العصرية . فان الاحياء الجديدة تنزع منذ بضع سنوات الى احتكار الناحية العصرية في حيـاة المدينة فتنتقل اليها يومًا بعد يوم جميع المؤسسات المهمة في المدينة الحاليـة كالادارات المتنوعة ، والمصارف ، والفنادق ، والمستشفيات الخ . وهكذا تنشأ دفعةً واحدة مدينة جديدة الى جنب المدينة القديمة . بينا تتجه هذه نحو الانحطاط باسواقها المختضرة وما يقوم حولها من المؤسسات القديمة كالبطريركيات ، والمحكمة الشرعية ، والمعهد الفرنسي ، ومساكن الطبقات الفقيرة من الشعب .

مآخذ البحث

التآليف العامة

افضل بحث شامل عن دمشق هو مقال هرتمان المنشور في دائرة المعارف الاسلامية :
R. Hartmann, *Damas*, dans *l'Encyclop. de l'Islam.*

ويجب ان يُراجع كذلك :
A. von Kremer, *Topographie von Damaskus* (dans *Denkschriften d. K. K. Akad. d. Wissenschaften* ; Vienne, 1854-55) et *Mittelsyrien und Damaskus* (Vienne, 1853).

اما النصّ العربي المهمّ،وهو نصّ النعيمي،فقد نشره سوڤير مترجماً الى الفرنسوية في المجلة الاسيوية : H. Sauvaire, *Description de Damas*, dans *Jour. Asiat.* 1894 à 1896). وفيه تاريخ مفصّل لكل أثر مع تعاليق وحواش ومعلومات تخطيطية مفيدة جداً . ولكنه لا يزال بحاجة الى فهرس.

K. Wulzinger et Watzinger, *Damascus*, I : *die antike Stadt* ; — II : *die islamische Stadt.* Berlin et Leipzig, 1924. وهما يوردان لائحة اثرية تامّة لما في المدينة . على ان ما استخرجاه من نتائج يظلّ بحاجة الى نظر .

J. Sauvaget, *Les monuments historiques de Damas*, Beyrouth, 1932. فيه لائحة بالمنشآت بحسب ترتيب بنائها التاريخي.

اما في ما خصّ الإطار التاريخي فليراجع :
H. Lammens, *La Syrie, précis historique*, Beyrouth, 1921.

محمد كردعلي : خطط الشام ، دمشق ، ١٩٢٥ . . .

وليراجع ، في الآثار القديمة :
J. Sauvaget, *L'architecture musulmane en Syrie*, dans *Rev. des Arts Asiatiques*, 1934.

الموقع

افضل درس جغرافي مفصّل هو بحث تومَن
R. Thoumin, *Géographie humaine de la Syrie centrale*, Paris, Leroux, 1936.

ويمكن ان يراجع :
L. Dubertret, *La carte géologique de Syrie au millionième*, dans *Rev. de Géogr. physique et de géologie dynamique*, 1934.

R. Blanchard, *L'Asie antérieure*, Paris, 1929.

ابو البقاء : نزهة الانام في محاسن الشام ، القاهرة ١٣٤١ هـ . — فيه وصف للمدينة في اواخر القرن الخامس عشر ، ومعلومات وافرة الاهمية في تاريخ الزراعة .

ويمكن ان يراجع بشيء من التحفّظ :

R. Tresse, *L'irrigation dans la Ghouta de Damas*, dans *R E I*, 1929.

وهناك تأليف دوسّو ، وهو مصدر اساسي لتاريخ الطرقات والاعلام :

R. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, 1927.

اصول المدينة

التواريخ العامة للشرق في العصور القديمة ، وخصوصاً

Ed. Meyer, *Geschichte d. Altertums*, Stutgart et Berlin, 1925 et suiv.

يضاف اليها ، في ما خصّ تفصيل الحوادث ، الكتب التاريخية في العهد القديم .

ويجد الباحث وصف الآثار العاجية وتصويرها في: F. Thureau-Dangin, F. Barrois,

A. Dossin et M. Dunand, *Arslan-Tash*, Paris, 1931.

وبالاستناد الى Vincent, *Canaan d'après l'exploration récente*, Paris, 1914.

والى الحفريات التابعة ، يستفيد الباحث تاملاً للمقابلة .

اما البيت الدمشقي في زيّه التقليدي فقد درسه درساً حسناً

R. Thoumin, *La maison syrienne*, Paris, 1932.

المدينة اليونانية - الرومانية

Jalabert, art. *Damas*, dans *Dict. d'Archéol. chrétienne et de liturgie*.

في المؤسسات اليونانية ، اطلب :

Tscherikower, *Hellenistische Städtegründungen* (*Philologus*, Supplément band XIX ; Leipzig, 1927).

H. Wulzinger et C. Watzinger, *Damascus*, I.

مع نقد ، في ما خصّ الهيكل ، بقلم

R. Dussaud, *Le Temple de Jupiter Damascénien et ses transformations aux époques chrétienne et musulmane* (dans *Syria*, 1922).

وسأعرض عن قريب شرحاً جديداً للآثار القديمة أناقش فيه الامور المذكورة هنا .

الامويّون

اهم الابحاث في هذا العصر هي ابحاث الاب لامنس

H. Lammens, *Études sur le règne de Mo'âwia Ier*, Beyrouth, 1908.

Études sur le califat de Yazîd Ier, Beyrouth, 1921.

Études sur le siècle des Omeyyades, Beyrouth, 1930.

واحدث وصف لجامع الوليد ظهر في
K. A. C. Creswell, *Early Muhammedan Architecture*, Oxford, 1932.
وقد اعاد النظر في ما ظهر من ابحاث سابقة. وفيه شرح مخالف لما ذكرته هنا وفي كتابي:
Monuments historiques de Damas
وفي اهمية الجامع الاكبر اذ ذاك: Perdersen, art. *masdjid*, dans *Encycl. Islam.*
اما المعلومات عن سائر اقسام المدينة فيجب ان تطلب في التآليف العربية المذكورة ادناه وفي:
H. Sauvaire, *Description de Damas.*

تكوين المدينة في القرون الوسطى

في الاصول العربية معلومات متفرقة في ما خصّ العصر العباسي . اما العصر الفاطمي فلم نص يُعتمد عليه تراه في :
ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ١٩٠٨
في حياة ارباب الحرف يراجع :
L. Massignon, *Enquête sur les corporations musulmanes au Maroc.* (dans *R. M. M*, t. LVIII), et art. *shadd* et *şinf* dans *Encycl. Islam* (av. bibliographie).

في الحارات والاحياء :
R. Thoumin, *Deux quartiers de Damas* (dans *Bull. d'Études Orientales de l'Inst. Fr. de Damas* t. I).
يقابل بكتاب : J. Weulersse, *Antioche* (dans *Bull. Ét. Orient.*, t. IV).
وليس كلّ ما فيه ينطبق على دمشق . اما العناصر الموافقة انماء المدينة كلها فقد درسها
W. Marçais, *L'Islamisme et la vie urbaine* (dans *C. R. Ac. I. B. L.*, 1928).

الاتابك والايوبيون

المصادر التاريخية : لاول العهد :
ابن القلانسي ، وقد ترجم قسماً منه گيب :
H. A. R. Gibb, *The Damascus chronicle of the Crusades*, Londres, 1932.
ثم النصوص الشرقية المجموعة في سلسلة « مؤرّخي الصليبيين ».
ابن عساكر : تاريخه (مخطوطة المكتبة الوطنية في دمشق ، وطبعته السقيمة التي ينشرها بدران في دمشق) وفيه لائحة مهمة لآثار دمشق على عهد صلاح الدين ، وقد تلاها ابن شداد والنعيمي،ويجب ان يلحق بها ما كتبه ابن جبير في رحلته (طبعة ليدن) .
لآخر العهد :
ياقوت : معجم البلدان ، كلمة : دمشق .
وصف مفصّل للقلعة في J. Sauvaget. dans *Syria*, 1930

المماليك

الحوادث التاريخية في : Quatremère, *Histoire des Sultans mamlouks*, Paris.

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (طبعة Popper، في بركلي).

ابن اياس : بدائع الزهور (طبعة Sobernheim, Kahle et Moustafa في استنبول ١٩٣٠ و١٩٣١).

في ما خصّ المظهر الاجتماعي والاداري :

M. Gaudefroy-Demombynes, *La Syrie à l'époque des Mamelouks*, Paris, 1923, وهو ضروري جدًّا.

في التجارة :

W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au Moyen Age* (2^e^ éd. Leipzig, 1923).

نظرات عامة في ابن بطوطة : الرحلة (طبع وترجمة Defrémery et Sanguinetti, Bertrandon de la Broquière (éd. Schefer, Paris, 1892).

في سوق الخيل وتأثيرها :

J. Sauvaget, *Décrets mamelouks de Syrie* (dans *Bull. Ét. Orient. Inst. Fr. Damas*, t. II), p. 13-15 et 33-41.

العثمانيون

ليس من تاريخ مفصَّل لسورية العثمانية، ولا تزال سجلّات القنصليات الاوربية غير مطبوعة. واذًا فيمكن الرجوع، في ما عدا التواريخ العامة للامبراطورية العثمانية (Hammer, Jorga)، الى الفصول ١٣ – ١٨ خاصة من تاريخ الاب لامنس، والى رحلات الرحّالة الاوربيين العديدين، وكلها مفيدة في بعض النواحي. نذكر منها رحلات Belon du Mans في القرن السادس عشر، d'Arvieux في السابع عشر، Thévenot و Pococke و Volney في الثامن عشر، Richter و Porter في التاسع عشر.

ولتراجع الحوادث الاجتماعية في Mouradgea d'Ohsson, *Tableau de l'empire ottoman*.

وقد درس التجارة :

H. Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au XVII^e^ siècle*. (Paris, 1896) et *au XVIII^e^ siècle*. (Paris, 1911).

اما في الحجّ الى مكة فالمؤلف الاساسي هو :

M. Gaudefroy-Demombynes, *Le pèlerinage de la Mecque*. (Paris, 1923).

واما في طريق الحج فيراجَع :

A. Musil, *The Northen Hegaz*, (New-York, 1926), p. 326-331.

نداء

ليوسف غصوب

في نداء البواخر الذاهباتِ دعوةٌ للشرودِ ، والافلاتْ
من حياةٍ ضئيلةٍ تتفانى في عقيم المنى ، وفي الحسراتِ !
سمعت نفسي النداء ، مساء ، مستطيلاً ، بموَّجَ النبراتِ ،
فاثار النداء ، من كلِّ صوبٍ ، صوراً في المواطن القاصياتِ ،
وحنيناً الى غريب نجومٍ ، وطيوبٍ غريبة النفحاتِ ،
وانعتاقٍ من القيود الدوامي ، وانتشارٍ كالريح في الفلواتِ ،
وانفراجِ الآفاق ، كلَّ صباحٍ ، عن دُنًى من عجائب الكائناتِ ؛
كلما أخلقَ المساء جمالاً جَدَّ منه روائعٌ في الغداةِ !

***

يا نداء دَوِيُّه يتوالى في ضلوعٍ ، من الاسى ، خافقاتِ ،
لستَ ، في مهجتي ، تَرِنُّ وحيداً ؛ كم نداء في يقظتي وسُباتي !
كلَّ يومٍ ، تُصيخ نفسي لصوتٍ هابطٍ من عوالمٍ خافياتِ ؛
فهي تهفو الى المنادي ، وترقى كبخورٍ اليه ، او كصلاةٍ .
أتُرى هذه النفوس الحيارى في اغترابٍ عن عدنها ، مبعداتٍ ؟
فالى عَدْنها تذوب اشتياقاً ، وحنيناً الى قديم الحياةِ !

الطيور الغريبة

لسعيد عقل

هي خرساء في الذُرى الغنّاء ، ترمقُ الافق عن ضنًى وعناء ،
كظليم يــأبى مهادنــة الباغي ، فيلقى الممات عن كــبرياء !
ربَّ نورٍ مكسَّر في الأماليد رأت فيــه معطف الظلمــاء ؛
وغنــاء ، لون التعلّةِ والحلم ، وعتــهُ مخضباً بــبكاء !
موجعاتٌ ، لا تستقرّ على غصنٍ أمينٍ ، إلّا تراه مرائي .
أعينٌ في الصدى لجسّ الــسواقي ، أعينٌ في الــسنى لجسّ السماء .
كل ما حولها مخيفٌ ، كليلٍ في حكاياتِ عبقريٍّ روائي ؛
فتحسُّ الرياضَ محــوَ رياضٍ ، في الدجى ، والفضاءَ عبءَ فضاءِ .
إنْ يلوّحْ بالبسمة الشفقُ الاحمرُ تنفرْ ، مخدورةً بالدمــاء ؛
أو يصفّقْ لعرسهِ الروضُ ، تزورَّ اجتنابَ التصفيقــة السوداء !
هي تعمى عن الجمال ، وتشدو العيدَ أغنيــةً بلون الشقــاء !

***

ما تولّاكِ ، يا طيورُ ، فأهويت علينــا ، في غيــمةٍ دكناء ؟
انظري الافق مائجَ البهج ، في لألائه تستحمّ حورُ المســاء !
والتلالَ الخضراءَ تعكس شيئاً قــدسيًّا من قبــةٍ زرقاء !
فعلى الجوّ قطعــةٌ من رياضٍ ، وعلى الروض قطعةٌ من سماء !
وأحسّي الرياح تنــثر اصداءَ تعرّت عن أجنــحٍ شقراء ؛
ورمت في الظلام ، ضمّة أحلامٍ ، وفي الصبح منتدى شعراء !
واَسمعي النهرَ في خفيٍّ من اللحن يهزُّ المــدى بحضن البقــاء ،
هانئٌ في المروج ، يعلو ويهوي كصدورِ العشّاق عند اللقاء !

***

يا طيوراً جهماء ، لا تنظري ، في الكون ، غير الجوانب البيضاء !
ما تكونين ؟ ، انتِ ، من شعراءِ هُيَّمٍ ، في بــلادهم ، غرباء !

الملكيون

بطريركيتهم الانطاكية ، ولغتهم الوطنية والطقسية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

القسم الاول

الحقبة الثانية

بطاركة انطاكية الملكيون (٥٢٦ — ٩٦٩)

(يتابع)

٥٧ مقدونيوس (٦٤٠—٦٤٩)

سمّاه هرقــل قيصر[1] بطريركاً عام ٦٤٠ وكان مونوثوليتياً زاعماً بالمشيئة الواحدة . واقام في قسطنطينية ، وفيها توفي . ولم يعترفه البابا مرتينس الاول (٦٤٩—٦٥٥) بطريركاً ، ولم يدخل انطاكية ولم يرَها .

٥٨ جورج الاول (٦٤٩)

كان جورج الاول كسالفه مونوثوليتياً . ونصب بطريركاً في قسطنطينية ولا يُعرف شيء من اخباره الّا اسمه . وقيل ان اسمه واسم خلفه مقار الاول وردا في اعمال المجمع السادس المسكوني الذي عُقد عام ٦٨٠ دحضاً للمونوثوليتية .

١) اصدر هرقل عام ٦٣٨ كتابه المعروف باسم « الاكثيس »اي كتاب الشرح،واثبت فيه الزعم بالمشيئة الواحدة انقياداً لسرجيوس اسقف قسطنطينية . اما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠—٦٤٢) فانه رفض هذا الكتاب سنة ٦٤٠،فاستغفره هرقل . (تواريخ القرون المتوسطة تأليف القس لويس رحماني ، ٨٧و٨٨)

وقد اقام جورج الاول في قسطنطينية خمس سنوات وفيها مات ودفن ولم يجئ الى انطاكية[١].

٥٩ مقار الاول (٦٨١)

كان كسالفيه مونوثوليتياً وصُيّر بطريركاً في قسطنطينية، وفيها توفي ودفن. وروى ابن بطريق: انه اقام في البطريركية ثماني سنوات ولم يجئ الى انطاكية[٢]. اما البحاثة كرلفسكي فقال ان آباء المجمع المسكوني السادس عزلوه في جلستهم الثانية في ٧ اذار ٦٨١. ويروى انه أرسل الى رومية وفيها توفي. وكتب ميخائيل الكبير: «عُقد المجمع السادس في قسطنطينية في عهد اغاثون الحبر الروماني (٦٧٨-٦٨٢) ولم يوافق بطريركا قسطنطينية وانطاكية على قوانينه . . . ونفي مقار الى رومية وسجن هناك الى حين وفاته»[٣].

٦٠ ثاوفان (٦٨١)

نصب بطريركاً بين ٨ اذار و ٥ نيسان ٦٨١. وفي ٥ نيسان حضر الجلسة الرابعة عشرة في المجمع السادس المسكوني. ولم يشغل البطريركية الّا زمناً يسيراً. ولا يعرف هل ظلّ في قسطنطينية ام جاء الى انطاكية. وروى ابن بطريق: «اجتمع في المجمع السادس مائتان وتسعة وثمانون اسقفاً. وكان رئيس هذا المجمع جرجيوس بطريرك القسطنطينية وثاوفانس بطريرك انطاكية لانه في ذلك المجمع صُيّر بطركاً لان مقاريوس الذي كان قبله لُعن في هذا المجمع . . . ولما تمت هذه القضية في زمان اغابيوس[٤] بطريرك رومية القديس صار اهل الشام ومصر من ذلك الوقت يذكرون في الذبتيخة اسم اغابيوس[٤] بطريرك رومية الى زماننا هذا»[٥].

٦١ توما (٦٨٥)

روى ابن بطريق قوله: «وفي عهد عبدالملك بن مروان . . . . مات توماس

١) ابن بطريق ٢: ٣٧

٢) ابن بطريق ٢: ٣٧

٣) ميخائيل ٤٣٣

٤) والصحيح اغاثون بابا رومية (٦٧٨-٦٨٢)

٥) ابن بطريق ٢: ٣٥

بطريرك انطاكية وله بطريركاً عشرين سنة[1] . وفي اول خلافته صُير جريج (جورج الثاني) بطريركاً على انطاكية. » وذهب قومٌ الى ان توما خلفه بطريرك باسم اسكندر. وروى غيرهم ان توما خلفه جورج الثاني.

٦٢ جورج الثاني (٦٨٥—٧٠٢)

يرجح انه تولّى البطريركية عام ٦٨٥ وقيل بل تأيد في البطريركية عام ٦٩٢، وأمضى اعمال مجمع القصر، وهو مجمع مرفوض، عقد في السّنة ٦٩١ ويسميه اليونان « المجمع الخامس السادس » كأنه تمّم ما نقص في ذينك المجمعين . واجتمع في مجمع القصر مائتان واحد عشر اسقفاً برئاسة بولس بطريرك قسطنطينية ، وسنّوا فيه عدة قوانين منها ممدوحة ومنها مذمومة . وحاولوا ترقية الكرسي البوزنطي الى الرتبة الثانية بعد الكرسي الروماني . فرفض البابا سرجيوس الثاني (٦٨٧—٧٠١) وخلفاؤه قوانين هذا المجمع ولم يؤيدوها[2] .

فراغ الكرسي الانطاكي الملكي ثاني مرة (٧٠٢—٧٤٢)

أمسى الكرسي الانطاكي الملكي بعد وفاة جورج الثاني شاغراً ثاني مرّة اربعين سنة لدواعٍ لم يثبتها المؤرخون . وقد حدث في هذه الحقبة حوادث شتى بين الفرقتين الملكيتين، اعني الفرقة السريانية المارونية والسريانية الملكية، خصوصاً في حلب ودمشق وحرّان بشأن الكنائس نقلها عن مؤرخي السريان . قال ميخائيل الكبير :

« اصبح الخلقيدونيون فرقتين . فرقة مع اسقفها التابع راي آل مارون وفرقة مع مكسيميطا . فحدث بينهما مشاجرة بسبب كنيسة حلب الكبرى التي شادها اقاق اذ كانت كل منهما تدّعي انها تخصها[3] . وافضى بهما النزاع الى الضرب ضمن الكنيسة حتى أمر الوالي ان تُقسم الكنيسة قسمين يستولي كل من الفريقين على قسم . فاستولى الاسقف الماروني على الناحية الشرقية[4]

---

[1]) لا يدقق ابن بطريق في السنين التي ذكرها ، كما اثبت المؤرخ كرلفسكي غير مرّة .
[2]) ملحق تواريخ الكنيسة للوموند، بقلم السيّد اقليميس يوسف داود، ص ٢٢١—٢٢٥
[3]) يستنتج من ذلك ان الامتين السريانيتين كانتا واحدة الى هذا العهد.
[4]) يُرجح من ذلك ان الموارنة كانوا في حلب اهمّ من الملكيين.

واستولى اصحاب مكسيمس على الناحية الغربية . وفصلوا الناحيتين بالواح خشبية . ونصبوا مذبحاً ثانياً غربي الاخشاب . وهكذا اصبحت الكنيسة مقسومة قسمين يقضي كلٌّ من الفريقين الصلوات والقداديس معاً في ناحيته . ويتناليان في رفع الاصوات ليزعج احدهما صاحبه . . . وأفضى هذا النزاع الى القبض على لحية الاسقف والتفل في وجهه . ودخلت النساء الى المذبح بوقاحة وقبضن على الكهنة واخرجنهم خارجاً . ولما رأى الوالي ان قسمة الكنيسة لم تكف الفريقين عن النزاع والتشويش امر ان ترفع الالواح وان يخضع الجميع للاسقف (الماروني) والا فمن قاوم امره عاقبه وحلق رأسه ولحيته. لكن الكثيرين لم يذعنوا للامر فضُربوا وحُلِقت لحاهم . ثم امر الوالي ان يدخل الكنيسة كل يوم كاهنان يقرّبان على مذبح واحد ينتصب احدهما تجاه الثاني ويناول كل منها ابناء فريقه. فأذعن الفريقان لهذا الحكم المخالف للقوانين البيعية وفعلوا ما لم يفعله احد فيما سبق. فقرّب كاهنان معاً على مذبح واحد في طبقين وكأسين منعاً للخصام . وبعد هذا اوفد الوالي بعض المسلمين فكانوا يجلسون على درجة المذبح حاملين الخناجر حتى انتهاء القداس. على ان الحلبيين لشديد ما اعتراهم من الخجل ما لبثوا ان طردوا الجميع من الكنيسة واتفقوا وصاروا مكسيميين »(١

وهكذا تغلب الملكيون على كنيسة حلب دون اخوانهم الموارنة.

وكتب ابن العبري :

« استباح الوليد (٧٠٥-٧١٥) ابن عبد الملك كنيسة اليونان (الملكيين) الكبرى بدمشق واعاظمهم بدلاً منها مكاناً ابتنوا فيه كنيسة جديدة على اسم والدة الله . ثم بدّل وضع الكنيسة القدم وحولها الى جامع كبير شهير . وأمر كتّاب الحكومة ان يكتبوا الدفاتر بالعربية وألغى الكتابة الرومية . ولما ملك يزيد الثاني (٧٢٠-٧٢٤) أمر ان تنزع الصور من الكنائس والجدران والخشب والحجار والكتب . واقترف مثله لاون ملك الروم . . . ونفى كل من لا يعتقد اعتقاد المجمع الخلقيدوني . على ان ايليا بطريرك السريان المونوفزيتيين (٧٠٩-٧٢٣) واجه يزيد الخليفة واسترخصه في الاقامة بانطاكية اذ كان كرسيها فارغاً . فرخص له بذلك وابتنى فيها كنيسة وكنيسة اخرى في سرمدا بجوارها على رغم من الملكيين ». ٢)

وفي هذه الحقبة عينها اي في نحو السنة ٧٣٢ سلخ لاون الثالث ملك الروم عن الكرسي الانطاكي ابرشية ايسورية التي كانت تشتمل على خمس وعشرين اسقفية كما اثبتنا في التوطئة.

---

١) ميخائيل ٤٦٠

٢) التاريخ المدني السرياني ١١٥ ، ومختصر الدول ١٩٥

٦٣ اسطفان الثالث (٧٤٢ - ٧٤٥)

وفي ١٩ نيسان ٧٤٢ بعد فراغ الكرسي الانطاكي اربعين سنة نُصب اسطفان الثالث بطريركاً . وما مرّ على بطريركيته ثلاث سنوات حتى أمر الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ــ٧٤٤) فبتر لسانه ، ولسان بطرس اسقف دمشق ونفاهما الى بلاد اليمن[1].

٦٤ ثاوفيلكط (٧٤٥-٧٦٨)

هو المشهور بابن قنبرة. ولد في حرّان قرب الرها ، وكان يشتغل بالصياغة. ثم صار قسيساً في الرها . وفي السنة ٧٤٥ نصب بطريركاً بايعاز الخليفة مروان الثاني . وما تولى البطريركية حتى وجه سهامه ضد السريان الموارنة فحصّل الاوامر من مروان المذكور ، وسار في عسكر الى دير مار مارون ، واضطر الرهبان ان يقولوا بقوله. غير ان الموارنة لبثوا على ما هم عليه الى يومنا يقيمون لهم بطريركاً واساقفة من ديرهم ويقبلون المجمع الخلقيدوني . وسار اذ ذاك اندرا الماروني وواجه مروان وحصل منه الامر ببناء كنيسة للموارنة في منبج[2].

وفي عهد هذا البطريرك سُلخت جورجية عن البطريركية الانطاكية. وأذن البطريرك ابن قنبرة للكرج ان ينصبوا لهم جاثليقاً مستقلًا.

وفي السنة ٧٥٤ التأم في قسطنطينية مجمع من اهل بدعة الايقونقلست ، اي مكسري الصور والناقضين لتكريمها ، وحرموا من الكنيسة على زعمهم القديس يوحنا الدمشقي[3] ، وجرجس مطران دمشق ، وجرجس القبرسي[4]

---

١) ميخائيل ٤٦٤ وكرلفسكي. ويقيم الملكيون لبطرس، اسقف دمشق، تذكاراً حسب كلندارهم في ١٥ كانون الاول (المشرق ٥ [١٩٠٢] ٦)

٢) ميخائيل ٤٦٧

٣) هو القديس يوحنا الدمشقي ملفان الكنيسة († ٧٤٩) من أسرة منصور، عامل الروم على دمشق، السابق ذكره . وكان متضلعاً من اليونانية والعربية فضلًا عن لغته السريانية الوطنية (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ٤٨١و٤٨٥)

٤) ميخائيل ٤٧٢ ، والمشرق ١٢ [١٩٠٩] ٥١٥

وفي هذه المدة اشتهر تاوفيل الرهاوي (٧٨٥+) ابن توما الماروني المنجم ، مترجم الياذة اوميرس من اليونانية الى السريانية، وصاحب التاريخ الذي عنه نقل ميخائيل الكبير وابن العبري . ومما يستحق الذكر ان الملكيين دون سواهم استندوا في ثبات السنين الى ما قرّره وضبطه تاوفيل المذكور اعني ٥٥٠٨ من آدم الى السيد المسيح[1] . وهو التاريخ الذي اعتمده الملكيون في مخطوطاتهم السريانية والعربية . وكان تاوفيل هذا خلقيدونياً يناهض المنوفيزيتيين كل المناهضة ويدحض اقوالهم[2] .

وتوفي البطريرك ثاوفيلكط عام ٧٦٨ وظلّ الكرسي شاغراً من بعده تسع عشرة سنة على ما رجّح كرلفسكي .

٦٥ ثاودريط (٧٨٧--٨١٣)

قيل ان ثاودريط نصب بطريركاً على انطاكية عام ٧٨٧ . وفي هذه السنة أوفد وكيله القس يوحنا الى المجمع السابع المسكوني ، وهو النيقاوي الثاني وقرئت فيه رسالة البابا ادريانس الاول (٧٧١—٧٩٥) وتليت كذلك تقارير بطاركة الاسكندرية وانطاكية واورشليم في دحض زعم محاربي الايقونات .

قال ابن بطريق : « في ثماني سنين من خلافة الرشيد (٧٨٦—٨٠٩) صُيّر ثاودريطس بطريركاً على انطاكية اقام سبع عشرة سنة ومات »[3] . فعلى قوله ان ثاودريط شغل الكرسي من السنة ٧٩٤ الى السنة ٨١١ .

اما ابن العبري فكتب : في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور (٧٥٤—٧٧٥) رفعت شكوى زورية على جورجي بطريركنا (بطريرك السريان المنوفيزيتيين (٧٥٨—٧٩٠) فسُجن في بغداد وسجن معه ثاودريطا بطريرك اليونان (الملكيين) ويعقوب جاثليق النساطرة . ومكثوا في السجن تسع سنوات (٧٥٩—٧٦٨ ؟)

---

١) التاريخ المدني لابن العبري ٢٧ وهذا نصه : « ܡܫܡܫܢܘܬܐ ܗܝ ܕܡܫܬܡܫܝܢ ܝܘܢܝܐ ܒܙܒܢܢ ܫܘܝܐ ܥܡ ܗܝ ܕܬܐܘܦܝܠܐ ܐܘܪܗܝܐ : التاريخ الذي يستعمله اليونان (الملكيون) في عهدنا يوافق تاريخ تاوفيل الرهاوي » .

٢) ميخائيل ٢٧٨

٣) ابن بطريق ٢ : ٥٢ ومن هذا يتضح ان السنين التي اوردها ابن بطريق غير مضبوطة .

ثم أطلق سبيلهم بمساعي قوفريان مطران نصيبين النسطوري».[1]

وكتب طيمثاوس جاثليق السريان النساطرة (٧٧٩–٨٢٣): ان بطريرك الملكيين كان في بغداد في عهده «واشتغلا كلاهما في استخراج كتاب التبيكون من السريانية الى العربية».[2] فنرى انه هو البطريرك ثاودريط.

فعلى قول ابن العبري وطيمثاوس ان ثاودريط كان بطريركاً قبل وفاة الخليفة المنصور عام ٧٧٥ وكتب ميخائيل الكبير: «اشتهر في هذا العهد رجل رهاوي خلقيدوني (ملكي) يقال له ثاودوريقي وصار اسقفاً على حرّان زماناً حتى عزله ثاودريطا بطريرك الملكيين .. وكان ثاودوريقي خبيراً باصناف العلوم متضلعاً من اللغة العربية».[3]

وقد أبقى لنا الزمان حجراً عُثر على شطره الاخير في نواحي حمص، حفرت عليه كتابة سطرنجيلية في عشرة اسطر ورد فيها اسم البطريرك ثاودريط هكذا:

١	ܘܕܚܘܒ ܕܚܛܝܬܐ ܕܢܬܚܫܒ ܒܗ	والاثم يُحسب فيها
٢	ܡܢ ܒܬܪܗ ܐܬܒܢܝܬ ܒܝܘܡܝ	من بعده فبُنيَت في ايام
٣	ܪܚܡ ܐܠܗܐ ܘܡܝܬܪ ܒܟܠ	المحب الله الجزيل قدسه
٤	ܬܐܘܕܘܪܛܝ ܦܛܪܝܪܟܐ ܕܟܘܪܣܝܐ	تيدورطي بطريرك كرسي
٥	ܫܠܝܚܝܐ ܕܐܢܛܝܘܟܝܐ ܡܕܝܢܬܐ	مدينة انطاكية الرسولي
٦	ܘܒܝܘܡܝ ܢܗܝܪܐ ܘܡܝܬܪ ܒܟܠ	وفي ايام المطران الجزيل قدسه
٧	ܠܐܪܘܢ ܡܝܛܪܦܘܠܝܛܐ ܐܚܘܗܝ	لاون اخيه متروبوليط
٨	ܕܡܕܝܢܬܐ ܪܚܝܡܬ ܠܡܫܝܚܐ	المدينة المحبة للمسيح
٩	ܚܡܨ ܐܬܒܢܝܬ ܕܝܢ ܒܗܠܝܢ ܬܠܬܐ	حمص فبُنيَت في هذه الثلاثة
١٠	ܝܪ̈ܚܝܢ ܒܩܝܛܢ ܘܒܐܒ ܘܒܐܝܠܘܠ	اشهر قتين[4] وآب وايلول

---

١) التاريخ البيعي السرياني ٢: ١٦١ في عهد المفريان يوحنا الثاني سنة ٧٥٧
٢) المجمع الزاهنة ٧: ٤
٣) ميخائيل ٤٩٥
٤) قتين: هو شهر تموز في اصطلاح سريان تدمر.

وقد اشار البحّاثة كرلفسكي الى ذلك فكتب : « ان ثاودريط البطريرك كان ابن عامل ارمينية الصغرى . درس اليونانية مع ابناء وطنه فسيّت له خبرته باليونانية النفي الى بلاد موآب » . فنرجح ان النفي كان الى بغداد عام ٧٥٩ كما اثبتنا ، وان بطريركية ثاودريط استغرقت اكثر من ستّ وعشرين سنة .

واشتهر بين الملكيين في عهد البطريرك ثاودريط ثاودرس اسقف حرّان (٧٤٠-٨٢٠) المعروف بابن قرّة . وكان من نجباء تلامذة مار يوحنا الدمشقي . صنف ميامر دينية في العربية[1] . ولعل البطريرك ثاودريط نصبه اسقفاً على حرّان على أثر عزله ثاودريقي اسقفها المذكور آنفاً . او ان ثاودريقي تصحيف ثاودرس !

٦٦ ايوب (٨١٣-٨٤٥)

في اول سنة من خلافة المأمون (٨١٣-٨٣٣) صُيّر ايوب بطريركاً على انطاكية . اقام احدى وثلاثين سنة[2] . ثم سار الخليفة عينه الى قيليقية وأمر البطريرك المشار اليه ان يتوّج توما الرومي ملكاً اذ كان قد بلغه ان الملك لا يكون ملكاً الّا برضا البطريرك . فصلّى البطريرك على توما ونادى به ملكاً وتوّجه بتاج بلغت قيمة ذهبه وحجاره الكريمة ثلاثة آلاف دينار . وما سمع الخبر اهل قسطنطينية حتى اجتمع الاساقفة وحرموا البطريرك المنكود الحظ . على ان الملك اقام سنتين في معسكر المسلمين ولم يتوفق في رتبته الملكية ، فجاهر بالاسلام على يد ابي اسحق ، وجحد الدين المسيحي ساخراً باسراره[3] .

ولما نفذ الخليفة المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) الى بلاد الروم غازياً حمل معه ايوب البطريرك فحاصر مدينة انكرة . وكان ايوب يكلم الروم بالرومية ويقول لهم : « أطيعوا السلطان وأدّوا له الجزية اخير مما تُقتلون وتسبون » . وكان الروم يشتمونه ويرمونه بالحجارة . ففتح المعتصم مدينة انكرة واحرقها بالنار . ثم سار الى عمورية

---

١) المشرق ٦ [١٩٠٣] ٦٣٢

٢) ابن بطريق ٣ : ٥٧

٣) ميخائيل ٥٢٤ ، وابن العبري : التاريخ المدني السرياني ١٤٥

فحاصرهــا مدة شهر . فكان في كل يوم ايوب بطريرك انطاكية يتقدّم الى الحصن وحده فيخاطب الروم بالرومية ويخوّفهم ويسألهم ان يعطوه الجزيــة لينصرف عنهم المعتصم . فكانوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة . فلم تزل هذه حالهم حتى فتح المعتصم عمورية[٣] . وبعد هــذا عاد ايوب الى كرسيه حتى وفاته عام ٨٤٥

٦٧ نيقولا الاول (٨٤٧–٨٦٦)

ظل الكرسي الانطاكي فارغاً سنتين . ثم التأم الملكيون للانتخاب البطريركي فاختلفوا . قال ميخائيل الكبير :

« بعد وفـاة ايوب البطريرك اصبح الملكيون فريقين مختلفين . انتخب الفريق الاول شماساً دمشقياً يقال له نيقولا وكان صديقاً لايوب المتوفى . وانتخب الفريق الثاني اوسطاثي شماس باسيل مطران صور . وكان عامل انطاكية العوري النحلة يضدهم في انتخابه . فكتبوا صك الانتخاب وحملوه قسيساً اوفدوه الى صور فواجه اوسطاثي وقال له : قد أرسلت في طلبك وطلب نيقولا الدمشقي فادفع لي دنانير كذا اؤيد انتخابك . فلما رأى اوسطاثي ان الانتخاب لا يتم الّا بالرشوة رفضه بتاتاً . فعمد القسيس المرسل الى الصك ومحا اسم اوسطاثي وكتب اسم نيقولا فسُرّ بذلك إغلب الاساقفة ونصبوه بطريركاً في كنيسة حلب .

« وما بلغ الخبر مشايعي اوسطاثي حتى استشاطوا غضباً وأقسموا انهم يرفضون نيقولا رفضاً باتاً . وهم لكذلك قدم البطريرك الجديد الى انطاكية وخرج مشايعوه لاستقباله فاخذ مناهضوه يقذفونه ويقذفون من معه بالحجارة . وكان المسلمون واليهود واقفين يشاهدونهم ويسخرون بهم ويحثون التراب عليهم . واخيراً تغلّب مشايعو اوسطاثي ومنعوا نيقولا البطريرك عن الدخول الى الكنيسة الكبرى وساعدهم في ذلك الوكيل البطريركي اعني الارخدياقون لما له من الولاية على الاساقفة حين فراغ الكرسي فحرّج على مشايعي البطريرك نيقولا ان يطأوا عتبة باب المدينة . وهكذا مكثوا شهرين كاملين ظاهراً حتى كتبوا الى أبي سعيد أمير سورية فأصدر الاوامر الى عامله في انطاكية فأدخل البطريرك ومشايعيه الى المدينة بجمع جم شرذمة من الجند مدججين بالاسلحة وهم يكشفون عنهم المعارضين ويضربونهم . . .

« وما ان وصلوا الى كنيسة القسيان حتى تعرّض لهم اصحاب اوسطاثي وصدّوا الابواب في وجوههم . فعمد الجنود وكسروها واعملوا فيهم الضرب وقبضوا على قوم والقوهم في السجن واحضروا حين ذاك الكرسي الفضي واجلسوا عليه البطريرك فتعالت الاصوات وتفاقم الهرج والمرج والضرب ضمن الكنيسة . وفي الغد فتح البطريرك نيقولا خزانة الكنيسة

---

٣) ابن بطريق ٢ : ٦٠

وأخرج الاواني الفضية والذهبية ووزعها على العامل وعلى جنوده ... ثم عيّن العامل رجلاً يقبض منهم كل شهر ثلاثين ديناراً . فكان يجلس عند المذبح يحافظ على الهدوء والسكينة ويكفّهم عن النزاع والضرب.

« اما مشايعو اوسطاثي فانهم احضروه بأمر الامير الى الكنيسة ولم يكن قد يمّ قبساً فرقّاه اسقف الرقّة المحروم الى البطريركية بمعاونة اسقفٍ ثانٍ غريب . ولما كانت السيامة لا تكمل الّا بالجلوس على الكرسي دفعوا الى العامل خمسمائة دينار رشوةً فاستدعى العامل مشايعي نيقولا البطريرك وأرادهم على اخراج الكرسي من حيث كانوا اخفوه في الدياميس . فجلس عليه اوسطاثي البطريرك الدخيل يكتنفه الجنود . وهكذا اقتسم الفريقان كنائس انطاكية فاستحوذ فريق على كنيسة والدة الله وفريق على كنيسة القسيان . وكان بعضهم يرجم بعضاً . »[1]

هكذا ظلّ البطريركان نيقولا واوسطاثي يتزاحمان مدّة عشر سنوات حتى توفي اوسطاثي عام ٨٥٧ ثم توفي نيقولا عام ٨٦٦ وساس الكرسي وحده تسع سنوات. وكتب العلّامة كولنسكي ان توما[2] اسقف صور حضر المجمع الثامن المسكوني اعني القسطنطيني الثالث مذ ٥ تشرين الاول ٨٦٩ حتى ٢٨ شباط ٨٧٠ ممثلاً البطريرك الانطاكي . وصرّح هذا المجمع في جلسته السادسة ان بطاركة الملكيين الثلاثة اي الانطاكي والاسكندري والاورشليمي لم يشتركوا مع فوتيوس الملحد الذي اختلس الكرسي القسطنطيني في ٢٣ كانون الاول ٨٥٧ ومرق من الكنيسة عام ٨٥٨ وتوفي عام ٨٩١

٦٨ اسطفان الرابع (٨٧٠)

ظلّ الكرسي الانطاكي بعد وفاة البطريرك نيقولا اربع سنوات شاغراً حتى انتخب اسطفان الرابع وأقام يوماً واحداً فقط فقدّس ومات[3].

٦٩ ثيودوسيوس الاول (٨٧٠-٨٩٠)

اسماه ابن بطريق « تدوس » وقال انه اقام احدى وعشرين سنة ومات[4].

---

١) ميخائيل ٥٢٥

٢) صرّح مسجّل المجمع بان توما اسقف صور لم يكن قادراً ان يعبّر عن افكاره في اللغة اليونانية . فكانت لهجته بلا ريب سريانية.

٣) ابن بطريق ٢ : ٦٩ ٤) فيه ٢ : ٦٩

وفي عهده عقد فوتيوس المبدع مجمعاً ليلغي ما قرّره المجمع المسكوني الثامن. وحضر جلسته الرابعة باسيل مطران ميافرقين الملكي بالنيابة عن ثيودوسيوس البطريرك وجاهر بمناهضة فوتيوس وموالاة الحبر الروماني[1].

٧٠ سمعان (٨٩٢–٩٠٧)

على اثر وفاة ثيودوسيوس البطريرك فرغ الكرسي الانطاكي سنتين. وفي السنة ٨٩٢ صُيِّر سمعان بن زرناق الدمشقي بطريركاً. واستدعاه لاون الملك عام ٩٠٧ الى قسطنطينية ليتفق مع قصاد البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤–٩١١) ومع سائر البطاركة في مسئلة زواجية.

٧١ ايليا الاول (٩٠٧–٩٣٤)

قال ابن بطريق: «في السنة الثالثة من خلافة المكتفي (٩٠٢–٩٠٨) صُيِّر ايليا بطريركاً على انطاكية وكان كاتباً. اقام ثاني وعشرين سنة ومات.»[2]
وكتب ابن العبري ما شرحه:

«ازداد عدد اليونان (الملكيين) في بغداد في هذا العهد. ونبغ بينهم كَتَبَة وأطباء. فأرسلوا الى ايليا البطريرك الملكي في انطاكية يطلبون مطراناً فاوفد اليهم المطران يانّي. فيمّم بغداد وثوى في احدى كنائس الملكيين. فرافعه ابرهيم جاثليق النساطرة الى وزير بغداد محتجاً بان النساطرة موالون للمسلمين داعون الى الله في تعزيزهم بخلاف يانّي الاسقف الغريب المعادي لهم. وبناء عليه فلا حقّ له ان يزاحمه في مقامه. فقال الوزير: اننا نعتبركم ايها النصارى على حدٍّ سوى في بغضتكم لنا اذ لستم تحبوننا محبة صادقة. فأطرق الجاثليق صامتاً. ثم قصد احد الكتبة المسلمين الكبار وكان موازياً للوزير في رتبته ووعده بالف دينار شرط ان يساعده في تنفيذ دعواه. فقال ذلك الكاتب للوزير حاش لنا ان نساوي بين النساطرة الذين لا تملكَ لهم الأملاك المسلمين وبين اليونان الذين لا يكفّ ملوكهم عن قتال المسلمين. فالفريقان في نظرنا مختلفان اختلاف العدو والصديق. فأيّد الحضور حجّة الكاتب وأدّى الجاثليق ثلاثين الف دينار فيما قيل فاستحضر الوزير ايليا بطريرك الملكيين الى بغداد

---

١) اثبت السيّد غريغوريوس عطا اسم اوسطاثيوس الثاني بعد ثاودوسيوس الاول وقال انه: «تنيّح سنة ٨٩٢ وخلفه ابن زرنق (ص ٤). مع ان اوسطاثيوس زاحم نيقولا الاول في البطريركية كما ذكرنا.»

٢) ابن بطريق ٢: ٧٤

عام ٣٠٠ (٩١٢ م) واراده على كتابة صك يوقعه بامضائه مقرّرًا انه لا يحل له بتّة ان يقيم جاثليقًا او مطرانًا لبغداد . وأنه له ان يرسل احيانًا مطرانًا من قِبَله يتفقد شؤون ابناء جماعته وينهض بحاجاتهم ثم يعود راجعًا الى وطنه .»(١

وفي السنة ٩٢٤ « ثار المسلمون في دمشق فهدموا كنيسة مرتمريم (ܡܪܬܡܪܝܡ) القديمة مريم الكاثوليكية وكانت كنيسةً عظيمةً كبيرةً حسنةً أُنفق فيها مائتا الف دينار. ونُهب ما كان فيها من ابنية وغير ذلك من حليّ وستور . ونُهبت ديارات وخاصّةً دير النساء الذي كان جانب الكنيسة . وشعثوا كنائس كثيرة للملكية وهدموا كنيسة النسطورية .» (٢

واشتهر في هذا العهد بين الملكيين قسطا بن لوقا الفيلسوف النصراني البعلبكي († ٩٢٣ ؟) بنقله عدة تآليف من اليونانية الى العربية وانشائه رسائل شتّى في اليونانية ومجموعة طبيّة ورسالة في الفرق بين النفس والروح[٣].

وحلّت وفاة البطريرك ايليا في ٢٤ تموز ٩٣٤

٧٢ ثيودوسيوس الثاني (٩٣٥–٩٤٣)

وفي آب ٩٣٥ تولى بطريركية انطاكية اسطفان الكاتب الذي كان مع يونس الخادم في بغداد وسُمّي ثيودوسيوس . وكتب اليه ثاوفيلكتس بطريرك قسطنطينية ان يذكر اسمه في الذبتيخة فأجابه الى ذلك. وكان اسم بطاركة تلك المدينة قد انقطع من كنيسة انطاكية منذ عهد بني اميّة[٤]..

قال يحيي بن سعيد الانطاكي:

« منذ مات غابيوس (اغاثون بابا رومية † ٦٨٢) (٥ لم يقع لنا اسماء بطاركة رومية(٦. ولم يزل غابيوس هذا يُذكر في الذبتيخن منذ اجتماع المجمع السادس الى بعد وفاة سعيد ابن بطريق († ٩٤٠) بمدة طويلة ليس يُعرف مقدارها. وذكر بعده اسم بطريرك يُدعى بناديكطوس(٧ . فلم يزل اسمه مذكورًا في الذبتيخن الى سنة نيف وتسعين وثلاثمائة

١) ابن العبري: التاريخ البيعي السرياني ٢ : ٢٢٥

٢) ابن بطريق ٢ : ٨٣

٣) مختصر الدول ٢٥٩ ، والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية للاب شيخو ١٥٥

٤) ابن بطريق ٢ : ٨٨ ٥) اطلب هنا رقم ٦٠

٦) يعني مئتين وستين سنة (٦٨٢–٩٤٣) بنيف

٧) لسنا ندري اي البابا بندكتس اراد المؤلف هل الثاني † ٦٨٥ ام الثالث † ٨٥٥ ام الرابع † ٩٠٣ الخ

للهجرة (٩٩٩ م) . وقد كان صُير بعد بناديكطوس هذا بطاركة مدة الا انه لم يُرفع لاحد منهم في بلاد مصر والشام اسم ولا ذكر. واقتصروا على اسم بناديكطس المتوفى . وفي زماننا هذا صيروا عليها بطريركاً يُسمّى يوحنا (السابع عشر ٩٩٩-٩٩٩؟) فرفعوا اسمه واسقطوا اسم بناديكطوس . فهذا هو السبب المانع من تدوين اسمائهم . . . »١)

ثم قال يحيي عينه :

« وفي السنة ٩٤٣ نُقل منديل السيد المسيح من الرها الى قسطنطينية .» ٢)

وايد ذلك ابن العبري واضاف :

« اوند ملك الروم وفداً الى المتقي (٩٤٠-٩٤٤) يطلب المنديل الذي وضعه ربنا على وجهه فرُسمت فيه صورته وارسله الى ابجر الذي كان يرغب في رؤيته . وصين ذلك المنديل في كنيسة الرها . ووعده الملك باطلاق عدد غفير من الاسرى المسلمين كانوا عنده. فاجتمع المتقي بالكتبة المسلمين واستنتامهم فأذنوا بالاجابة الى طلبه . . . » .٣)

وتوفي تيودوسيوس الثاني عام ٩٤٣

٧٣ ثيوخرسطس (٩٤٤-٩٤٨)

تولى ثيوخرسطس البطريركية اربع سنوات وتوفي . وفرغ الكرسي بعده زهاء اثنتي عشرة سنة لداعي الحروب بين الروم والمسلمين.

٧٤ خرسطفور (٩٦٠-٩٦٧)

كان صديقاً اميناً لسيف الدولة بن حمدان صاحب انطاكية . وكانت الحرب في عهده بين الروم والمسلمين سجالاً . قال يحيي :

« ابتعد البطريرك عن انطاكية لئلا يتعلق عليه تهمة من سيف الدولة او من اصحابه وسار الى دير سمعان الحلبي واقام به . وقصد ابن الاهوازي اساءته فلم يضطرب لذلك وبقي في دير سمعان الى ان عاد سيف الدولة . فقصده البطريرك الى حلب فأحسن قبوله وشكره على ما فعله في بعده عن المخالفين عليه . . . وبعد وفاة سيف الدولة . . . اتفق رأي ثلاثة من شيوخ انطاكية وامائلها . . . على الايقاع بالبطريرك . . . فقصد البطريرك ابن مانك لثقة بما بينهما . . . ولما وصل اليه وحادثه نهض عليه واستنفر اصحابه فوثبوا على البطريرك بالمتاجر فسقط الى الارض ومع سقوطه قطع رأسه وطرح في أتون حمام بجوار دار ابن مانك وحملت جثته وطرحت في النهر في ٢٢ ايار ٩٦٧ م . وانفذ ابن مانك قبل الصبح قوماً

١) يحيي ٩٢ ٢) يحيي ٩٨

٣) مختصر الدول ٢٧٧ ، والرهاوي ١٧٩

الى كنيسة القسيان .وقبضوا على ما وجدوه في منزل البطريرك وفي خزانة الكنيسة . . .
واخذوا اليهم كرسي مار بطرس وهو كرسي من خشب النخل مصفح بفضة وحفظوه في
دار شيخ من شيوخهم يُعرف بابن عمر . ولم يزل في داره الى ان ملك الروم المدينة . . .
« ولبث كرسي انطاكية بعد قتل البطريرك خريسطفورس بلا بطريرك سنتين وتسعة
اشهر . . . ولما علم ابو المعالي فتح انطاكية رحل عن حلب سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) وعاد الى
انطاكية واحضر ابن مانك فحبسه اياماً ثم اخرجه الى جسر باب البحر حيث طرحت جثة
البطريرك خريسطفورس وقطعه بالسيف عضواً عضواً ورمى بكل ناحية قطعة .»(١

الحقبة الثالثة

منذ تسلط بطاركة قسطنطينية على بطاركة انطاكية حتى انتقالهم الى دمشق (٩٧٠—١٣٥٩)

٧٥ ثيودور الاول (٩٧٠—٩٧٦)

رأيتَ فيما سبق انه منذ عهد البطريرك مقدونيوس (٦٤٠ — ٦٤٩) حتى
سلخ القرن السابع جعل بطاركة قسطنطينية يعينون بطاركة لانطاكية
ويضطرونهم الى الاقامة في تلك العاصمة خلافاً للقوانين البيعية . ثم انهم تمادوا
في تلك العادة وتوسعوا في مدّ سيطرتهم على الكرسي الانطاكي منذ عهد
ثيودور الاول فاستبدوا بانتخابهم وسيامتهم معاً . وكان الداعي الى ذلك عودة
قياصرة قسطنطينية الى بلاد المشرق في السنة ٩٧٠ واستيلائهم على انطاكية
وقليقية وحمص وبعلبك وصيدا وبيروت وجبلة وطرسوس[٢] وغيرها . ومن ثم
فوليكط بطريرك قسطنطينية رقّى الى الكرسي الانطاكي ثيودور الاول يوم
الاحد ٢٣ كانون الثاني ٩٧٠ وبعد ارتقائه الى المنصب البطريركي شخص الى
انطاكية ثم خرج الى كنيسة ارشايا[٣] وحمل جسد القديس خريسطفورس سالفه
البطريرك الشهيد الى كنيسة القسيان . واقام في الرئاسة ست سنين واربعة اشهر

١) يحيى ١٢٧ و١٣٥
٢) ابن العبري : التاريخ المدني السرياني ١٩١ و١٩٢
٣) لعله تحريف ؤمعا ربشا المعروف برجل الله المختار .

وخمسة ايام وتوفي[1] . ذلك ان باسيل الملك اوفد يستدعيه الى قسطنطينية فسار وهو عليل. ولما بلغ طرسوس مات في ٢٨ ايار ٩٧٦[2].

٧٦ اغابيوس الاول (٩٧٨—٩٩٦)

قال يحيى بن سعيد :

« وبعد وفاة ثيودور البطريرك بعث اهل انطاكية يلتمسون بطريركاً . . . واستقر الامر ان يكتبوا الى باسيل الملك يسألونه في بطريرك يصير عليهم . . . وعولوا على اغابيوس اسقف حلب . وشخص اغابيوس بالكتاب الى حضرة الملك وانهى اليه حال المدينة وصورة اهلها وتمسكهم بطاعته . . . ثم عاد الى انطاكية حاملاً كتاباً من الملك . . . وصيّر اغابيوس بطريركاً (٣ على انطاكية في ٢٢ كانون الثاني ٩٧٨

« ولما استقر امر اغابيوس البطريرك في رئاسته كتب الى انبا ايليا بطريرك الاسكندرية كتاباً يسأله . . . ان يرفع اسمه في الذبتيخن على ما جرى به الرسم . . . ليعلم منها انه معتقد الامانة التي اتفق عليها اصحاب السبعة المجامع المقدسة . . . فانكر عليه الانبا ايليا ذلك لانه فعل ما لا يجوز . . . من نقلته من الاسقفية الى البطريركية(٤ . . . فكتب له اغابيوس الجواب : بسم الله الرحمن الرحيم . كتابي ايها الاب الروحاني الطاهر المشارك في المقدمة المساوي في الرتبة . . انك تجد القديس افسطاثيوس(٥ بطريرك مدينتي هذه وقد نقله السينودس المقدس بنيقية من حلب الى انطاكية . ووجدت القديس ملاتيوس(٦ منقولاً من لاريسه الى حلب ومن حلب الى انطاكية . . . هذا بعد مار بطرس السليح(٧ الذي هو اساس البيعة وراس الشريعة ومقامه اثني عشر سنة بانطاكية وانتقاله بعد ذلك الى رومية . وكفاك به من شاهد . . ولما وصل هذا الكتاب الى انبا ايليا بطريرك الاسكندرية قبله ورفع اسمه . » (٨

وكتب يحيى عينه عن البطريرك اغابيوس الاول ما نصه :

« وكان بردس الفوقاس قد خلّف ابنه لاون بانطاكية ورسم له ان يتلطّف في اخراج اغابيوس البطريرك عن المدينة لئلا يتم عليه منه حيلة . فاستركبه لاون الى ظاهر المدينة وأوهمه

---

١) يحيى ١٣٨ ٢) يحيى ١٤٨

٣) . بوضع يد بطريرك قسطنطينية .

٤) لم تكن تجيز القوانين البيعيّة في سالف الزمان ان يرقى الاسقف الى المنصب البطريركي الا نادراً . فكان البطريرك يُنتخب من الرهبان توّاً خصوصاً عند الملكيين والسريان والموارنة .

٥) اطلب هنا رقم ٣٢

٦) ميليطس الاول . هنا رقم ٣١

٧) من السريانية مَشيحا اي الرسول ٨) يحيى ١٥٠

انه يحتاج ان يفاوضه في امر جسه واستدعى ايضاً جماعة من اهل انطاكية وعاد لاون الى انطاكية ومنع اغابيوس البطريرك ومَن خرج معه عن الدخول . . . ونقم باسيل الملك على اغابيوس بطريرك انطاكية ونفاه والزمه المقام في احدى ديارات قسطنطينية وله يومئذ بالرئاسة اثنتي عشرة سنة (اي سنة ٩٩٠) . . . واقام اغابيوس في النفي دون السبع سنين وهو في مدّعا يسمل الشرطونيات لكرسيّه ويُمتثل امرُه فيه .

« ثم التمس الملك باسيل من اغابيوس البطريرك ان يكتب خطّه بالزهد في رئاسة الكهنوت اي رئاسة انطاكية واعتزاله عنها . فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً الى ان لطف به وقرّر الحال معه على ان جعل له ديرًا في القسطنطينية يُعرف بالافرنذيو يستغلّ منه قنطار دنانير في كل عام وان يحمل اليه في كل سنة من مستغلّ بيعة انطاكية اربعة وعشرين رطل دنانير برسم نفقة مائدته . فجنح الى ذلك وكتب خطّه في شهر ايلول . . . واشترط ان لا يقطع اسمه . وصيّر الملك عوضاً عنه بطريركاً يُسمّى يوحنا من اهل قسطنطينية . »(١

وروى ميخائيل الكبير عن البطريرك اغابيوس ما تعريبه :

«دخل اغابيوس البطريرك الملكيّ الى انطاكية فشاهد ابناء جماعتنا السريان (المنوفيزيتيين) قد ازدادوا فيها ونموا منذ استولى العرب على البلاد . فعاد الى قسطنطينية وحصّل اوامر ملكية وانقلب الى انطاكية يتذرّع اول بدء بالمجاملة والمداراة وفقاً لرغبة الملك في استمالتهم اليه وجعل يأخذ ابناء الوجهاء والاعيان ويستدهم ويقرّبهم من قدّاسه ويكتب لكل منهم كتاباً في انتابه الى ملته الملكية . وهكذا بعد ما اجتذب الوجهاء اليه راح يعاملهم معاملة فظة ويضطرّهم الى موافقته والانضام الى جماعته . والذين عاندوه في ذلك اخرجهم ظاهر المدينة»(٢ فكتب اليه اثاسيوس الخامس بطريرك السريان (٩٨٧ – ١٠٠٣) رسائل استعطاف الجأته ان يكفّ عن ملاحقة السريان في هذا الشأن . (٣

ومن مشاهير الملكيين في هذا العهد : القس المجدلوس الملكي المتوفى في دياربكر عام ٩٩٢ ، مفسّر الامانة التي وضعها آباء المجمع النيقاوي الاول(٤ . واغابيوس المنبجي وهو محبوب بن قسطنطين اسقف منبج الملكيّ صاحب كتاب « العنوان المكلّل بفضائل الحكمة »(٥ ، وهو قسمان : الاول من بدء

١) يحيى ١٦٦–١٧٧
٢) ميخائيل ٥٥٧
٣) التاريخ البيعي لابن العبري ٤٨ من نسختنا .
٤) المخطوطات العربية للاب لويس شيخو اليسوعي ١٨٦ و ٢٣١
٥) الترطئة ٣ ، ومن كتابه هذا الذي نشره الاب لويس شيخو اليسوعي عام ١٩١٠ – ١٩١٢ نسخة في دير الشرفة مخطوطة في السنة ١٦٦٣ م .

العالم الى قسطنطين الكبير ، والثاني ينتهي في عهد المهدي (٧٧٥ — ٧٨٥).
والقس نظيف بن يُمن البغداديّ المتطبِّب الذي اتخذه عضد الدولة طبيباً وولّاه
بيارستان بغداد - ومن تآليفه « شرح كتاب اوقليدس » ، الذي نقل عنه ابن
عسّال مقالةَ « في الاتحاد »[1].

٧٧ يوحنا الثالث (٩٩٧—١٠٢٢)

كان يوحنا هذا من اهل قسطنطينية،وخرطوفيلاكساً في بيعة اجيا صوفية.
وفي ٤ ايلول ٩٩٧ صُير بطريركاً لانطاكية بامر باسيل الملك.وما مرّت السنة
على بطريركيته حتى توفي اغابيوس سالفه يوم الاحد ٨ ايلول ٩٩٨.ثم ان الملك
باسيل اوصى يوحنا البطريرك الانطاكي ان يرتب بيعة القسيان على مثال
كنيسة اجيا صوفية.ولما وافى الى انطاكية أرسل اليه يوحنا بن عبدون بطريرك
السريان (١٠٠٤ — ١٠٣٠) قيصاً للقداس ظريفاً بمثابة هدية، فسرّ البطريرك
يوحنا بالهدية واخذ يتوشح بذلك القميص في جميع المواسم . وقد جرى بين
البطريركين مراسلات حبية، وكان بطريرك الملكيين يتوق الى مشاهدة بطريرك
السريان[2].

٧٨ نيقولا الثاني (١٠٢٥—١٠٣٠)

وبعد مـا ظلّ الكرسي الانطاكي الملكي فارغاً ثلاث سنوات صير
نقولاوس رئيس دير الاصطوديون بطريركاً على انطاكيـة. وصُلي عليه في
قسطنطينية في ١٧ شباط ١٠٢٥ ،وقد روى يحيى وميخائيل الكبير والرهاوي
وابن العبري حادثاً تاريخياً دينياً جرى في عهد هذا البطريرك وبطريرك السريان
يوحنا بن عبدون.قال يحيى :

« وقي الى رومانوس الملك خليفة باسيل بان لليعقوبيين (السريان) بطركاً يُسمّى يوحنا
يقيم في بلد مرعش يُسمّى ببطريرك انطاكية ويسيم[3] مطارنة واساقفة للمدن.فاتقذ اشخصه[4]

---

١) المخطوطات العربية ١٠٥

٢) ميخائيل ٥٦٢

٣) من السريانية ܣܡܟ اي يضع اليد ومنه ܣܝܡܐ أيماً وضع اليد.

٤) سبق نيقافور الملك فاستدعى الى قسطنطينية عام ٩٦٩ يوحنا التاسع بطريرك السريان

واشخص معه ستة من مطارنته واساقفته(١ ليخاطبه في الرجوع عن اعتقاده والاعتراف بالسبعة المجامع المقدسة وقبول من قبله ودفع من دفعه. واستدعى نقولاوس بطريرك انطاكية للحضور معه ومشاركته في الخطاب له لانه كان يومئذ في القسطنطينية . . .

« وجرى بين الكيروس البطريرك (القسطنطيني) وبين من اجتمع معه من اصحابه(٢ خطاب في هذه المعاني ولم يُذعن يوحنا بطريرك اليعاقبة للانثناء عن رأيه . واجتمع خلق من العوامّ وهمّوا بالايقاع به(٣ فدُفعوا عنه

« ولما آيس الملك من عودة البطريرك يوحنا عن اعتقاده نفاه الى كفربا بالمغرب .

(٩٦٥–٩٨٦) للبحث في مسائل الدين والاتحاد فسار البطريرك في ثلاثة اساقفة وهم سرجيس ويعقوب وقسطنطين وقضوا ثمانية اشهر يعالجون مسألة الاتحاد دون جدوى ، فعاد البطريرك واساقفته الى كراسيهم (ابن العبري: التاريخ البيعي ، والرهاوي ٨٦).

١) بعد عيد الفصح ١٠٢٦ ارتحل البطريرك واساقفته الستة وهم : ايونّيس وايليا واغناطيوس واسحق وموسى وديونوسيوس اساقفة الحديثة وسيندو وملطية وعرقة وخربوط وتلّ فطريق يصحبهم عشرون راهباً ، ويشوع رئيس دير برجاجي ، وبابيل وداود تلميذا البطريرك ويوحنا كاتب اسراره . . . وفي ٢٥ حزيران وصلوا الى العاصمة . وكان معهم ايضاً يوحنا اسقف ميافرقين الملكي . فمكثوا في كورسفولي اثني عشر يوماً يستريحون (الرهاوي ٦٣).

٢) كانوا زهاء مائتي اسقف حضروا يومئذ ليهنئوا الملك الجديد. فامر الملك ان ينعقد المجمع في كنيسة آجيا صوفية. فحضر الاساقفة يتقدمهم البطريرك القسطنطيني ولم يحضر نيقولا بطريرك انطاكية الملكي . . . فاوعز ابونّيس مطران ملطية الملكي الى البطريرك القسطنطيني ان لا يرخّص لبطريرك السريان واساقفته في الجلوس (الرهاوي ٦٤).

٣) واخذوا يبصقون في وجهه ووجوه اساقفته ورهبانه، ويحثون عليهم التراب ويرمونهم بالحجار من السطوح . . . وبعد اخذ وردّ كثير أخرج السريان صحيفتين كتبوا احداهما باليونانية والثانية بالسريانية فنشروهما وقرأوا بعض الاسطر. ثم قالوا: اننا لم نحضركم لتعلّمونا الامانة بل لنعلّمكم اياها نحن. فيجب ان تقرّوا بالطبيعتين بعد الاتحاد. قال البطريرك يوحنا اننا لن نبدّل امانة آبائنا . فنهض مطران ملطية الملكيّ . . . ولطم البطريرك. فحوّل له البطريرك الخدّ الثاني . فامتعض اغلب الرؤساء اليونان واشمأزوا ودمّنوا وتركوا واسرعوا في الخروج . وبعد ذلك ذهبوا بالبطريرك وحاشيته الى دير مار مينا وفي الغد مضوا بهم الى دير غريغوريوس . وبعد ايام عقدوا جلسة ثانية واستدعوا البطريرك واساقفته واجلسوه واجلسوا ايليا اسقف سيندو لانه كان شيخاً . وتباحثوا طويلاً فلم يثن البطريرك عن رأيه . فقالوا : نشرط ألّا تضعوا زيتاً في خبز القربان ولا تصلّبوا باصبع واحدة بل باصبعين . . . فلم يذعن السريان لشرطهم . فاصدروا الحكم عليهم بالسجن. كل اثنين في سجن. ومكثوا هكذا حتى تشرين وانزلوا بهم ما شاؤوا من الاعذبة . . .

واعترف من الستة الاساقفة والمطارنة الشخصين معه ثلاثة (١) وثبت ثلاثة على ما هم عليه فحُبسوا في الحبس. ومات يوحنا هذا بعد ثلاث سنين من نفيه. واقام اليعاقبة لهم بعد موته بطركاً غيره (وهو ديونيسيوس الرابع(٢ (١٠٣٢-١٠٤٢). فلما عرف رومانس الملك حاله اتخذ من يحضره فهرب الى ديار بكر من بلاد الاسلام.

« وفي آخر السنة الثالثة من ملك رومانس (١٠٣٠ ؟) سار اليه سليمان بن الكرجي صاحب الرها واستصحب معه الكتاب الوارد من ابجر ملك الرها الى السيّد المسيح وجواب السيّد له. وكان كل واحد منها في ورق طومار مكتوبَين بالسرياني. وخرج الملك والكليروس البطريرك وجميع اهل المملكة لاستقبالها. وتسلّمها الملك بخشوع وخضوع تعظيماً لكتاب السيّد المسيح واضافها الى الآثارات المقدسة التي في بلاط الملك وعُني رومانس الملك بترجمتها من السرياني الى اليوناني. وترجمها لنا الى العربي الناقل الذي تولّى نقلها الى اليوناني على هيئتها ونصّها. » (٣).

اما البطريرك نيقولا الثاني فكان يفرغ كل جهدٍ وجدٍ في ان يستميل اليه السريان المنوفيزيتيين المقيمين في انطاكية. وقد حدث في اواخر بطريركيته فتنة بين اولئك السريان أسفرت عن انضمام فريق منهم الى الملكيين، واستحلّوا

١) واخيراً وافقهم اغناطيوس وموسى واسحق اساقفة ملطية وخربوط وعرقة. وكتبوا صورة ايمانهم وامضوها ودفعوها لهم. فأخذها مطران ملطية الملكي الى الملك وقال له: اذا تربّصتَ ولم تتسرّع في تخلية سبيلهم اذعنوا كلهم ووافقونا. فارسل الملك يقول ليوحنا البطريرك: « اذا وافقتنا في امانتنا خوّلناك كرسي انطاكية ». فكتب له البطريرك: « اني حاصل على الكرسي الرسولي في الارض والسماء ». ولما آيسوا من الاتفاق امر الملك فساقوا البطريرك الى المنفى الى دير غايوس ببلاد بلغارية. وهناك اقام اربع سنوات في السجن حتى ادركته المنون في ٤ شباط ١٠٣٠ وكفّنه وصلّى عليه يوحنا كاتب اسراره. وعلى اثر نفي البطريرك استدعي اساقفته الى بلاط الملك. فعرّى بطريرك اليونان الاساقفة الثلاثة الذين وقّعوا صورة ايمانهم وعمدهم ثانيةً... على ان اغناطيوس اسقف ملطية انقمع بعد عماده ومات حالاً. اما الاسقفان الآخران فانحزما الى سورية وقضيا بقية عمرهما تائبين. اما ايليا اسقف سيندو الشيخ الوقور البليغ فقد رجموه على باب البلاط وفتكوا به لانه تغلّب عليهم في الجدال. وقضى ايونّيس اسقف الحديثة نحبه في السجن. وعاد ديونوسيوس اسقف تل قطريق الى كرسيه (الرهاوي وابن العبري في كلامهما عن البطريرك يوحنا في التاريخ البيعي).

٢) حتم هذا البطريرك ان تكون ديار بكر وماردين مركزاً للكرسي البطريركي تملّصاً من الملكيين. وكانت المدينتان المذكورتان في حوزة بني ارتق ملوك ماردين.

٣) يحيى ٢٥٢ و٢٦٣

كنيسة حديثة كانوا قد ابتنوها هم. قال ميخائيل: « فأهبط الله عزّ وجلّ صاعقة على بيعة القسيان الكبرى صباح الاحد في الساعة الثالثة بينما كان البطريرك نيقولا المضطهد يقرّب القداس فاحرقته واحرقت معه الشعب كلّه والكنيسة برمّتها. واضطرّ ابناء جماعتنا السريان ان يغادروا المدينة ايام الآحاد والمواسم الى القرى ويتقرّبوا من الاسرار المقدسة »[1] . هكذا توفي البطريرك نيقولا في ٧ تشرين الثاني ١٠٣٠

٧٩ ايليا الثاني (١٠٣١–١٠٣٢)

تولّى البطريركية الانطاكية سنة بعد وفاة سالفه نيقولا . وصُلّي عليه في قسطنطينية يوم السبت الكبير اول نيسان[2] (١٠ نيسان ١٠٣١) وتوفي في ١٨ ايلول ١٠٣٢

٨٠ تيودور الثاني (١٠٣٣–١٠٤١)

هو جرجس الاسترطط[3] انتُخب بطريركاً لانطاكية ودُعي تيودور وصُلّي عليه في قسطنطينية صباح الاحد من الصيام الكبير المقدّس ١٣ اذار ١٠٣٣ وأقام في الرئاسة ثماني سنين وستة اشهر و ٢١ يوماً. وتنيّح[4] في ٢٤ ايلول ١٠٤١

٨١ باسيل الثاني

أثبت كتاب السينوديكون اسم هذا البطريرك الذي خلف تيودور الثاني وأغفل ذكر سنتي جلوسه ووفاته. ويرجح ان المنون ادركته قبل السنة ١٠٥٢

وفي نحو هذه السنة عينها توفي الشمّاس ابو الفتح عبد الله بن عبد الله المطران الانطاكي المشهور بابن الفضل[5]. وقد أحصى الاب لويس شيخو اليسوعي مصنفاته الرائعة وختم بقوله: « منها يظهر فضل هذا الرجل العظيم »[6].

١) ميخائيل ٥٧٣ ٢) يحيى ٢٦٥

٣) من اليونانية فالسريانية مُهذِّهوٖ اي الفقيه والمفتي

٤) وفي هذه المدة توفي المؤرخ الملكي يحيى بن سعيد الانطاكي . وقد نقلنا ما اشرنا اليه في الحواشي عن تاريخه الذي نشره عام ١٩٠٩ الاب لويس شيخو اليسوعي .

٥) المشرق ٩ [١٩٠٦] ٨٨٦, ٩٤٤

٦) المخطوطات العربية ٤٢

٨٢ بطرس الثالث (١٠٥٢–١٠٥٧)

ارتقى الى الكرسي الانطاكي في حزيران ١٠٥٢ وتوفي قبل ٣٠ آب ١٠٥٧ وفي عهده، اعني في السنة ١٠٥٣، حدث انشقاق الكرسي القسطنطيني على يد ميخائيل قرولاريوس البطريك († ١٠٩٥) الذي كان قابضاً على ازمة الرئاسة الدينية والمدنية. ويقال ان البطريك الانطاكي بطرس الثالث انفذ كتاب الشركة الى الحبر الروماني البابا لاون التاسع (١٠٤٩ – ١٠٥٤) وحمّل كتابه هذا سائحاً كان قد حجّ الاراضي المقدسة وانتظر البطريك جواب كتابه هذا ليبعث الى الحبر الروماني بكتاب ثانٍ على يد دومينيك بطريك غرادو. وقد ناهض البطريك الانطاكي بطريك قسطنطينية وكتب اليه يقول: «اعتبر انه من سبب الانقسام بين كنائسنا وبين الكرسي الرسولي الكبير ألمّت بنا كل البلايا والمصائب. ولذا نرى الامم مضطربة والمدن خربة والولايات مسحوقة وجيوشنا لا تنجح في مكان».[1]

٨٣ تيودوسيوس الثالث (١٠٥٧)

ارتحل الى قسطنطينية قبل ٣٠ آب ١٠٥٧ ليرتقي الى الكرسي الانطاكي. وأصبح مشايعاً حقيقيّاً لميخائيل قرولاريوس الذي جدد انشقاق فوتيوس، وجاهر بالعصيان على كنيسة الله الواحدة. وعقد مجمعاً حرم فيه ثلاثة قصاد البابا لاون التاسع. ومن ثم سقط بطاركة انطاكية والاسكندرية واورشليم في هوة الشقاق وانفصلوا من وحدة الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا فالربوات الكثيرة التي سلمت الى ذاك اليوم من البدع النسطورية والمنوفيزيتية والمنوثولوتية امست هي ايضاً خارجة عن الكنيسة الكاثوليكية. ولم يقف بطاركة قسطنطينية عند هذا الحدّ بل اضطروا البطريركيات الشرقية الثلاث الرسولية ان تترك عاداتها الطقسية وتتبع عاداتهم وانتهم، وتُعلن عصيانها على خليفة بطرس رئيس الرسل وتحذف اسمه من الذبتيخة. وعليه فالبطاركة الانطاكيون الذين خلفوا تيودوسيوس الثالث حاكوه في هذا الشقاق. ومما يبرهن ذلك برهاناً جليّاً ان الصليبين عندما

١) تاريخ لومند. مقال السيّد اقليميس يوسف داود ٣٧٩ – ٣٨٤

فتحوا انطاكية ناهضوا بطاركتها ونصبوا بطريركاً لاتينياً سموه بطريرك انطاكية[1]. والخلاصة ان الانشقاق الفوتيوسي تجدد منذ السنة ١٠٥٧ في بطريركية انطاكية الملكية. فان العقل لا يقبل بتة ان هولاء البطاركة اليوناني النحلة كانوا يقبلون وضع اليد من بطاركة يخالفونهم في المعتقد!

٨٤ اميليان (١٠٧٤–١٠٨٩)

لا يُعرف بالتدقيق زمن وفاة ثاودوسيوس الثالث. وقد خلفه اميليان في نحو السنة ١٠٧٤ وانتهت حياته في قسطنطينية عام ١٠٨٩ او ١٠٩٠. واورد ابن العبري في حوادث السنة ١٠٨٤ ان فيلردس الارمني قصد قسطنطينية وزوّده اليونان بالذخائر والعُدَد واعلنوه والياً. فعاد واستولى على قيليقية وانطاكية ومرعش وكيسوم ورعبان والرها وجيحان وملطية... وقبض على وجهاء انطاكية واغتصبهم اموالهم... فابغضه الانطاكيون وأبغضهم واقاموا لهم حاكماً فارسياً يقال له اسمعيل... فأقبل سليمان بن قتلمش الى انطاكية وملكها بمساعدة اسمعيل المذكور واستحلّ كنيسة القسيان واستحوذ على كل ما فيها من امتعةٍ واوانٍ ذهبية وفضية وعلى ودائع الاهالي التي بها وجعلها جامعاً... ثم طيَّب قلوب الانطاكيين... فارتاحوا في عهده واستراحوا[2].

٨٥ نيقوفور (١٠٨٩)

يرجح انه تولّى الكرسي الانطاكي عام ١٠٨٩ ولا يُعرف متى وابن انقضت حياته. قال العلامة كرلفسكي ما ملخصه: «منذ فتح العرب الى عهد عودة البوزنطيين الى بلاد المشرق كان انتخاب بطاركة انطاكية منوطاً باكليروسها وشعبها. وكان البطريرك الانطاكي مضطرًا الى الحصول على فرمان من خلفاء بغداد أسوةً ببطاركة السريان المنوفيزتيين وخلافاً لبطاركة السريان الموارنة الانطاكيين فان هولاء كانوا في غنىً عن مثل ذلك الفرمان. وزد عليه ان بطريرك انطاكية الملكي كان يعيّنه معتَمَدُه في قسطنطينية او مشايعهُ وكان

١) تاريخ لومند ٣٧٩ - ٣٨٤

٢) ابن العبري: التاريخ المدني السرياني ٢٥٧

ذلك المتمسد او المشايع خاضعاً لاوامر القيصر والبطريرك القسطنطيني . اما اساقفة الملكيين فكانت كل ابرشية على حدتها تنتخب لها اسقفاً . اما بشأن عدد الملكيين المنتمين الى الكرسي الانطاكي في نواحي القرن العاشر فيصعب تحديده . بيد اننا نعرف معرفة تامة ان بطريركية السريان المنوفيزتيين او اليعاقبة كانت اكثر واهم فكان اساقفتها ينيفون على المائة والستين اسقفاً كما اثبت بطريركهم ميخائيل الكبير[1] وغيره . اما اساقفة الملكيين فلم يكونوا يتجاوزون الخمسين . فيُستنتج من ذلك ان السريان اليعاقبة في تلك الحقبة كانوا يناهزون المليونين من النفوس . أمّا الملكيون فلم يكن عددهم يتجاوز النصف مليون . فضلاً عن انه في عهد الصليبيين عينه كان عدد اليعاقبة في انطاكية ذاتها يفوق عدد اليونان او الملكيين بلا ريب»[2] .

٨٦ يوحنا الرابع (١٠٩٨ــ١١٠٠)

وصل الصليبيون الى بلاد المشرق ودوّخوا انطاكية ليلة ٣ حزيران ١٠٩٨ وكان يوحنا الرابع يشغل كرسيها البطريركي فلم يستحسن الصليبيون ان يُسنّوا بطريركاً غيره . فاسترجعوا كنيسة القسيان من يد المسلمين وامتلكوها ، وأجمع الاكليرس الصليبي والوطني على ترميمها وتقرّر يوحنا في منصبه .

بيد أنه لمّا استوسر بوهيمند ملك انطاكية الصليبي عام ١١٠٠ بدهاء جبرائيل الرومي الملكي عامل ملطية[3] شاع ان ليوحنا البطريرك اصبعاً في الخيانة . ولمّا تعذّر عليه التفاهم مع الصليبيين انطلق الى قسطنطينية التي كانت معادية للصليبيين . وفيها قضى حياته عام ١١٠٠ ، وأمسى الكرسي الانطاكي من بعده شاغراً زهاء ستّ وخمسين سنة[4] .

---

١) اطلب الفهارس الملحقة بتاريخ ميخائيل المذكور .
٢) اكرلفسكي . معجم التاريخ والجغرافية الكنسي ٦١٣
٣) ابن العبري : التاريخ المدني السرياني ٢٦٧
٤) روى لوقيان في هذه الفترة اسمي بطريركين ملكيين هما ثودوسيوس ويوحنا نقلاً عن تاريخ البطريرك اثناسيوس دبّاس . غير ان الدبّاس زعم ان هذين البطريركين كانا

على ان الصليبين لما شاهدوا الملكيين يخالفونهم في المبادئ الدينية أخرجوهم عن الكنائس الكبرى ورفضوا بطريركهم واساقفتهم ونصبوا من جنسهم بطريركاً لانطاكية يقال له برندس عام ١٠٩٨ فشغل ذلك الكرسي ستًّا وثلاثين سنة. وهذا البطريرك الصليبي نصب احد عشر اسقفاً لابرشيات طرسوس والمصّيصة والرها ودلوك وافامية وطرابلس واللاذقية وجبلة وقورس ومرعش وحارم. ونصب البطريرك الاورشليمي الصليبي ثانية اساقفة لابرشيات بيت لحم وحبرون والسامرة ويافا والناصرة وقيصارية وصيدا وبيروت. ثم نصب الصليبيون مطراناً لصور لان البطريرك الانطاكي الملكي أبى ان يؤدي لهم النفقة[1].

وكتب مؤرخو السريان ان باسيل ابن صابوني مطران الرها السرياني رافع بطريركه اثناسيوس السابع (١٠٩١ – ١١٢٩) الى ديوان السيّد برندس بطريرك انطاكية الصليبي. ولمّا وصل البطريرك اثناسيوس الى انطاكية ادخله الصليبيون الى كنيسة القسيان باحتفال وسألوه ان يغفر لمطرانه المذكور ويصالحه فأبى البطريرك وخرج ساخطاً. ثم لاذ بصديقه عبد المسيح الفيلسوف الرهاوي الملكي[2] فتخلّص من تلك الدعوى وعاد الى كرسيه.

معاصر بن انيكون المتوفى في سلخ القرن الحادي عشر. فزعمه اذًا يشمل ثيودوسيوس الثالث ويوحنا الرابع.

١) ميخائيل ٥٩٠

٢) الحروب الصليبية في الآثار السريانية بقلم صاحب المقالة ٢٤، ٧٣، ٧٤

رحلة حديثة — الى صحراء سورية الشمالية

رصافة هشام ورقة الرشيد

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

متى تردي الرُّصافة تستريحي من التهجير ، والدَّبَرِ الدوامي !
الفرزدق

اذا الرَّقَّة البيضاء لاحت بروجها ، فدى كلُّ عطَّارٍ بها امرٌ مرير !
الاخطل

على طريق الصحراء

— الرصافة ؟ رصافة هشام ؟ سرجيوپوليس ؟

— هي بعينها ، على نحو مائتي كيلومتر من حلب ، نكون فيها ضحى الغد ، اذا شئتم.

وشاء الله ان نشاء . فلبينا دعوة الاب پريڤو اليسوعي ، مدير النادي الكاثوليكي في حلب ، وقمنا صباح ٢٨ نيسان الفائت ، تاركين الشهباء مطمئنة الى نوم الصباح ، قاصدين الصحراء الشرقية ، مستيقظة بما فيها من جماد ونبات وحيوان نحو اشعَّة شمس الربيع تبخّر ما تناثر عليها من ندى الليل البارد.

السيَّارة متينة من نوع « هدسون » ؛ والدواليب جديدة يرفدهـا ، عند الحاجة ، دولابان جاهزان على الجانبين ؛ وصفائح البنزين عديدة . والطعام وافر ؛ وكذلك الماء في صفيحة خاصة يعلوها قالب ثلج مغلَّف بالخيش . فلا خوف من الانقطاع ، ان شاء الله . اما السائق فماهر ، رصين ، ناطق اذا انطقته ! واما الرُّكاب فهم : الاب پريڤو اليسوعي ، والاب مينيس البندكتي ، وشارل القرم ، وكاتب هذه السطور . اربعة متفقون في الآراء والنزعات لا كلَّ الاتفاق ،

مختلفون لا كلّ الاختلاف. فهم اذًا على افضل ما يكون من الحالات استعدادًا لإثارة الابحاث في تلك المناطق التاريخية، بل لتغذية المناقشات طول تلك الرحلة المترامية حتى الخمسمائة كيلومتر. واذا بموضوعات الثقافة المختلفة من تاريخ واجتماع وفنّ وادب وشعر تزدحم ازدحام الذكريات في تلك البطائح المتموّجة بتموّج النسيم، الخافقة صعودًا وهبوطًا باضطراب السيّارة على طريق لم تعبّد كلّها بعد.

هذه مجموعة من قوالب السكر، بل من اقراص الكبّة، تبدو في الافق البعيد، غبراء اللون في ذاك المرج الاخضر. ثم تزحف نحونا شيئًا فشيئًا، فتتضخّم اقراصهـا، ويقرب لونها من الاصفرار المذهّب تحت اشعّة الشمس. واذا بها بيوت من الطين المجفّف تُقام — ولا نقول تُبنى — على ذاك الشكل المخروط، لخلوّ السهول من الحجارة والخشب. هي قرية النيرب، على ثمانية كيلومترات من حلب، فيها محطة للطيران.

وهذه، على خمسة عشر كيلومترًا، قرية جبرين، وعلى القرب منها تلّان: الواحد الى الجنوب والآخر الى الشمال، وهما من تلك التلول المتعددة في الصحارى والسهول، كما في سهل البقاع، والتي كانت، على ما يظهر، نقاطًا للمراقبة يُصعد اليها لكشف السهل ورصد حركات العدوّ.

وهناك تلّ آخر، على خمسة وعشرين كيلومترًا، يدعى تلّ الشربة. وقبالته، الى اليمين، قرية جب الصفا. ووراءها من ناحية الجنوب تمتدّ بحيرة جَبُّول المالحة او السَّبخة. وهي مصدر للملح جدير بالذكر، لا ينقصه الّا ان يستغلّ بطريقة منظّمة.

ثم تتابعت السهول ترفد بعضها بعضًا، لا نرى فيها الا تموّجات الزرع، وقد اصفرّ في بعض المناطق حتى كدنا نسمع حفيف السنابل المثقلة، بل انه بوشر حصاده في انحاء عديدة، ولا يزال في غيرها اخضر يافعًا كأنه حديث العهد بالظهور. وهو، كيف ما كان، قويّ الساق، مندفع الرأس، يبشّر بموسم صالح. ولم يمرّ علينـا نصف ساعة في تلك الزروع حتى اشار المُلِمّ الى قرية جديدة اسمها دير حافر، واذا هي لا تكاد تختلف عن النيرب الا بالاهميـة

والسعة . امـا البيوت فهي هي من تلك القوالب المعهودة . على ان في الدير عدة دكاكين فيها بعض الحاجات الضرورية ومن جملتها البنزين وزيت السيارات . والى شماليها وجنوبيها التلان المعهودان كذلك .

وبعد ان ادركنا قرية عرب ، على ٧٦ كيلومترًا من الشهبا ، اخذنا ننحدر شيئاً فشيئاً نحو وادي الفرات . ولم نلبث ان شاهدنا ، بل تصوَّرنا عن بعد ، تلك المنعرجات الفسيحة ، والدورات البطيئة ، الذي يزوَرُّ فيها الفرات «مُستَنفِرًا من جبال الروم » ، على قول الاخطل . بيد ان ذاك الاستنفار لم يكن قويًّا لان الجبال بعيدة عنا ، ولا يذكرنا بها الا مرتفعات كلسية على يمين الطريق ، متجهةً جنوباً بغرب ، مستقبلةً اشعة الشمس في تمـاريجها المتنوّعة الالوان الى البياض الأزهر ، مظلّلةً اياها حتى حناياهـا المقوّسة ، وقد اخذت امواج النهر من حروفها في سالف الاحقاب عهدَ كان يمرّ عند اقدامها . اما اليوم فانه يبعد نحو كيلومترين عن الطريق الى الشرق . وها اننا نراهُ بجلاله البطيء ، ينتقل على مهل من يمين المجرى الى يساره على مسافة قـد تبلغ الخمسمائة متر ، فيطرق الحنايا والمنعرجات ، ويجرف تراب الضفتين ، مغالباً تلك الشجيرات المرتجفة بالقرب منه ، جارفاً « ركاماً من الينبوت والخضد » ، حتى يصادف عقبة مسكنه الواقعة في تلك المرتفعات الكلسية ، فينحرف عنها نحو الكيلومتر متغلغلًا في الاكاثيف . ومسكنة قرية على مائة كيلومتر من حلب ، فيها مخفر للدرك ، وبها تنتهي الطريق المعبّدة ، فيضطرّ المسافرون الى السير في مجاز لا بأس به ، يبلغ الى نحو مائة كيلومتر قبل دير الزور ، فيتصل بطريق جديدة .

وعلى خمسة كيلومترات من مسكنة ، تقع على تلّ الى يمين الطريق ، اسكي مسكنة او مسكنة القديمة ، وهي خرائب مدينة بالس البعيدة الذكر في الحروب المتتابعة بين العرب والروم على عهد الحمدانيين خاصة .

بالس

عُرفت بالس منذ العصور القديمة . وكان اسمها برباليسوس ، وهو آرامي الاصل تحرَّف في ما بعد ، فصـار بالس . وقد نالت شهرتها لحسن موقعها على

الفرات الذي كان يمرّ امامها ، فكانت مرفأ مهماً تنزل فيها القوافل الذاهبة من الشام الى العراق ، فتترك الطريق البرية سائرة بطريق النهر . وترسي فيها السفن الآتية من العراق ، فتفرغ بضائعها لتنقلها القوافل بطريق البر . فهي اول مدن الشام من جهة العراق ، تقع على حدّ جغرافي مهمّ ، وعلى حدّ منـاخي مهم كذلك ، لانّ رطوبة الفرات تخفّف فيها وطأة المناخ الجافّ المتصفة به صحراء حلب القاحلة . ولهذا غدا في نباتها وفي حيوانها ميزات متعددة تفصلهما عن نبات بادية حلب وحيوانها .

وقـد تعاقبت عليها الدول منذ القـدم ، ونالت نصيبها من النزوات والاكتساحات ، فخربها كسرى انوشروان نحو السنة ٥٤٠ ، على قول بروكوب ؛ فأعاد بناءها يوستنيانوس . ولا يزال من آثاره فيها بقايا ساحة ، واطلال برج .

وفي اوائل الفتح العربي ، دخلها المسلمون . وما زالت تنتقل من سلطان الى سلطان حتى ملكها الحمدانيون اصحاب حلب ، فاستفاد سيف الدولة من موقعها التجاري ، ففرض الضرائب والمكوس على القوافل القادمة من العراق والذاهبة اليه . ووكل بجبايتها قاضيه ابا حصين الرقي ، وهو مشهور بالخبث والدهاء والتزلّف لسيف الدولة ، حتى انه كان يبرّر ما يأتيه الامير من ضروب الجور على الرعية ، فيبيح ضيره ، ويحلّل له الحرام . ذكره المؤرخ كمال الدين ، فقال : « وكان ظالماً ، فكان اذا مات انسان اخذ تركته لسيف الدولة ، وقال : كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك ، وعلى ابي حصين الدرك . » هذا القاضي انفذه سيف الدولة الى بالس ، وفيها التجار معتقلون عن السفر بسبب الحروب بين الامير الحمداني والاخشيد ، فأخذ ابو حصين يرهقهم بالضرائب حتى ابتزّ منهم ، على قول ابن حوقل ، « في دفعتين ، بينهما شهور قلائل وايام يسيرة ، الف الف دينار . » ومهما يكن من المبالغة في الرقم ، فان الحادثة تدلّ على ازدهار المدينة الاقتصادي .

وكان ينزل بواديها قبائل بني كلاب . وكثيراً ما ثاروا على سيف الدولة . حتى اضطر مرّة الى السير عليهم بنفسه ، فاوقع بهم ، وسبى حريمهم . ثم اشفق عليهم فعفا عن الاسرى ، وردّ الحريم ، سنة ٩٥٤ ، وكان المتنبي معه في تلك النزوة ، فقال قصيدته التي مطلعها :

بنبرك ، راعيا ، عيث الذئابُ ! وغبرك ، صارماً ، ثلم الغرابُ !

وفي السنة ١١١١ وقعت بالس في ايدي الصليبيين ، اصحاب امارة الرها . وقد زارها السائح بنيامين التوديلي سنة ١١٦٣ . على ان المسلمين لم يلبثوا ان استعادوها ، فشيد فيها الملك العادل ابو بكر الايوبي منارةً مثمنة الاضلاع ، مربعة القاعدة ، زيّنها بالنقوش والرقم الكوفية ، وهي لا تزال قائمة الى اليوم ، ولم ينل الخراب الا قسمها الاعلى . ويبلغ ارتفاعها ٢٢ متراً ، يُصعد اليها بـ١٠٧ درجات . اما مادتها البنائية فالآجر المصفر . وفي المدينة اطلال الجامع وبقايا كثير من البيوت العربية المبنية كلّها بالآجر او اللبن العراقية كالمنارة الراقية الى اواخر القرن الثاني عشر ، او اوائل الثالث عشر .

بيد ان الفرات ، وهو السبب الاصلي في ازدهار تلك المدينة ، اخذ ينحرف عنها منحدراً الى الغرب في ذاك السهل الفسيح ، حتى اصبح في ايام ياقوت الرومي (+ ١١٢٩) على بعد اربعة اميال ، او ثمانية كيلومترات . اما اليوم فقد اقترب النهر الى نحو ثلاثة كيلومترات . ولعله يعود ؟ فيعود الى تلك النقطة ازدهارها السابق . وقد اجهز عليها ، بعد ابتعاد النهر ، اكتساحات المغول فخربها جنكيز خان سنة ١٢٦٠ .

في بطائح الفرات

ولم تكد تغيب عنا خرائب بالس ومنارتها الشامخة ، حتى اخذنا نقترب من الفرات شيئاً فشيئاً الى ان ادركنا تلك المرتفعات فصعدناها في عقبة تدعى دبسة ، ولعلّها ، كما يقول اصحاب «الدليل الازرق» ، هي «تِفساح» ، اي المعبر ، المذكورة في الكتاب المقدس (سفر الملوك الثالث ٤ : ٢٤) ، او لعلّها تپساك التي ذكرها اسطرابون فقال ان الاسكندر قطع الفرات عندها فاتزل فيه سفنه ، وكان قد حملها مفككة من آسية الصغرى . ومن اعالي تلك البقعة منظر فريد على منعرجات النهر المتتابعة ، وتلك السهول المترامية الاطراف حتى الافق البعيد ، لا ينقصها الا مشروع ينظّم طريقة الريّ فيها ، فتغرق سورية بمواردها الخصبة . هذا ما كنّا نفكر فيه ، ونحن نرمي الانظار الكئيبة على

الارض الخصبة التربة ، وعلى الماء المتدفق حياةً ونشاطاً ، وليس من يستفيد من ذاك الخصب ، ولا من تلك الحياة .

وقد شاهدنا في تلك البطائح مجموعة عجيبة من النباتات المتنوّعة ، القويّة الروائح ، كنا نجد بينها كثيراً من حجارة الظرّان المصنوعة . وليس الظرّان من حجارة تلك المنطقة ؛ فلا شك، والحالة هذه ، ان تكون هناك احدى المحطات الظرّانية قصدها فريق من سكان المغاور الأوّلين ، فنزلوا ضفة الفرات يصيدون وحش الصحراء وحيوان الماء . ومهما يكن من أمر فاننا ندلّ علماء العصور السابقة للتاريخ على تلك المحطة ، لعلهم يجدون في ثنايا ترابها ما يفيدهم ويفيد التاريخ .

ويظلّ مجاز السيارات — ولا نقول الطريق — بعيداً عن الفرات حتى يصل الى ابي حريرة ، على ١٢٨ كيلومتراً من حلب . وابو حريرة قرية شركسية فيها مخفر للدرك . وقربها مورد من الفرات تقصده الرعاة بابلها واغنامها وبقرها . اما اصل القرية فلا نعرف عنه شيئاً ، ولا عن ابي حريرة المدعوّة به . ولعلّ اللفظة تصحيف ألالي او هراري ، وهو اسم قرية قديمة كانت في تلك المنطقة، فحُوّل الى ابي حريرة . ثم رُزق ابو حريرة هذا — المتجسّم رجلاً — ثلاث بنات أشير الى قبورهنّ بثلاثة ابراج خربة واقعة جنوبي القرية ، في مرتفع يشرف على سهول صفين .

صفين

وما اشرفنا على هذه السهول حتى تمثلنا تلك المعركة الحاسمة في تاريخ الاسلام الاول . وقد احتشدت جيوش معاوية على الفرات ، وقابلتها جيوش علي مما يلي ذاك المرتفع . وفهمنا ما يرويه المؤرخون من ان جيش معاوية امتلك الماء اولاً على جيش علي ، لانه كان اقرب الى الفرات . على ان مركز جيش علي كان امنع دون شك ، وهو اقرب الى المرتفع المطلّ على السهل . وما هي الّا لمحة شاملة ، واذا بذاك المرج الفسيح تحييه التذكارات ، فيأهل بالجيوش الصاخبة ؛ واذا بليلة الهرير (٢٨ تموز ٦٥٧) يحمل فيها الأشتر فيزعزع جيوش

الشام عن مراكزها ؛ واذا بالمصاحف ترفع على رؤوس الحراب في جيش معاوية ؛ واذا بعلي يسقط في يده فيتضعضع جيشه.

واذا بالامويين يقرّون ملكهم على دعائم القوة ، والحلم ، والكرم ، والحق الالهي ، يؤيدهم الاخطل ، وهو اعظم صحافيي ذلك العصر ، بقوله السائر :

ويومَ صفّينَ ، والابصارُ خاشعةٌ ، أمدّهم اذ دعوا ، من ربّهم مددُ !

واذا بالاسلام وقد حار مدة بين المفرقين ، يتّجه اتجاهاً نهائياً جهةَ الشام فجهةَ المدنيّة الغربية ، صادفاً عن جزيرة العرب ، وعن العراق ، ملقياً بمقدّراته في ايدي السوريين ، فيخدمونه بخدمتهم تلك الدولة العربية الأعرابية حتى يجعلوا منها امبراطورية هائلة تبلغ فتوحاتها قلب اوربة ، ومجاهل آسية الوسطى ، وتهدّد بيزنطية برّاً وبحراً ، ناشرةً مآثر العنصر العربي حتى عهد العباسيين ، فتتفرّس الخلافة ، وتصبح الدولة « اعجمية خراسانية » ، على حدّ قول الجاحظ . وليس من شك في انه ، لولا معركة صفين ، بل لو كان الانتصار فيها لعلي ، لكان الاسلام اتجه نحو الشرق منحصراً في العراق والحجاز ، متجاوزاً الى فارس ، منصرفاً، في كل حال، عن الشام، وعن البحر، وعما وراء البحر من مدنية وعمران.

ولكن ما لنا ولهذه الاعتبارات والفرضيّات، وقد مرّ على المعركة ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً ولا يزال اكثر مؤرّخي المسلمين ، اذا ذكروها ، فكأنّهم يذكرون احدى المعارك الحالية ، فتندفع بهم الحماسة ولا يتمالكون الانحياز ، ظاهراً او ضمناً ، بعضهم الى معاوية ، واكثرهم الى علي .

وقد كان من نصيب صفين ، وهي الواقعة على ممر الجيوش من العراق الى الشام ، ان تشاهد معارك عديدة ، فتشرب دماء كثيرة . وكان اشهر تلك المعارك وقعة بين سيف الدولة والاخشيد لم يُشر اليها المؤرخون ، ولكنها معرونة بابيات للمتنبي . كان سيف الدولة قادماً من العراق ، والاخشيد من الشام ، فمثلا دور علي ومعاوية . الا ان الانتصار كان بجانب سيف الدولة ، وهو العلويّ المجاهر بعلويته ، فأثأر لإمامه . واستغلّ المتنبي هذه السانحة ، كما استغلّ اسم سيف الدولة وهو سميّ الخليفة الرابع ، فقال :

يا سيفَ دولةِ ذي الجلال ، ومَن له خيرُ الخلائق والأنام سَمِيُّ ،
أوَ ما ترى صفّين كيف أتيتَها ، فانجابَ عنها العسكرُ الغربيُّ !
فكأنّه جيش ابن حرب رعتَهُ ! حتى كأنّك ، يا عليُّ ، عليُّ !

ومن اعالي صفين يطلّ الناظر على ضفة الفرات اليسرى فيرى قلعة فخمة ، فسيحة الرقعة ، ضخمة الاسوار تعلو نشزًا صخرياً تخططه طبقات الحجر الكلسية ، هي قلعة جعبر المشهورة ، لها ذكر مستفيض على عهد الاتابك زنكي ، والد نور الدين ، وقد نسب الى هذا بناية القسم الاكبر من سورها وابراجها . والى غربي القلعة ، على نحو كيلومترين منها ، يرى الناظر مشهدًا صغيرًا يشير الى قبر سليمان شاه ، احد امراء العثمانيين ، وقد غرق في الفرات في ذاك الموضع . وكان من نصيب تركية الجديدة ان أعطيت هذا القبر ، ونالت الحق ، وفقاً لمعاهدة انكرة ، بان تبقي فيه حامية قليلة العدد من العسكر التركي ؛ وهو من غرائب تلك المعاهدة .

ولنعد الى الطريق العام او الى المجاز ، فانه يؤدي الى مرتفعات ينحدر منها الى تلّ الفدين ، فالى السَّبخة ، فالى كَراكول الحام . وعند السبخة يتفرَّع المجاز الآخذ جنوباً في صحراء الرصافة ، مقصدنا ذاك الصباح .

ولأمرٍ ما اسرع السوّاق في الاخذ جنوباً غيرَ منتظر مفرق السبخة ، ولا راغب في الاطلاع على المَعلَم الهادي .

في مجاهل القفر

ولم يقطع نحو العشرين كيلومترًا حتى ضاعت معالم المجاز . ولم يبقَ امامنا الّا القفر الصامت، الاجرد « كظهر الترس » ، كما يقول شعراء البدو . وليس ادعى لفهم الشعر الجاهلي ، وتذوّق تلك الاستعارات الصحراويّة ، من السفر في قفار لا يكدّر صفاء آفاقها الفسيحة الّا السراب المضطرب في الهاجرة ، واشباح الابل تتضخّم وتتضاءل على المرتفعات السحيقة ، وقد عارضتها اشعة شمس الاصيل فغلّفتها بذرور الالوان المذهبة .

اخذ النهار يرتفع شيئاً فشيئاً ، واخذ الهواء يلفح فاترًا فحارًّا ، ومرجل السيارة يوالي الأزيز لاهثاً ، والريح تداعب خروق الغطاء المدني ، فتشارك ذاك الازيز

بانينها الصافر ، وكأنّ عزيف الجنّ يعصف فينا انّى اتجهنا في تلك المفاوز المهلكة . ولا دليل لنا الّا الخارطة تتناولها اصابعنا،تفتّش فيها بشيء من القلق والايجاس عن اطلال الرصافة ، ولا مرشد الّا-الابرة المغنطيسية تضطرب راقصة باضطراب ابصارنا ، ولا تهدأ مشيرةً -الى الشمال الّا اذا-اوقفنا السيارة.

هناك الى اليمين أشباح سوداء تتماشى ، وكأنها تقترب منا ؛ فانسهّل عليها السير ، ولنقصّر المسافة . واذا بالسائق يدير المقود نحوهـا ، ويطير على غير هدى ، وقد أمن المعاثر والعقبات والدورات في ذاك السهل الاملس . واذا بها تتراجع وتتمايل حتى تتلاشى ، فلا نستفيد منها الا رؤية السراب ، والكلام عنه كلام شاهد عيان .

ــ وهذا الغبار المتصاعد الى اليسار ؟ فلنقصده فلا بدّ من ان يدلّ على شيء .

ــ هو سراب ! وقد سئمنا مطاردة السراب !

ــ أوَ يُثير السرابُ غبارًا ؟ سِر نحوه ، يا كِنيك.

ويسير كِنيك ــ وهو اسم السائق ــ صامتاً ، فيدخل الغبار ؛ واذا وراءه غزلان برش ، لا تطالعنا الا بدوائر بيض ترفرف فوقها اذنابها القصيرة ، وكأنها تهزأ بنا وبسيّارتنا ، فتجدّ كلّما جدّت ، وتتصاغر تلك الدوائر كلما اتسع بيننا وبينها المجال .

ــ وتلك الحيوانات المتراكضة في الافق الجنوبي ؟ لا شك انها اكبر من الغزلان ، واكثر حركة من مولّدات السراب ! فلنقترب منها.

واذا بالوهم ينجلي عن جمال تتداعب في تلك الرمال ! وأَلطِفْ بداعبة الجمال أنساً وسلوى ، على ان يكون عندهـا راعٍ او راعية يفيدنا شيئاً عن طريق الرصافة .

وكأنّ صوت السيّارة نشر الذعر في ذاك السرب المطمئن الى الراحة ، فثار بكامله ، وهو يبلغ المئات ، فشالت الاذناب ، وترجرجت الارداف ، واضطربت الاسنمة ، وتمادت الرؤوس بين الصعود والهبوط «كسكان يوصي بدجلة مصعد» .

هي ناقة طرفة تحيا امامنا بتلك النياق الضخمة المكتنزة اللحوم ، لا بهذه الابل

المزيلة التي نراها تتجرّ على الطرق المعبّدة ؛ وهي الفصلان تتلاعب لاهيةً عن كل شيء. في تلك الآفاق الفسيحة المتتابعة على منظر واحد ، بل هي شاعرية العرب نفسها تنبعث في ذاك الاطار الطبيعي الوحيد فتأنس بجيوانه القليل ، ونباته الهزيل ، وتكتفي بتصوير ما تراه . فتتذوّق فنّها الدقيق ، وتشعر بشعورها الفرد ، وتجري مع خيالها المحدود ، ونفهم اسباب قصورها عن التنوّع ، فنخفّف من حملاتنا على اصحابها لانهم لم يصوّروا ما لم يروا . هذه الابل انس البدوي ، والهام الشاعر . ولكن هل من ورائها بشر نميل اليه فنسأله عن مقرّنا من تلك الصحراء ؟ هي بدوية وحيدة تستظلّ ظلّ ناقة ساكنة ، كما كان يفعل هلال في ابله . ملنا اليها فسلّمنا ، فردّت بلسان جدّ بعيد عن عربيتنا حتى الفصحى . وسألناها عن الرصافة . فاجابت ناظرة الينا بشيء من الاستغراب يساوره شيء من القلق :

ــ الرصافة ؟ هي بعيدة ، بعيدة . لقد تركناها منذ ثلاث ليال .

ثلاث ليال للماشي وراء الابل لا تمثّل شيئاً مهماً للسائر في سيارة متينة .

ــ ولكن ما لنا والبعد . الى ايّ جهة تقع الرصافة وحسبنا ؟

فاشارت بيدها اشارة غامضة تلتفّ وتستدير حتى تكاد تشير الى كل النواحي معاً .

فودّعناها ، واتجهنا الى احدى تلك النواحي ، ولا تزال ذكريات الابل تحتلّ مخيلتنا . وكأن تلك الصلة الطبيعية بينها وبين القفر اتصلت بنا ، فغدونا لا نرى الصحراء الّا من خلالها ، ولا نأمل بالوصول الى الرصافة الّا على غواربها . أوَلم يصل اليها ، على هذه الطريقة ، مئات الالوف من البشر مدة القرون العديدة ؟ أوَ لا نرى الآن آثار اخفاف الابل في الاماكن الرطبة اثر المطر الاخير تهدينا في اتجاهنا كما هدت الاجيال المتتابعة من رجال سنحاريب الى رعاة يهوذا ، الى حماة البيزنطيين ، الى زوّار مار سرجيس ، الى شعراء هشام . كما هدت الفرزدق يقطع الايام والاسابيع من مدن العراق ، لا يؤنسه الّا الناقة ، ولا يشجعه على مواصلة السير الّا الامل ببلوغ الرصافة وبنوال هشام بن عبد الملك ، حتى اذا ما لغبت ناقته وتلفّتت ضجرة ، مستكشفة الافق البعيد ،

خاطبها مخاطبةَ الرفيق، ومنّاها بقرب الراحة وحضور الغنم ، متى وردت الرصافة:

إلامَ تَلَفّتين ، وأنتِ تحتي ، وخير الناس كلهم أمامي ؟
متى تردي الرُصافة تستريحي من التهجير ، والدَّبَر الدوامي ؟
وتلقي الرحل عنك ، وتستغيثي بنيث الله والملك الهمام !

فيسمعه جرير ، وجرير منصت لكل ما يقول الفرزدق لينقضه عليه . ولعلّه كان يغبطه لمقامه من هشام في الرصافة ، فيردّ قائلاً :

تلفّتُ أنها تحتَ ابنِ قَيْنٍ حليفِ الكير والناس الكِهامِ ؛
متى تَرِدِ الرصافةَ تخزَ فيها ، كخزيك في المواسم ، كلَّ عامِ .

بيد اننا لا نأمل الخزي في ورودنا تلك المدينة ، التي تحمّلنا المشاقّ كلها في الوصول اليها .

واذا بنا نلتفت فجأةً ، وسط القفر الاغبر المحمر الى بقعة سوداء لمّاعة في اشعة الشمس (الرسم ١) ، فتعترينا الدهشة مدة ثوان ، ثم نصيح كلٌّ بفمٍ واحد : الرصافة !

الرصافة

تاريخها

ورد ذكر الرصافة في النصوص الاشورية ، وفي سفر الملوك الرابع من الكتاب المقدس . وقد جاء اسمها فيه بصيغة « راصف » . فذكر ان ملك اشور بعث رسلاً الى عدوّه حزقيا ، ملك يهوذا ، يهددونه قائلين : « ... فانك قد سمعت كل ما صنع ملوك اشور بجميع البلدان وكيف دمّروها أفأنت تنجو ؟ ألعلّ الامم التي اهلكتها آبائي انقذتها آلهتها كجوزان ، وحاران ، وراصف ، وابناء عادان الذين في تلاسّار ؟ »[1] .

ثم تحوّل اسمها من راصف الى راسابه ، فالى الرصافة او الرصافا . وقد دعيت ، بعد القرن الرابع ، سرجيوبوليس اي مدينة سرج او سرجيس نسبة الى القديس سرجيس الذي استُشهد فيها نحو السنة ٣٠٥ ، على عهد ديوقلتيانوس ، ودُفن هناك . فأقيم دير على قبره ، وكثرت العجائب على ضريحه ، فانتشرت

١) سفر الملوك الرابع ١٩ : ١١—١٢

مظاهر تكريمه في تلك الانحاء حتى دعيت المدينة باسمه . وقد فصّل المؤرخون سيرة حياته . ومن اقدم ما ورد في ذلك اقوال السريان ، واقدم هؤلاء يعقوب السروجي ، اسقف سروج ، المتوفى سنة ٥٢١ . فقد انشأ ميمراً في الثناء على سرجيس وباخوس قال فيه مخاطباً سرجيس : « انت معقل وطننا ، وبك يلوذ صقعنا كله » ، مشيراً الى ان القديس اصبح ، منذ ذاك العهد ، شفيع القسم الاكبر من سكان سورية الشمالية الشرقية ، بل من سكان اعالي الجزيرة . ثم لمح يعقوب السروجي الى العجائب التي كانت تجري ، في عهده ، على ضريح الشهيد[1] . وفي سيرة للقديس ، محفوظة نسختها الراقية الى القرن الثاني عشر في لندن ، « ان الدوق انطيوخس غادر قرية بالس مستصحباً سرجيس الى قرية شورا ، وهناك حاكمه وعذبه . ثم طرده الى قرية مجدل الماء البعيدة ستة اميال عن شورا . ومن شورا مضوا به الى الرصافا وهي تبعد عن المجدل تسعة اميال ايضاً . وهناك امر بقطع هامته بحضور جمهور من المسيحيين . وحاول اهل شورا ان يسرقوا جثمانه فقاومهم الرصافيون . ثم اجتمع خمسة عشر اسقفاً واحتفلوا بتدشين كنيسة ضمن الرصافا وضعوا فيها الجثمان . »[2]

وقد كان للغساسنة ، وللتغلبيين خاصة ، فضل في نشر تكريم الشهيد ، وفي دفع القبائل الى زيارة ضريحه ، حتى اصبحت كنيسة مار سرجيس في الرصافة من اشهر المزارات . ومن الدلائل على هذا ان قانون الايمان الذي ارسله اساقفة بلاد العرب الى يعقوب البرادعي يحمل تواقيع خمسة عشر منهم يدعون باسم « سرجيوس » ، بل ان احدهم يدعى « سرجون »[3] . وهي صيغة سريانية اضيف فيها الى سرج (وهذه سريانية الاصل معناها النور ، الضوء ، السراج) علامة التصغير « أون » ، فكأننا قلنا سرج الصغير ، او سرج الاصغر[4] . وتذكر

١) اخبار الشهداء القديسين (طبعة بيجان) ٦ : ٦٥٩

٢) اخبار الشهداء القديسين (طبعة بيجان) ٣ : ٢٨٣ و٣٢٤

٣) اطلب في ذلك اعمال مؤتمر المستشرقين الحادي عشر : القسم الرابع ، الصفحة ١١٧

٤) وقد اشتهر في دمشق ، في اواخر القرن السادس والقرن السابع ، آل « سرجون » ، نبغ منهم خاصة منصور بن سرجون ، مدير المالية ، على عهد معاوية . ومن سلالته ظهر القديس يوحنا الدمشقي .

الوثيقة نفسها عدة ديورة على اسم مار سرجيس . ومن ذلك ان المنذر الغساني بعد ان ثار مدة على بيزنطية ، لم يشأ توقيع عهد الصلح ألّا بالقرب من ضريح القديس المذكور[1]. ولما ملك النعمان بن الحرث بن الايهم ، وهو من الغساسنة مكرمي الشهيد ، اصلح صهاريج الرصافة ، وصنع صهريجها الاعظم ، في قول ياقوت[2] . وقد ظلّ العرب يكرمون سرجيس مدة القرون العديدة . وهذا الاخطل يشيد بذكره ويصرّح بانه شفيع قومه التغلبيين ، وبانهم يحماون رايته، الى جنب الصليب ، في حروبهم ، حتى في تلك التي نصروا فيها الامويين على اعدائهم من آل علي وابناء الزبير ، فدخلوا المدينة ، وحاصروا الكعبة . يقول الشاعر النصراني :

لما رأونا ، والصليب طالعا ، ومار سرجيس ، وسمًّا ناقعا ،
وابصروا راياتنا لوامعا ، خلّوا لنا راذان ، والمزارعا .

فيردّ عليه جرير ، ولا تقلّ شهادته عن شهادة الاخطل في تأييد اتخاذ التغلبيين مار سرجيس شفيعاً لهم :

أبالصليب ومار سرجس تتقي شهباء ذات مناكب جمهورا ؟

ويقول ايضاً عن التغلبيين :

يستنصرون بمار سرجس وابنه ، بعد الصليب ، وما لهم من ناصر !

ذاك ان التغلبيين خاصة ، وسكان الرصافة عامة ، ظلوا على نصرانيتهم بعد الاسلام ، كما يشهد بذلك مؤرخو العرب المسلمون ، ومؤرخو السريان النصارى ، وكما تدلّ عليه الاطلال الباقية الى اليوم . وقد كتب موسى بركيفا ، اسقف الموصل ، المتوفى سنة ٩٠٣ : « لما بلغوا بسرجيس الى الحصن امر الحاكم فقطع رأسه . والى اليوم (اي الى عهد الكاتب من القرن التاسع) يكرم دير الرصافة رفات القديس .»[3] ونقل ياقوت عن ابن بطلان في رحلته سنة ٤٤٠ للهجرة (١٠٤٨ م) وصف كنيسة مار سرجيس في الرصافة وزاد ان سكانها « بادية اكثرهم نصارى . »[4]

١) Lammens, *Etudes omayyades*, p. 239

٢) ياقوت : معجم البلدان (طبعة Wüstenfeld) ٢ : ٧٨٤ .

٣) اخبار الشهداء القديسين ٣ : ٢٨٣ . ٤) ياقوت : الكتاب المذكور ٢ : ٧٨٥ .

وقد اولى امبراطرة البيزنطيين الرصافة عناية وافرة منذ اواسط القرن الرابع . وزادت مظاهر عنايتهم عصراً فعصراً بازدياد الاقبال على مزار مار سرجيس . حتى رقي العرش الامبراطور انسطاس (٤٩١—٥١٨) ، فاقام فيها الكنيسة الكبرى ، ومن الراجح ان يكون هو الذي شيّد اسوارها الضخمة ، وبنى فيها تلك الصهاريج العميقة ، ووضع فيها حامية قوية . الّا انه غيّر اسمها فدعاها باسمه انسطاسيوبوليس.

وفي القرن السادس ، هجم عليها كسرى الاول في غزوته على سورية الشمالية ، فاخرب قسماً منها ، ولكنه لم يتمكن من الوصول الى بيت المال . فرمّم ما خرب منها الامبراطور موريقي نحو سنة ٥٩٦ . على ان كسرى الثاني نال ما لم ينله جدّه ، فدخلها سنة ٦١٦ ، ناهباً مخرباً.

وعلى هذه الحالة وجدها العرب ، على الارجح . فلم يهتموا بها الّا هشام بن عبد الملك (٧٢٤—٧٤٣) . فلما وقع الطاعون في دمشق ونواحيها اتجه الخليفة الى الرصافة فرمم اسوارها ، واصلح صهاريجها واقام فيها مدة . فدعاها العرب « رصافة هشام » . وقد ازدهرت على عهده ازدهاراً عجيباً فكثر عدد سكانها ، وراجت اسواقها ، واخذ الناس يقصدون اليها من انحاء الشام والعراق بل من اطراف جزيرة العرب نفسها.

اما العباسيون فقد صرفوا عنها انظارهم ، شأنهم في سائر المدن السورية . فتضاءلت اهميتها حتى دخلها السلطان بيبرس (١٢٦٠—١٢٧٧) فجلا عنها اهلها ، ووزعهم بين حماه وسلمية . فخربت وظلت عرضة لمناهب البدو ، وعوامل الطبيعة .

اطلالها

ولم يبقَ منها الا تلك الاطلال الفخمة الثابتة دفعة واحدة في صحراء ملساء لا حجر فيها ولا شجر . وقفنا امامها خاشعين ، وقد امتلكتنا الدهشة أن يكون بشر نقلوا هذه المدينة كاملةً من احد الاقطار المسكونة ، فعمروا بها ذاك القفر الموحش . وما الحكمة من اقامتها في بقعة قاحلة لا نهر يرويها ولا عين ماء ، بل لا مقلع حجارة تُتخذ منه موادّ البنيان ؟

هذا بعض ما جال في فكرنا، ونحن ذاهلون، لدى تلك الزخارف العجيبة ؛ وهو بعض ما جال في فكر غيرنا من الذين زاروها قبلنا ، وهم قلائل ، فتساءلوا عن سبب انشائها في ذاك القفر ، واجتهدوا في شرح ذلك بموقعها الجغرافي ، وبكونها محطّة مهمّة للقوافل التجارية . وكان من اسم « الرصافة » شاهدٌ لبعضهم على موقعها والغاية منها ، فانتبه الاثري كلرمون گانو الى مادّة ذاك الاسم من « الرصف » و« الرصيف » ، والطريق « المرصوفة » ؛ واذا به يلفت نظر العلماء الى العلاقة بين هذه المحطة والطريق الرومانية « المرصوفة » الآخذة من الفرات الى البحر مارّةً بتدمر[1] .

هذه الشمس ترتفع حتى تقارب السمت ، يسيل لعابها على زوايا الاطلال فتموّج لمعانها ، وتنحدر اشعّتها عموديةً على اعالي السور فتنفض عنهُ الغبار ، وتتسلّل من منافذه وخرجاته وشقوقه ، محرقةً ما تجرّأ على الظهور من عشب ضئيل ، منيرة الوان تلك الحجارة الضخمة فتنقلب بين الاسود اللامع والابيض الكدر . هي بيضاء في اصلها ، رخامية الملمس ، من نوع الجبس المنفصل الى رقائق مستطيلة شفّافة ، ولكنها كدراء فسوداء تحت الغبار المتراكم ، والرمال الثائرة ، والانوار الوهّاجة . ولعلّ من عجائب تلك المدينة ، بل اولى عجائبها ان تكون باسوارها وهياكلها وبيوتها وصهاريجها مبنيّةً كلها بهذا النوع من الحجر الزخرفي الضعيف المكسر ، القويّ على مغالبة الايام . يبدو الصخر منه اسود لمّاعاً عليه غلاف من الغبار الكثيف ، حتى اذا دنا منه الانسان ، واخذ طرفه بحدّ سكينه او بين ظفريه ، تساقطت منه قطعة بيضاء تنقسم الى ما لا نهاية له من الصفائح الرقيقة المستطيلة . والعجب في ذلك كله ان يكون الفنانون قد توصّلوا الى حفر تلك الزخارف الدقيقة المنوّعة في هذا الحجر اللين الذي يكاد يتهافت تحت اصابع المتلمّس . فما كان اصبرهم ، وما أدقّ ما كانت عليه ادواتهم !

1) Clermont-Ganneau, *Recueil d'archéologie orientale*, IV, 112-113 وقد وصف اطلال الرصافة قليل من العلماء قد لا يتجاوز عددهم الثلاثة او الاربعة من الذين امكنهم الوصول اليها ، واشهرهم : H. Spanner et S. Guyer, *Rusafa*, Berlin, 1926

درنا حول السور المربّع المستطيل على نحو ٥٠٠ متر جنوباً بشمال ، و٣٠٠ متر شرقاً بغرب ، وشاهدنا موقع ابوابه الاربعة، حتى دعانا الباب الشمالي ، وهو افضلها حالة، فوقفنا عنده نتأمل تلك الهندسة السورية القديمة ، وقد أثّرت فيها بعضَ الاثر عناصر الجزيرة العليا في القرنين السادس والسابع للمسيح .

هي هندستنا الوطنية التي دفعنا امثلتها في الكنائس العديدة المنتشرة من حوران حتى حلب، ومن البحر المتوسط حتى مجاهل الصحراء ، ولاسيا في تلك « المدن المائتــة » في شمال سورية التي احيــاها الاب ماترن بفنه وعلمه[1] ، ودرس بعض روائعها البنائية والزخرفية الاستاذ لاسوس في سلسلة من الابحاث النفيسة . هي تلك الهندسة الممتازة بالتناسق في النسب والاقسام ، والفنّ في الزخرف ، والرشاقة في الصنعة التي قادتنا الى فرض احترامنا على علماء الفنّ المتأخرين فأمكنهم ان يعتبروا، على قول لاسوس،« ان الفنّ الاصلي في سورية الاسلامية ، ذاك الفن الذي ولد الرائعتين الشهيرتين : قبة الصخرة في اورشليم والجامع الاموي في دمشق ، لم يكن الا امتداداً للفن المسيحي في سورية . »[2]

هذا هو الفنّ الظاهر غالباً في بنايات الرصافة من السور بابوابه الاربعة ، الى الابراج ، الى كنيسة القديس سرجيس ، الى ما حولها من معابد ومنازل لم يبقَ منها الا جدران متداعية ، وقناطر على وشك الانهيار .

يدور السور بالمدينة مربعاً مستطيلاً ، كما قدّمنا، متقطعاً على زوايا مستقيمة يعلو كلًّا منها برج مستدير للحامية . وعرض جداره ثلاثة امتار ، جُعل فيه ، على طوله، ممرّ داخلي معقود (الرسم ٣) يسير فيه الحرس مدة الحصار، فيراقب من خلال المنافذ الضيقة حركات العدو في الصحراء القريبة . وكأنّ الواجهة الجنوبية كانت عرضةً للهجمات اكثر من سائر النواحي، او كأنها هوجمت خاصة في بعض الحصارات ، فقويت بان اردف جدارها بسلسلة من القناطر المتتابعة . اما الخندق

---

١) P. J. Mattern, s. j., *A travers les Villes Mortes de Haute Syrie*, Beyrouth, 1933

٢) جان لاسوس: الفن المسيحي في سورية في القرنين الخامس والسادس . (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ١٦٣)

الذي كان يدور بالاسوار فقد طمرته الرمال حتى لم يبقَ منه اثر .

وقفنا طويلاً امام البــاب الشمالي نتأمل ما حفظته الايام من زخارف تلك الحنايا (الرسمان ٤ و٥) ونتخيَّل ما كلفته تلك الاعمال من سمة تصور ودقة تنفيذ، وما دفع اليها من قوَّة ايمان ، وثبات عزيمة . جهود جبارة قاومت طوارىء الطبيعة ، وعوادي الزمان كما قاومت غزوات الفرس ، واكتساحات المغول ، فنقلت البنــا في زخارفها الغضَّة الطرية ، إقدام سكانها وصلابة قصدهم . بُنيت سرجيوبوليس ، بشكلها الحالي ، سورية بيزنطية على اسم مار سرجيس ، شفيع تلك المنطقة ، فحملت اسمه مدة طويلة ، ولا تزال حاملة الى اليوم ، والى يوم تنهار آخر حنية من قناطر واجهتها الشمالية ، شعار الصليب شاهدًا حيًّا ، منذ خمسة عشر قرنًا ، على نصرانية المدينة . ومما يجدر بالذكر ان من تقلب على حكمها من أرباب الدول المختلفة الديانات لم يتمكنوا من تعفية المعالم المسيحية فيها . وهذا المدخل الشمالي ، فوق ما يظهر فيه من صلبان وسط اقواس الحنايا المزخرفة باوراق العنب والعناقيد ، لا يزال يحمل في شرفته العالية آثار شواهد اربعة ترمز الى كتبة الانجيل . اما هندسة الباب فسورية متأثرة بعض الشيء بالاثر البيزنطي والاثر الجزري . يبدو ذلك في العتبة الاولى الافقية ، واطارها المنقطع الى زاويتين قائمتين ، وبما يعلوها من قنطرة مقطوعة فوق منتصف الدائرة ترتكز على عمودين خارجين عن الباب ، وتتصل بسلسلة من القناطر شبيهة بها شكلاً ، ولكنها اصغر حجماً . وكلها مزدانة بالنقش البارز تمثل فيه اوراق الدوالي والعناقيد ، واوراق اللبلاب والكنكر المنحنية ، وبعض الاشكال الهندسية . (الرسم ٤)

تجاوزنا الباب ذاهلين ، وسط الانقاض المتراكمة ، نطأ برفق ، ولا نكاد ، اقــام الاعمدة المكسَّرة ، وصفائح الجبس اللامعة ، وقطع الخزف الملوَّن والزجاج المخضرّ ، قافزين على تلك الحفائر التي يحتفرها البدو في مرورهم على الرصافة فيفتشون عما هناك من آثار يخالونها ثمينة . وما ان وصلنا الى اطلال معبد ضخم مـدَّس الاضلاع ، لا يزال محفوظاً في حنيته المتجهة الى الشرق ، القائمة على ثلاث قناطر (الرسم ٥) ، حتى اندفعنا نتفقد تلك البقايا . فمنا من يتسلق الجدران او

يحاول النفوذ في الانفاق ، ومنا من يدرس الهندسة البنائية ، ومنا من يفتّش عما قد يكون هناك من كتابة . حتى صاح شارل القرم فرحاً ، واذا به يكتشف ، في حائط الهيكل ، قطعة من خشب الارز يفوح عرفها حتى اليوم ، واذا بنا نسرع اليه نتقاسم شذراتٍ من تلك الذخيرة . ولا يسل المطالع عن نصيب تلك الشذرات من هياج شاعرية صاحب « الجبل الملهم » ! فهو الارز بسموه وفضله ينتقل الى الصحراء . فيساهم في حفظ ذاك المعبد ، وهو لبنان بفكره المولّد ودماغه المنظّم يلتقي نوره حتى مجاهل سورية الشمالية ! . . .

ولم نفق من تلك النشوة الا على اصوات بشرية تقترب شيئاً فشيئاً يا لغرابة الاتفاق ! ويا لحسن الملتقى ! هـذا الاستاذ دونان ، مدير حفريات بيبلوس ، والسيدة عقيلته ، والسيد حمود . وبعد تبادل سلسلة قصيرة من المجاملات انتقلنا جميعاً الى تفقد الكنيسة الكبرى ، كنيسة مار سرجيس .

هي في الناحيـة الجنوبية الشرقية من المدينة تنكشف اطلالها عن سوق فسيحة في الوسط يحفّ بها سماطان من القناطر ترتكز على اعمدة وردية من الغرانيت المصري (الرسم ٦) ، وفي الطابق الاعلى سلسلة من القنـاطر الصغيرة تفرج عن النور فتقوم مقام النوافذ للكنيسة . ولا شك في انها تجمع في شكلها الحاضر مظهرَين او اكثر من مظاهر البناء .

اما المظهر الاصلي فلم يكن في بنائه شيء من تلك الاعمدة الغرانيتية . انما كان تصميمه اوسع وقناطره افسح تستند ، لا الى الاعمدة ، بل الى اركان من الحجارة المبنية . ولا تزال تلك القناطر الاصلية الفسيحة ظاهرة في الاطلال . وكل واحـدة منها تشمل قنطرتين من البناء الحديث كما يبدو للمتأمل في الرسم ٦ .

وقـد تكون الطوارىء المتألّبة على المدينة ، وبالتالي على الكنيسة ، زعزعت من بنائهـا ، بل قد تكون استُخدمت الكنيسة نفسها ، زمن الاضطرابات والاكتساحات ، معقلاً او حصناً ، فخرب قسم منها . حتى اضطر الناس الى ترميمها في القرن الحـادي عشر ، كما تدل بعض الرقم المنقوشة في رؤوس الاعمدة المصرية ، وكما يُستنتج من رقيم شهير وُجد في الرصافة نفسها

ونشرته مجلة « اصداء الشرق » في سنتها الثالثة[1] ، وفيه ان هذا الاثر « رُمم على عهد اسقفية سمعان ، اسقف سرجيوبوليس ، في شهر تموز من سنة ٦٦٠١ للعالم » ، وهي السنة الموافقة السنة ١٠٩٣ من تاريخنا . ومما يدلّ على ان الاعمدة لم تكن في اصل البنـاء ضعف الفن الهندسي في استخدامها حتى تظهر كأنها منسلخة عن الجدران الاصلية ، ولا شأن لها الا تقوية القناطر الاساسية الكبرى . أوّلاً يلاحظ متأمل الرسم ٦ هذه الفروق بين نوعي البناء ؟ أوّلاً يلاحظ كيف سدّ الفراغ بين عتبة القنطرتين الصغيرتين وحنية القنطرة الكبرى ، وكيف رُصفت الحجـارة على غير ترتيب فني ؟ كل هذا ، مع ما حُشي في مؤخرة الكنيسة من قطع الآجرّ الراقي ، في طريقته ، الى العهد العربي ، لدليلٌ على ما تداخل البناء الاصلي من فساد . بيد ان رشاقة الهندسة الوطنية لا تزال ماثلة في ارتفاع تلك القناطر المتسعة الاقواس حتى انها لتفوق في هذا كل ما يعرف من نوعها في بناء الكنائس القديمة . وكذلك تظهر تلك الرشاقة في الطابق الاعلى من الكنيسة ، في تلك المنافذ المنحنية المزدانة باعمدة الجبس لا يخالطها حجر اجنبي (الرسم ٧) ، وهي مبنية على طريقة تجعل النور ينفذ الى صحن الكنيسة صافياً متعادلاً في جميع ساعات النهار . ولقد كانت رؤوس تلك الاعمدة الصغيرة ، الواقفة على مقاعد مستندة الى القناطر الكبرى ، تستقبل اطراف الجسور القائمة بحمل السقف . وكان المذبح في الحنيّة الشرقية يعلو نفقاً معقوداً جُعل فيه جسد القديس الشهيد . ولهذا النفق سلمان ينحدران بدرج لم يبقَ منه الا بعض الحجارة المبعثرة .

هذه هي البيعة الكبرى التي ردّد ذكرها مؤرّخو العرب والسريان وغيرهم فعظّموها تعظيمهم شفيعها الكبير ، وافاضوا في وصفها ، حتى ذكر ابن بطلان ان بانيها قسطنطين بن هيلانة ، وان ظاهرها مزخرف « بالفص المذهب » ، واشار ، في ما نقله ياقوت ، الى « ان تحتها صهريجاً على مثل بناء الكنيسة معقوداً على اساطين الرخام ، مبلطاً بالمرمر ، مملوءاً بماء المطر » . قلنا : ولعله خلط بين الصهاريج الآتي ذكرها وقبر القديس سرجيس تحت مذبح الكنيسة ! او قد

[1] Échos d'Orient, III, 238

يكون تحت الكنيسة صهريج خاص طمرته عوادي الزمن حتى خفي اثره !

في هذه الكاتدرائية ، كانت تعقد الحفلات الدينية الفخمة ، ولاسيما في عيد شفيعها ، فتتصاعد النغمات ، والتراتيل الطقسية . ويقصدها افراد القبائل البدوية الضاربة في تلك الانحاء ، فضلاً عن الحضر ، فيشتركون في تلك المواسم ، على اختلاف نحلهم . وقد كان الخليفة هشام نفسه يحب سماع صلوات النصارى في اعيادهم ، على ما ورد في تاريخ ساويروس ابن المقفع ، فكان يصغي الى تراتيلهم من قصره اللاصق بالكنيسة . واذاً فقد كان قصر هشام جنب هذه الكاتدرائية . ولعل في هذه الاعمدة المنطرحة ما كان قائماً في دار الخلافة .

وبينا كنا نتناظر في أسلوب بناء الكنيسة ، وتاريخ اقسامها ، وتعيين محلاتها ، ولكل منا رأي يستند تارةً الى أثر ضعيف ، وطوراً الى وهم ، وحيناً الى رغبة في الاطلاع على رقيم يفيده شيئاً ويخفف عنه التفتيش بين تلك الحجارة المكدسة ، اذا بنا نذكر رقيماً من القرن الحادي عشر يشير الى اسمين هما سرجيوس ومارونيوس . اما سرجيوس فهو مار سرجيس دون منازع . واما مارونيوس فليس من شك ، في نظر شارل القرم ، بانه مار مارون . وليس من شك في نظر الاب منيس البندكتي ، الزائر الرسولي لرهبانية الشوير الملكية ، بانه غير مار مارون . وها اننا نشهد فصلاً جديداً من المناظرة الدائمة بين ماروني اصيل متحمس ، ورومي كاثوليكي حديث له غيرة المبتدئين ، فلا يقل حماسةً عن الاول . وتتوالى الشواهد من الجانبين ، والمفاضلات الدينية والطقسية ، والمفاخر العنصرية باسلوب يتنقل بين العلم والشعر ، تهيجه النبرات الحماسية ، ولكنه لا يخرج عن ادق مظاهر الذوق ، واصفى صفات الادب .

ونشترك جميعنا في تلك الاحاديث ، فتعود الحياة الى صحن الكنيسة المهجورة منذ مئات السنين ، وكأنّ الحفلات الدينية قامت فيها من جديد ، والمناظرات اللاهوتية استعادت ازدهارها على عهد البيزنطيين . حتى يخرجنا احد الحاضرين من تلك النشوة ، فيقترح نشر الدعوة لزيارة اطلال الرصافة ، وتأليف شركة مساهمة ، يكون هو رأسها طبعاً ، لبناء فندق عصري ندعوه : « سرجيوس ومارونيوس بالاس اوتيل » . . .

بقي علينا زيارة الصهاريج ونحن نعرفها عظيمة ضخمة كافية لتموين المدينة بماء المطر، اذ لا عين ماء عندها، ولا نهر الا الفرات على نحو اربعين كيلومتراً. وها هي تظهر في الزاوية الغربية الجنوبية. ثلاثة منها متشابهة مبنية بحجر الجبس المعروف، راقية دون شك الى اقدم عصور المدينة، ولا تزال محفوظة بقبابها، يبلغ طول الواحد منها لا اقل من اربعين متراً، في نحو ثلاثين عمقاً، في نحو ١٥ عرضاً (الرسم ٨). والى جنبها صهريج رابع مبني بالآجر والخزف يرقي الى العهد العربي. وكأنهم احتاجوا اليه بعد ان كثر سكان المدينة فبناه النعمان بن الحرث ابن الايهم الغساني، على قول ياقوت، وهو الذي وضع الصليب على مدخل المدينة «لانه كان نصرانياً»، في قول المؤرخ نفسه[1]. وقد يكون هشام اصلح تلك الصهاريج وزاد فيها لان سكان المدينة، على عهد هشام، كانوا اكثر منهم في اي عهد. ولم تكن هذه الصهاريج تكفي وحدها لحاجات المدينة، فقد كان هناك آبار عمق الواحد منها، في ما روى الاصمعي، مائة وعشرون ذراعاً الا ان ماءها مالح رديء. فلا يلجأون اليها الا اذا فرغت الصهاريج. يلجأ اليها الفقراء خاصة. اما اهل الثروة فيرسلون عبيدهم يستقون على الحمير من الفرات «يمضي احدهم العصر فيجيء بالماء في غداة غد». والاغنياء كثيرون بينهم لانهم، في اكثرهم، تجار، منهم من يسافر الى الانحاء البعيدة ومنهم من يعامل العرب مقيماً في المدينة، وكل رجالهم، اغنياء وفقراء، ينزلون الصوف؛ ونساؤهم يشتغلنَ بالنسيج، فيصنعنَ اكسية جميلة مشهورة.

على ان التجار كانوا عرضة لاذى البدو الضاربين حول الرصافة لا يخلصون منهم الا بتأدية خفارة معلومة. فهم بين خطر العطش، وشظف العيش، وتهجم اللصوص والصعاليك، ومع هذا، فانهم لا يرضون عن رصافتهم بديلاً، «ولولا حب الوطن، لخربت» كما في قول ياقوت.

وما هو ان تناولنا طعام الغداء في تلك الخرائب الموحشة حتى ركب الاستاذ دونان ورفيقاه سيارتهم متجهين في الصحراء نحو تدمر، وركبنا سيارتنا نحو الفرات، قاصدين الرقة.

١) راجع الاب شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ٤٥٦

عبر الفرات

هي الصحراء نفسها تذمرنا في الاصيل بما غمرتنا به في الصباح . الا ان هواءها اسخن ، وشمسها ألذع ، وسرابها اقل صفاء . تظهر لنا الواحة المتماوجة ماء ، المزدهرة اشجاراً ، فنُجذب اليها مع علمنا بوهميتها ؛ ولكنها لا تلبث ان تتبدد ، فتمحوها موجة مكتسحة من الهواء الجاف اللافح ، او رجّة قوية من السيارة وقد تفزت على بعض الاخاديد تغطيها الاعشاب اليابسة ؛ فنستفيق لحظة ، ثم نعود الى الوهم مدفوعين بتلك الحالة المخدّرة التي تغمر الانسان في الهاجرة ، بين الطعام والمنام ... ولا نكاد نشعر الا وقد ادركنا مفرق كراكول الحمام ، ذاك الذي تهنا عنه صباحاً . فوقف السائق قليلاً ، ناظراً الينا باستفهام ، متردداً بين حلب ودير الزور . ولم يكن الا القليل حتى ادار مقوده الى اليمين ، وسرنا على مجاز دير الزور ، الى الفرات .

لا يشعر اللبناني بعظمة «النهر» الا اذا خرج من لبنان . يخرج الى مصر فيشاهد النيل في جلاله البطيء ، او الى شمالي سورية فيرى الفرات في تقلّبه وترنّبه ، وحينئذٍ يتحقق نصيب المبالغة الشعرية في تسميتنا مسيل بيروت ، وساقية الدامور ، وجدول الاولي ، «انهراً» ؛ كما يتحقق المبالغة نفسها في دعوة اهل مصر مرتفع المقطّم «جبلاً» ، وفي اجماع السوريين من سكان الشمال على الاعجاب بتنوّع مناظرهم الطبيعية ، والاشادة بذكر مصايفهم ! هي النسبية تعمل في الآراء والاحكام عملها في الخيال والشعور !

ولكن لندع التفلسف جانباً ، ولنفكر في قطع هذا النهر المتدفّق على عرض لا يقلّ عن مائتي متر ، تترحلق مياهه اللزجة على الضفة ، جارفةً تربتها الدسمة ، مصطبغةً بذاك اللون الاغبر حتى تزلق عليها اشعة الشمس فلا تنيرها الا بالكدرة القاتمة ؛ بينا نراها مسرعةً في عرض المجرى ، وقد تنقّت من الكدر فمالت الى الزرقة السماوية تتخلّلها الاضواء القوية فتزيدها صفاء على صفاء .

هنا على الضفة القريبة ، حيث وقفت بنا السيارة مرغمةً ، اكواخ خشبية

لا تفتأ تتراجع امام هجوم النهر ، فتقصر المسافة بينها وبين مفرق دير الزور. قصدناها مستعلمين عن طريقة الوصول الى الرقة في الضفة الثانية ، فحاولنا الكلام بالعربية والفرنسوية ، ولكن دون جدوى. واذا بنا نشاهد صاحبة احد الاكواخ تداف نحونا باهتمام — وهي امرأة لا عمر لها يُقدر ، لبست سروالاً لا لون له ، وتمنطقت فوقه بزنّار يستر نصفه بصدرية مخملية الاصل عُلقت فيها طائفة من النقود النحاسية . ابتسمت هذه السيدة عن اسنان بارزة ، واخذت تشير الى اصناف بضاعتها ، عارضةً علينا مـا يُؤكل او يُشرب . هذه علب سردين اثّرت فيها اشعة الشمس فنصلت الوان ماركاتها . وهذه كعكات شتا عليها الذبّان وارتبع واصطاف فتركها مخطّطةً منثرة بالسطور المتماوجة. وهذه كاسات فيها سائل اغبر كالحليب الوسخ تشمئز العين بلزاجته . واذا هو مـاء الفرات يتناوله الاهلون قريباً من الضفة ، ويشربونه بدسمه لا يريدون عنـه بديلاً ، لو سهل عليهم وجود ذاك البديل .

شكرنا تلك الفاضلة على قدر المستطاع ، وحاولنا افهامها — على قـدر المستطاع كذلك ! — انّا نفتش عمّن يقطع بنا النهر ، فلم نُفلح ؛ ولم نفهم الا كلمة « سرجان » . فاعدناها مثنى وثلاث ورباع . واذا « بالسرجان » مقبل مع اربعة من انفاره . أدّى التحية العسكرية على افضل ما يكون من دقّة ، وسألَنا عن قصدنا بلهجة فرنسوية مفهومة . فاستفتيناه بشأن الوصول الى الرقة ، فقال :

— هناك زورق مدني لا يسافر الا مساءً . وهنا زورق عسكري يسافر عند الحاجة .

— وهل يمكن ان نقابل ملّاح الزورق العسكري فنطلب اليه نقلنا ؟

— انا ملّاحه . وانا مستعدّ لنقلكم بكل سرور ، على شرط ان تنالوا اذناً من الكابيتين .

فاغتبطنا بهذه النعمة ، وهممنا بالاسراع الى الكابيتين ، نحييه ، ونطلب منه الاذن بالسفر . على ان السرجان قطع بنا مجرى السرور ، عندما سألناه عن مركز الكابيتين ، فأجاب :

— هو في الرقة ، على الضفة الثانية !

فزاغت ابصارنا مدّة ، وحارت عقولنا في حلّ هذا المشكل . والسرجان مأمور عسكري لا يفهم الا لغة الاوامر الصريحة . يفهم انه ينقلنا الى الضفة الثانية ، بناء على اذن من الكابيتين . ولكنه لا يفهم انه يجب ان نكون على تلك الضفة للظفر بهذا الاذن . وهكذا درنا مدة ، حتى خطر لاحدنا ، وهو من ضباط الجيش الفرنسوي ، ان يقنع السرجان بطريقة غاب عنا سرّها. واذا به يدعونا بلطف الى الزورق. واذا بالتيار يحملنا في تدفقه ، فنعلو، ونهبط، ونزف ، وتتضارب الامواج على الجؤجؤ تثيرها رياح الاصيل ، فتتكسر صاخبة آنّة ، ويتناثر على ثيابنا زبدها المتطاير . هي رياح الربيع اللينة، ولم تذب الثلوج بعد في « جبال الروم » ، فكيف بالفرات في رياح الشتاء ، بل كيف به اذا ذاب الثلج في حزيران ،

وزعزعته رياح الصيف ، واضطربت ، فوق الجآجئ ، من آذيه غُدُرُ !

فلا عجب ان تطّرد حملاته اذ ذاك ، فتتراثب اواذيــه االجون سوداء الاسافل ، بيضاء الغوارب ، فتتدافع السفن وتطردها كالنعام الناشرة اجنحتها الزفوف ، كما في قول الاخطل . ولا عجب ان

يقمّص بالملاح حتى يشفّه الحذار، وان كان المُشيح المعوّداء

فيقلق ملتفتاً ذات اليمين وذات اليسار ، ينبّه هذا النوتي ، وينهر ذاك ، يداور التيار ، ويعارض مقذوفات النهر ، وهو على كل حال ، يظلّ

متصماً بالخيزرانة ، بعد الاين والنجدِ .

ولا عجب ان يعلو التيار الجزائر الصغيرة ، فيجرف ترابها ، ويكسر نباتها حاملاً « الركام من ينبوتها وخضدها » — وها اننا نرى واحدة من تلك الجزر يجاذبها التيار ، فتهرب مسرعة الى الوراء بما يحوم فوقها من اسراب الطيور البيضاء ، تحلّق عصائب فوق الموج ، فتنقضّ على ما يلوح في طيّاته من صغير الاسماك ، وتتهافت على ما يلقيه في الشاطئ الرملي من الفضلات النهرية . هي «بنات الماء» الناصعة البياض، المنتشرة الاجنحة، الطويلة الاعناق والمناقير، المضطربة على صفحة النهر باضطراب امواجه ، حتى اذا سكن ، مالت الى الاستراحة

في جوانبه ، فانتظمت صفًّا مرتّباً ورفعت اعناقها البيضاء كؤوس الاباريق ، في تشبيه الاخطل :

كأن بنات الماء ، في حجراته ، اباريق اهدتها دياف لصرخدا !

هذا هو الفرات بما يثيره من قلق ، وبما يدفع اليه من شعر . فذا مخيلة الضاربين على ضفتيه من العراق الى الشام ، من الذبيانيين الى التغلبيين ، من النابغة الى الاخطل ، فخفّف شيئاً من جفاف الصحراء ؛ واذا في قصائدهم من تنوّع الصور ، وطراءة الالوان ، ونضارة الحياة ، ما لم نعهده في صلابة نجد ووهج الحجاز .

الرقة البيضاء

هذا ، وابصارنا ترود الافق القريب ، على الضفة المقابلة ، وقد دنونا منها في دقائق معدودة ، تفتش ناهمة عن « بروج الرقة البيضاء » فلا تقع الا على مئذنة مستديرة الى اليمين ، وعلى خيال بناء ضخم الى الشمال . والى القرب منا ، في مرمى الزورق ، حماران هزيلان تعلو الواحد منهما امرأة محجبة ، حائرة ، في مهاب الريح الشديدة ، بين ضغط خمارها المتطاير وضبط حمارها المرح ، صائحة بغلام هناك أن يعاونها على الاخذ بزمامه ، بينا كان الحمار الثاني ينتظر بصبر وثبات من يحمله الى الرقة .

ودّعنا السرجان منتظرًا الاذن بنقلنا الى الرقة ، واتجهنا الى مقرّ الكابيتين في ذاك البناء الضخم ، ودليلنا احد الغلمان يتنقّل بنا بين الوحل والغبار ، ونبات المستنقعات . ولما طال علينا الطريق ، واشتدّ الحرّ ، سألناه عن وسائل النقل في المدينة ، فذكر الحمير اولاً ، ثم زاد ، كمن تذكّر امرًا مهمًّا :

— وعندنا السيّارة !

السيّارة — على الاطلاق ! — وما عسى ان تكون هذه التحفة ؟ وسرعـ ما ارسلناه يستأجرها ويلاقينا الى مركز الحامية العسكرية ، وكنا قد وصلنا اليه . فاستقبلنا الكابيتين بكل لطف ، واعطانا الاذن الصريح بنقلنا الى الرقة ، ثم باعادتنا الى الضفة المقابلة . ثم جلنا معه في اقسام المركز ، وكلّها ناطقة

بنشاط الجند ، وسهرهم الدائم . ومما يجدر بالذكر محاولاتهم الموفقة احياناً في تشجير تلك المحال الجرداء . نقول « الموفقة احياناً » لان من اصعب ما يلاقون في حماية غروسهم ذاك الهواء العاصف الذي لا يكاد يهدأ ليلاً ولا نهاراً . يهبُّ على اغراسهم فيكسر افانينها ويزعزع جذوعها حتى اذا اسندوهـا الى العكاكيز الضخمة من الصفصاف ، لم تسلم جذورها من القلقلة والاضطراب . وكثيراً ما رأينا الغرسة يابسة متناثرة الورق ، وعكاَّزتها حية غضة البراعم . وهو ما اهـاب بالكابيتين الى تحقق مؤلم في ازدهار الطفيليَّات بانتزاعها غذاء الاصول . . .

واذا بضجيج صاخب متواصل يقترب منّا ، ويشتدّ . فيه من تقصّف الرعود المفرقعة ، وفيه من أزيز المحرّكات العتيقة ، وفيه من قعقعة الصفائح الحديدية ، وفيه من طقطقة التنك المجرّر . هي « السيارة » التي وُعدنا بها تقف امام مدخل الثكنة متقطعة الانفاس ، مواصلة الفحيح والنفيخ . فنودّع الكابيتين ونركبها الى اطلال الرقّة القديمة .

تاريخها

عُرفت الرقّة ، قبل المسيح ، باسم نيقيفوريوم ، بناها الاسكندر الكبير في زحفه على دجلة . ثم عُرفت ، على العهد الروماني ، باسم كالينيكوم نسبةً الى السوفسطاني كالينيكوس الذي قُتل فيها ، على ما يُقـال . وسُميت كذلك قسطنطينوبوليس ، ثم لاونتوپوليس نسبةً الى بعض قياصرة الرومان . وقد نالت نصيبها من الفواجع والاحداث ، اثناء الحروب الفارسية الرومانية ، والفارسية البيزنطية ، لوقوعها على ممرّ الجيوش . حتى كان الفتح العربي فاناخ عليها جيش عياض ابن غنم سنة ٦٣٨ ، ثم راسل اهلها على الصلح ، فقبلوا . والعرب يسمّونها الرقّة البيضاء — وهناك رقّة سوداء على فرسخ منها الى ناحية البليخ — وفيها يقول سهيل بن عدي ، اثر الفتح المذكور :

وصادمنا الفرات ، غداةَ سرنا ، الى اهـل الجزيرة ، بالعوالي :
اخذنا الرقّـة البيضاء ، لمّا رأينا الشهر لوّح بالهلال ،
وأزعجت الجزيرة بعد خفض ، وقـد كانت تخوّف بالزّوال ؛

وصار المرج ناحيةَ البِنا باكناف الجزيرة عن تعالى(١ جعلها من الجزيرة لأنها على ضفة الفرات الشرقية ، وهو الحدّ الفاصل بين الشام والجزيرة . ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة الى ثلاث مناطق او « ديار » : ديار ربيعة وقاعدتها الموصل ، وديار بكر وقاعدتها آمد ، وديار مُضر وقاعدتها الرقّة هذه .

واتصل ذكرها بالاحداث الاسلامية منذ العصور الاولى ، فكانت مشايعةً لعثمان ، ثم للامويين من بعده . وذلك ان كثيرًا من وجهاء العراق ، كزفر بن الحرث ، والجَحّاف بن الحكيم ، وعبيدالله بن الحرّ ، ومالك بن مِسمع ، هجروا البصرة ، بعد وقعة الجمل ، بل تركوا العراق كلّه قائلين قول بني الارقم : « لا نُقيم في بلد يُشتم فيه عثمان .»[٢] فساروا حتى نزلوا الرَّقّة ، فأثّروا في اهلها ، ونشروا فيهم « العثمانية » ، فاندفع هؤلاء حماسةً ومنعوا جيوش علي ان تقطع الفرات[٣] . وقد ظلّ اهلها على الولاء للامويين زمن ازدهار الدولة العبّاسية ، وبعد انحطاطها حتى عهد الحمدانيين ، على ما ورد في قول لابن حوقل († ٩٨١) سنعود اليه .

وقد كان ينزل الرقة الوليد بن عقبة الاموي مع صديقه الشاعر ابي زبيد النصراني ، فينعمان ببساتينها[٤] ، وبما توحيه من شعر في جمعها بين الصحراء والنهر ، بل بين « البرّ والبحر » مما لم يعهده البدو ، وان كانوا من قريش او أسد ، كما يقول ربيعة الرقي ، احد شعرائها :

حبَّذا الرقّةُ دارًا وبلدْ بلدًا ساكنه مِمّن تودْ
ما رأينا بلدةً تعدلها ، لا ولا اخبرنا عنها احدْ
انها برّيّةٌ بحريّةٌ : سُورها بحرٌ وسورٌ في الجَدَدْ
تسمع الصلصل في اشجارها هدهد البرّ ومُكّاء غرِدْ
لم تُضمَّن بلدةٌ ما ضُمِّنت من جمالٍ ، في قُريشٍ وأسَدْ

١) ياقوت : ك . م ٢ : ٨٠٢
٢) راجع اسد الغابة ٣ : ٣٦٧ ؛ وتاريخ اليعقوبي (Houtsma) ٢ : ٣١٥
٣) اليعقوبي ٢ : ٢٨
٤) اسد الغابة ٥ : ٩٢ ؛ وراجع : *Mélanges de la Faculté Orientale*, I, 13-14

ونزلها كثير من رجال بني أمية، فازدهرت عمارتها مدة طويلة وعندما قصد هشام الاقامة في الرصافة، بنى بالجانب الغربي من الرقة، في مكان يُسمى رقة واسط، قصرين كان ينزلها في طريقه الى الرصافة[1]. واختط فيها سوقاً عظيمة عُرفت «بسوق هشام»[2].

وفي اواخر العهد الاموي، مشى عليها الضحّاك الخارجي في جيشه، فأرسل مروان الحمار، سنة ٧٤٦، عسكراً حاربه واضطر الخوارج الى الرحيل عنها. ولعلّ ما اصابها اذ ذاك من المصائب اللازمة للحروب الاهلية، وما ولي ذلك من إعراض بني العباس عن مصانع الامويين، عمل على تأخرها وانحطاطها حتى اواخر خلافة المنصور، فرأى المهدي، وليّ عهده، ان يعزّز النفوذ العباسي على حدود سورية الموالية لخلفاء الامس، فبنى سنة ٧٧٢، الى جنب الرقة، على ثلثمائة ذراع منها، مدينةً حصينة سمّاها «الرافقة»، وجعل لها سورين على طراز «مدينة السلام»، اي بغداد، التي بناها ابوه المنصور[3]. ورتّب بها حامية من جند خراسان. ولم تلبث البنايات ان اتصلت بين المدينتين، وكثيراً ما سمّاها الناس «الرقتين». الى ان ولي الجزيرة علي بن سليمان بن علي، فاقام بالرافقة ونقل اليها اسواق الرقة، وفيها سوق هشام الكبرى، فاغتصبت الرافقة اختها الرقة حركتها التجارية، كما اغتصبت قبل ذاك حركتها الادارية، وكما ستغتصب بعد قليل اسمها فتُدعى «الرقة»، وتخرب الرقة الاصلية فتتلاشى آثارها.

وكان هرون الرشيد يستعذب هواءها فينزلها في الصيف، وهي الطف مناخاً من بغداد واقلّ حرّاً. ولعلّه كان يرمي الى اقرار هيبة العباسيين في الشام، «ناحية اهل الشقاق والنفاق» كما ذكر راداً على اهل بغداد، وقد لاموه على ترك مدينتهم، فقال:

---

١) ياقوت: ك. م. ٣: ٨٠٣-٨٠٤

٢) ياقوت: ك. م. ٣: ٧٣٥

٣) راجع في بناء بغداد وهندستها: فؤاد افرام البستاني: بغداد عاصمة الادب العباسي (المشرق ٣٢ [١٩٣٤] ٦٥-١٠٩)

« ولنعم الدار هي ! (اي بغداد) ولكني اريد المُناخ على ناحيــة اهل الشقاق والنفاق ، والبغض لائمة الهدى ، والحبّ لشجرة اللعنة بني أمية ، مع ما فيها من المارقة، والمتلصّصة ، ومخيفي السبيل. ولولا ذاك ، لما فارقت بغداد. »[1]

واذاً فقد كانت غاية الرشيد في انتقـاله الى الرافقة - الرَّقة سياسيةً عسكرية ، لا صحيّة . الّا ان يكون قوله من قبيــل الاعتذار للبغداديين . ولعلّه جمع بين الغايتين . ومن آثار الرشيد في الرافقة قصر فخم بناه سنة ٧٩٦ ـ ولعلّ منه بعض هذه الاطلال التي نزورها اليوم ! ـ ومصانع عديدة حفلت بها المدينة فكثر سكّانها وتعدّدت اسواقها ، وازدادت حركة التجارة فيهــا عهدًا فعهدًا ، الى ان استولى الحمدانيون على تلك الانحاء ، فرأى فيها سيف الدولة ما رآه في بالس من كثرة العمارة ، وازدهار التجارة والصناعة والزراعة ، ووفرة الغنى ، فارهقها بالضرائب كما ارهق تلك ، ودُفع في احتياجاته المتتابعة للمال ، مادّة الحروب الدائمة ، الى مصادرة اهلها . وهذا قول ابن حوقل من جغرافيي العصر :

« اجلّ مدينة لديار مضر الرَّقة ... وكان لها عمارة ، واشجار ، واعمـال ، ومياه ، ورساتيق ، وكور . وقلّ حظّها من كل حال ، وضعفت بما حمّلها سيف الدولة، اخو ناصر الدولة ـ تجاوز الله عنه ! ـ من الكُلف والنوائب ، وصادر اهلها مرّة بعد اخرى . وكانت خصبة ، رخيصة الاسعار ، حسنة الأسواق . وفي اهلها ولاء بني أمية . »[2]

ولم يكتفِ سيف الدولة بالاموال يفرضها على اهل الرقة ، بل تجاوز ذلك الى ضبط مواعينهم احياناً ، حتى انه نزع ابوابها الحديدية ليرسل بها الى حلفائه القرامطة في هجر ، عاصمة البحرين . قال مسكويه المؤرّخ : « في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة (٩٦٤) استهدى الهجريّون من سيف الدولة حديداً . فقلع سيف الدولة ابواب الرقّـة ، وهي من حديد ، وسدّ مكانها . واخذ حديداً بديار مُضر ، حتى اخذ سنجات الباعة والبقالين . ثم كتبوا اليه : انّا قــد

١) البستاني : دائرة المعارف : الرقة.
٢) ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك (de Goeje) ١٥٣-١٥٤

استغنينا عن الحديد. فاخذ القاضي ابو حصين الابواب فكسرها وعمل منها ابواباً لداره . . . »[1]

اما الحادث فلا يُستغرب في تلك الايام . واماّ ابو حصين فهو من عرفناه بالخبث والدهاء والاحتيال[2].

وهكذا ظلّت الرقة تحتال على الحياة بزراعتها وتجارتها، وصناعتها الخزفية الزرقاء المزركشة بالاسود المذهب، الواسعة الذكر في بلاد الشرق كلّها مدة القرون الوسطى، وبما كانت تستفيده من الجيوش المحاربة فتتعوض به من بعض خسائرها اثناء الوقائع المتتابعة في الحروب الاهلية بين الخليفة وامرائه — وفيها اجتمع المتّقي بالاخشيد في ايلول ٩٤٤ محاولاً ان يستعين به فلم يُفلح — وبين الاخشيد وسيف الدولة، وقد لجأ اليها مرّتين؛ وفي الحروب الخارجية المتواصلة بين سيف الدولة والروم. حتى كان عهد نور الدين فاستعادت شيئاً من الازدهار، وبنى فيها الملك، سنة ١١٦٦، جامعاً ذا منارة مستديرة لا تزال قائمة حتى اليوم. على ان المغول مرّوا عليها، في القرن الثالث عشر، كما مرّوا على بالس، وعلى الكثير من المدن السورية والجزرية، فلم يتركوا وراءهم الّا شواهد التدمير، وآيات الخراب.

الطلائع

من تلك الآيات هذه المنارة المستديرة تطالعنا برأسها الشاهق انى اتجهنا في شارع الرقة المستقيم الطويل، فنلفت الانظار ونجذب الانتباه بقعقعة «السيارة» المضطربة، تقلقلنا حتى لا نستقرّ بل لا نكاد نستطيع الكلام، الّا شارل القرم، وكأنه استأنس باشارة فورد تحملها «السيارة» منذ السنة ١٩١٩ او ١٩٢٠، عهدَ كان الوكيل الوحيد في الشرق الادنى لتلك الشركة، فذكر انها خرجت من احد مستودعاته في بيروت، او دمشق، او حلب، او حيفا، منذ بضع عشرة سنة؛ وما زالت تتقاذفها الفلوات فتتلقفها ايدي المصلحين من ميكانيكيين وبياطرة وحدّادين، حتى استوطنت هضاب الرقة، تعلو وتهبط بالمسافرين على

١) مسكويه : تجارب الأمم (Amedroz et margoliouth) ٢ : ٢٠٣.
٢) راجع الصفحة ٢٣٨، من هذا الجزء.

غير نظام ، وكأنهم على « الجبال الروسية » في العـاب اللونا بارك ، بل كأنهم « على قرن الثور ! » كما يقول القدماء . أنس الشاعر « بالسيارة » الأثرِيَّة ، وسائقها ، وفيه ، هو ايضاً ، « لِتُصلِح مستمتَع » ، فاقبل يحادثه بين الصعود والهبوط ، فيتناقشان في السياسة والاقتصاد ، والاكثريات والاقليـات ، ونحن نسمع اطراف أحكام ، وشذوذ آراء ، تصل الينـا بين الضجيج والصخب ، فنعرف ان الرقة يسكنها الكثير من الشركس والبدو ، والقليل من الارمن ، وان عناصر السكّان على وفـاق تامّ بعضهم مع بعض . وهم جميعاً يشكرون للدولة المنتدبة فضلها في توسيع الشارع ، واقرار الأمن ، حتى ان الأرمن — ومنهم سائقنا — لا يخشون مذابح بعد اليوم . وإن هم ذُبحوا ، فلا بأس ، وقد تعوّدوا هذا النوع من مفاجآت الحيـاة يتزل بهم مرة كل خمس عشرة سنة ، فيخفّف عددهم ، ويحثّ نشاطهم ، ويجدّد حقدهم على جيرانهم ، فيثأرون افراداً او جملة ، كلّما سنحت الفرصة للثأر . . .

وهكذا قضينا ربع ساعة بين الاستغراب ، والاعجاب ، وخوف الانقلاب ، حتى وصلنا الى الاطلال ومنها ما اندثر تماماً فتحوّل الى هضاب مسطّحة تدلّ على مواقع الابراج التي كانت تدور باسوار الرافقة ، فتحيط من الجنوب ومن الغرب بالمدينة الحالية ؛ ومنها ما ظلّ قـائماً كباب بغداد (الرسم ٩) المرتفع على تلك الرمال ، وقد اكل الزمان من قواعده ، فبدا كأنه موضوع ، دون اساس ، ربما ينقل الى مكان آخر . يقع البـاب في الزاوية الجنوبية الشرقية من « الرافقة » وهو آخر اثر يدلّ على السور ، مبنيّ بالآجرّ كسائر ابنية المدينة ، لخلوّ المنطقة من الحجر . اما طرازه الهندسي فجزئي متأثر ، بعض الشيء ، بالاثر العراقي الفارسي ؛ وذلك في اقواس القناطر المنكسرة خاصّة . وان يكن فيه ما يُعجب ، فهو تلك الحنايا الزخرفية في القسم الاعلى ، ومـا ابداه البنّاؤون من حذق في مزاوجة قطع الآجرّ الصغيرة ، والتفنن في تنضيدها وتأليفها حتى اخرجوا منها غاية مـا يمكن الوصول اليه في مثل هذه الموادّ الضئيلة من روعة هندسية وجمال بنائي .

وكذلك القول عن بناء الجامع الكبير ، الذي بناه نورالدين سنة ١١٦٦ ،

ممتدًا على ١١٠ امتار في ٩٥ مترًا . ولم يبقَ منه اليوم الا حائط ذو احدى عشرة قنطرة (الرسم ١٠) ، وتلك المنارة العجيبة باستدارتها وارتفاعها . تركنا السائق ، في ساحة الجامع ، نتأمل دقة البناء وشدّة تماسك الآجرّ ، ونعجب بالمنارة (الرسم ١١) فنهمّ بالصعود اليها ، ثم يثنينا ارتفاع المدخل وقصر الوقت ، فنكتفي بالثناء العريض على المهندس المجهول الذي توفق الى استخدام آجرّه على هذا الاسلوب الجميل ، فدلّ على سعة مداركه ، وبعد نظره ، وحسن تقديره لموادّ بنائه .

وهناك بقايا قصر لعلّه قصر الرشيد ، يشير بايوانه المتداعي الى عظمته الاصلية . ثم سلسلة من المرتفعات ، او التلال غير الطبيعية ، ممتدّة على مئات الامتار ، تدلّ على ما تحتها من بقايا بنايات تعاقبت ، في المدن المتتابعة على تلك البقعة ، من نيقيفوريوم الى الرقة الحالية ، ولا يبرز منها ما يصلح معلماً لروّاد التاريخ . انما هناك ، تحت الرمال والانقاض ، مدنيات متعدّدة ، نتمنى ان تكشف عنها معاول الحفّارين ، فيظهرها علماء الآثار في تطوّرها وازدهارها وانحطاطها ، منيرين حقبة مهمّة في تاريخنا المتشعّب .

وطالت التمنيات ، على قصر الوقت ، تغذيها الخيالات التاريخية من اموية وعباسية وحمدانية ورومية تأهل ذاك القفر الصامت ، وتنعش تلك الآثار الشاخصة . . . ولكن هذه الشمس تجنح الى المنقلب فتذكرنا بموعدنا الليلة في الشهباء ، والسائق لا يعود من رحلته . درنا حول السيارة مرات نفتش عبثاً عن الزمور . . . ثم صعدنا كل منا على تلّة نصيح في الجهات الاربع . واذا به يهرول نابتاً من احدى الحفر ، منحني الظهر ، مُثقل السراويل بعدد ضخم من القطع الخزفية الزرقاء المزخرفة بالاسود المذهّب ، فألقاها امامنا في السيارة وصاح منتصرًا : هذا افضل ما في الرقة ، يطلبه السياح دائماً ، ويفتش عنه البدو في هذه الحفائر كلها . فأضفنا هذه الاسلاب الجديدة الى ما جمعناه من ظرّان ابي حريرة ، وجبس الرصافة اللمّاع . ولما سألناه عن خلوّ سيارته من الزمور ، مادحينه على تطبيقه هذا القانون البيروتي الحديث ، اغرب في قهقهة مقصودة ، وصاح :

ــ واي حاجة بي الى زمّور . واهالي البلدة يسمعون حسّ سيارتي على مسافة كيلومتر فيخلون لي الطريق بكامله !

وهكذا كان، عندما طار بنا، على اقصى ما يمكنه من السرعة، في تلك الآكام المتوالية صعوداً وهبوطاً، وبين تلك الازقة الملتوية، لا ينتبه لعقبة، ولا يحسّ بارتطام، ولا يسمع لاحتجاج، حتى حطّ بنا على ضفة الفرات.

وكان السرجان يساوره القلق، فيستكشف ورجاله الضفة القريبة، من مركز قيادة الجيش الى اطراف الاطلال، وقد أخر البريد نحو الساعة، فاخذ يشعر بالمسؤولية . حتى اذا وصلنا، انبسطت اساريره، وتطلق وجهه باطلاعه على اذن الكابيتين، وما هو ان اندفع الزورق في عرض النهر، حتى حلّت عقدة لسانه، فعوضنا من صمته السابق . . . واذا هو شركسي الاصل، متزوج من نحو عشر سنوات، له اربعة اولاد؛ وقد تطوّع في الجيش الفرنسوي منذ خمس عشرة سنة، ولولا قلة المامه بالعلوم، ولولا سوء حظه خاصة، لكان الآن برتبة اعلى . لكنه قانع بمركزه . . . ولكنه سوف يتركه قريباً فيطلب احالته على التقاعد . فيصبح على شيء من الحرية يشتغل بما يشاء، ويستثمر ما سوف يتناوله من معاش قليل . وهو ميّال الى الزراعة في تلك الأرض الخصبة . ولكن الأمن مفقود، والبدو لا يعفون عن شيء في غزواتهم، وسائر السكان لا يقلون عن البدو فظاعة وهمجية . هذا رجل قتل اخاه لخلاف بسيط؛ وهذا شاب ذبح اخته لشذوذ رآه في سلوكها، وصاح: « اذبح تربح! » وهذا آخر احرق بيت قريبه نكاية وانتقاماً . ولولا وجود الجيش لكانت المعيشة مستحيلة . . .

هكذا تتابع الحياة في تلك المنطقة، وهكذا يتابع حديث السرجان بالفرنسوية والعربية ممزوجتين؛ وهكذا تتتابع امواج النهر متدفقةً مدةً طويلة. ونحن كأننا لا نزال في مكاننا . . . ذاك أنّا سرنا مع التيار في مجيئنا، فلم تمض الدقائق المعدودة الا ونحن على ضفة الرقة . امّا الآن فالتيار يعاكسنا، والجنود الستة يجذفون بنتهى قواهم، والدقائق تمرّ سراعاً ولا نتحقق تقدّمنا البطيء الا بالزبد المتطاير عن جانبي الحيزوم . هذا اذا لم ينشب الحيزوم بالرمال، كما حصل لنا في منتصف النهر، فارتجينا مترنحين، وغطس البحّارة يجرّون الزورق بالحبال

حتى تفلتنا ، وبلي ثيابنا وشعورنا دفقات من الماء على لطخات من الرمل والغبار . . .

وصلنا الضفة بعد نصف ساعة ، وكرنيك يقلقه الانتظار . طوراً يكشف ساعته ، وتارةً يكشف الافق الغربي مقدّراً المسافة بين الشمس والبحر ، والرقة والشهباء ، حتى قال : نكون في حلب الساعة التاسعة .

ولا يسل القارئ عن السرعة الهائلة التي عدنا بها ، سرعة التعب من رحلة طويلة وضعته على طريق الراحة ؛ وسرعة التائه في القفر دللتــه على المكان المأهول . وان ننس فلا ننسى ما كان يتقلّب على عيوننا من خيالات فسيحة في جلال الفرات وسهوله المتباعدة تغمرها سكينة المساء وحمرة الغروب ، وبنفسج الشفق ، الى ان يبدو القمر . وكأنها — في جمود صخورها الكلسية اللينة ، ونشوب نباتها الهش لا يتمايل ولا يئنّ ، وصمت مياهها الزاحفة عن بعد بلا حراك ، وذاك السكون الشامل مسفوحاً عليه بياض البدر الازهر الغريب الملمس — كأنها تلك المناظر الباردة المتلفة بالصقيع التي يعرضها الفلكيون صوراً لمناطق القمر الجامدة ، بل كأنها تلك الرسوم الساذجة التي يعرضها الفنانون مشاهد للخليقة في اول عهدها . . .

ثم تنعطف السيارة بلا رفق الى السهول الغربية ، واذا بهذه المناظر آخر ما يعلق باذهاننا من تلك الرحلة القصيرة المدّة ، المترامية الاطراف الى حيث يجتمع الفنّ والادب والتاريخ !



الدياطسرون

في طبعته الجديدة

نظرة نقدية

بقلم الخوري لويس خليل

جدير بكل محبّ للدروس الكتابية ، بل بكل عامل على إحياء ما خلّف السلف من روائع الآثار في الادب والعلم ، ان يهلّل فرحاً ويرحّب بهذه التحفة الفاخرة يقدّمها أحد ابناء الامة الآرامية اللامعين ، الاب العالم الجليل ا. س. مرمرجي الراهب الدومنيكي ، والاستاذ في المدرسة الكتابية والاثرية الفرنسية في القدس[1].

هو « الدياطسرون » اي الرباعي ، ذاك الانجيل الذي جمعه من المبشرين الاربعة الكاتب السرياني الشهير ططيانُس (١١٠ ؟ — ١٨٠ ؟) وطالما مثّل دوراً خطيراً في حياة الكنائس السريانية وابحاث جهابذة العلم قديماً وحديثاً.

صنّف ططيانس تأليفه هذا اولاً في اللغة اليونانية ثم نقله الى السريانية. على ان الاصل اليوناني لم يبقَ منه الا قطعة وُجدت حديثاً في حفريات دورا[2]. بل والاصل السرياني نفسه لا يُعرف له اثر حتى الآن ، بعد ان درج السريان على تلاوته الى ايام رابولا مطران الرها (✝ ٤٣٥) الذي ترجم الاناجيل الاربعة الى السريانية ، وهي الترجمة المعروفة « بالبسيطة » ، وامر بان تقوم مقام

---

1) A.-S. MARMARDJI, O. P. : *DIATESSARON de Tatien*. Texte arabe établi, traduit en français, collationné avec les anciennes versions syriaques, suivi d'un évangéliaire diatessarique syriaque et accompagné de 4 planches hors texte. In-8°, CXL + 539 + 84 p. Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1935.

٢) راجع : Carl H. Kealing, *A greek fragment of Tatian's Diatessaron from Dura*. London, Christophars. 1935.

وايضاً Lagrange : *Un fragment grec du Diatessaron de Tatien*, dans *Revue Biblique*, 1935, p. 321-327.

ترجمة الدياطسرون . بـل ان تيودريطوس ، مطران تورش (†٤٥٧) ذهب إلى أبعد من ذلك وعمل على اتلاف تأليف ططيانس فأحرق منـه نحو ٢٠٠ نسخة في ابرشيته وحدها .

ورغم ما تقدّم ، فقد أحرز الدياطسرون مقاماً عالياً في الاوساط السريانية، لا سيا ان ملفان البيعة و« قيثارة الروح القدس » القديس افرام ، دبج شرحاً له ، على ما أفاد المؤرخون . غير ان هذا الشرح ايضاً مفقود الآن،وليس لدينا منه سوى ترجمة ارمنية نشرت بالطبع في البندقية عام ١٨٨٣ .

هذا في ما يتعلق بالنصّ السرياني . اما في لسان العرب فلدينا ترجمة محفوظة في النسخ الخطية التاليـة : النسختان الفاتيكانيتان نميزهما بالرقمين ١ و ٢ ، والنسخة المصوّرة المحفوظة في المدرسة الكتابيـة الفرنسية في القدس للآباء الدومنيكان ، ونحن نذكرها بالرقم ٣ وهي مأخوذة عن النسخة الخطية الموجودة في المكتبة البطريركية للاقباط الارثوذكس بمصر القاهرة ، واخيراً النسخة ٤ وهي ملك الاب سباط ، ويعتبر الاب مرمرجي انها من فئة النسخة ٣ ومماثلة لها ، وبالتالي فقد اهملها .

وأول من أقدم على نشر الترجمة العربية هو الكردينال تشاسكا[1]، متخذاً اساساً لعمله هذا النسختين ١ و٢ الفاتيكانيتين ، ناقلاً الاصل، الذي اثبته، الى اللاتينية .

أخذ الاب مرمرجي على عاتقه مقابلة النسخ ١ و٢ و٣ وطبعة تشاسكا فاستخرج منها نصاً جديداً ، اساسه الاول النسخة ٣ ، وذلك بأن اختار افضل عبارة وأضبطها صرفاً ونحواً وبياناً ، وجعل في الحواشي شتى الاختلافات في نصوص سائر النسخ . وكلّما كانت العبارة الفضلى المثبتة في الاصل هي ايضاً مشوّشة من جهة التركيب العربي او قواعد الاعراب ، فقـد تركها على حالها منوهاً في الحاشية عن وجه التصحيح الواجب إدخاله عليها .

وقد سلك الاب الناشر هذا المسلك لما هي عليه الترجمة من ركاكة التركيب والاضطراب في قواعد اللغة . ولم يذكر قياساً آخر لتفضيله هذا بين النصوص الثلاثة .

(1 A. Ciasca, *Tatiani Evangeliorum harmoniae arabicae*. Romae, 1888

اما مصادر الفصول والآيات ، نسبةً الى نص الاناجيل الاربعة ، فقد أثبت اكثرها في النسخ الخطية ، وكان تشاسكا نقلها وزاد عليها بعض ما كان منها ناقصاً . فجاء الاب مرمرجي وعيَّن هذه المصادر بدقة متناهية ، بحيث حدَّد مكان كل كلمة من الاناجيل الاربعة. وفي ذلك امثال عديدة تدهش المطالع، وتبيّن ما للناشر من طول الباع والهمة في استقصاء كل نافلة وتحديد موقعها . اليك مثلاً واحداً يغني عن ألف: وردت العبارة التالية في الدياطرون منسوبة بجملتها في النسخة الخطية الى انجيل مرقص دون تعيين الفصل والعدد :

« ولما انفردوا تقدّم تلاميذه وسألوه وقالوا له: ما هذا المثل ولماذا كلّمتهم بالامثال ؟ »

وقد زاد تشاسكا في نشرته على اسم الانجيلي قائلاً انها مأخوذة عن الفصل الـ ٤ العدد الـ ١٠ . اما الاب مرمرجي فقد فصّل مصادرها على الوجه التالي:

« ولما انفردوا (مر ٤: ١٠) تقدّم تلاميذه (متى ١٣: ١٠^a) وسألوه (لوقا ٨: ٩^a) وقالوا له (متى ١٣: ١٠^b) ما هذا المثل (لوقا ٨: ٩^b) ولماذا كلمتهم بالامثال (متى ١٣: ١٠^c؛) »

وهناك ايضاً عبارات وردت في الدياطرون تكميلاً للمعنى أو لربط الآيات المتزلة بعضها ، وهي غير موجودة في الاناجيل بل وضعها المؤلف. وقد عيَّنها الناشر، وفصلها عن سائر الآيات.

وبعد ان اثبت الناشر الاصل على هذه الصورة ، ترجمه الى الفرنسية ترجمة حرفية غير عابئ بترويق الكلام ، حاصراً همه بنقل العبارة العربية كما هي لفائدة المستشرقين .

وقد صدَّر الكتاب بمقدمة طويلة بالفرنسية تقع في ١٤٠ صفحة يجث فيها المواضيع الآتية :

١ ططيانس : حياته ، وتآليفه الدياطرون.

٢ النص العربي ، ونسخه المخطوطة ، الاغلاط الصرفية والنحوية والبيانية ، التعابير السريانية ، لائحة الكلمات التي اضافها جامع الدياطرون وهي غير موجودة في الاناجيل ، تحديد مصادر الآيات في الاناجيل، طريقة الترجمة . وكل هذه الابحاث مدعومة بلوائح مطوّلة تثبت حقيقة ما استنتجه الناشر ، فتجد في هذه الفصول مثلاً لوائح عن الاغلاط والتعابير السريانية ، وعن الإضافات ،

وكذلك عن مصادر الدياطسرون كله .

٣ً يبحث الناشر عن الاصل السرياني للترجمة العربية ، مقابلًا شتى الترجمات السريانية للاناجيل بترجمة الدياطسرون العربية، مما حمله على القول ان هذه الاخيرة مأخوذة عن « البسيطة » ، وليس عن النصّ السرياني الاصلي لططيانس . وهو يؤكد ان رأيه هذا ثابت بنسبة ٨٠ بالمئة من الاحيان، مما تؤيده اللوائح المختلفة؛ وقد قابل ترجمة « البسيطة » بالدياطسرون وبمخطوطتي جبل سينا وكيورتون (Cureton) بحيث يتبين للقارئ اتفاق الدياطسرون مع « البسيطة » واختلافه عن النسختين الاخريين . بل وقد عيَّن ايضاً في الحواشي مواضع الاختلاف بين الدياطسرون و « البسيطة » فاذا بها قليلة .

٤ً من هو صاحب الترجمة العربية ؟ هذا باب يجدر بنا بحثه مع الناشر العلّامة ، لما هو عليه من الخطورة .

يجيب الناشر على هذا السؤال ناظرًا اولًا في النصّ نفسه ومضامينه ، فيبدو له ان المترجم هو : ١ً آرامي ، لان اللهجة العربية وصيغتها في الترجمة هي سريانية محضة ، مما جعل التعبير مشوشاً مختل التركيب ، — ٢ً نسطوري او من السريان الشرقيين ، لان المؤلف يكتب على طريقتهم « إيسوع » (ܝܫܘܥ) خلافاً للعادة الجارية عند اليعاقبة وسائر السريان الغربيين ممن تعودوا كتابة « يسوع » (ܝܫܘܥ) ، — ٣ً عراقي ، لما هناك من التعابير العربية المختصة بالعراق : المعتزلة = الفريسيون ؛ الكرخ = المدينة ؛ القرابة = قنينة كبيرة ؛ المكبَّة = في الموصل هي سلة كبيرة ؛ رابٌ وراب = الكاهن ؛ شِدّدات = القطة ؛ مخروعة = خائفة ؛ جلتموه = أتهمتموه ؛ يسبح = يغتسل او يستحم ؛ يتحرَّقنَ = يتحن ؛ صبيحة = الصباح ، وايضاً الهدية يقدّمها العريس الى آله واصحابه غداة يوم الاكليل .

ثم يتخطّى الناشر الى البرهان الخارجي ، اي التاريخ ، فيقول ان في كلا المخطوطتين ٢ و٣ ، وهما من اصل مشترك ، تصريحاً ينسب الترجمة الى ابي الفرج عبدالله بن الطيب الذي عاش في اوائل القرن الحادي عشر، وكان عراقياً، نسطورياً وامين السر لبطريرك النساطرة ، الياس الاول ، وكان عالماً فيلسوفاً

وشارحاً للكتب المقدسة . غير ان هذا القول ينقضه، على زعم الناشر، امران: اولًا ما من احد من كتبة السريان او مؤرخيهم، لاسيما ممن اثبتوا لائحة تآليفه، نسب له ترجمة الدياطرون . على ان هناك من يعتبر هذا الاهمال غير كافٍ للانكار على ابن الطيب تأليفه هذا ، فقد حدث للمؤرخين السريان انهم اهملوا ذكر مؤلَّفين آخرَين هما الآن في المكتبة الفاتيكانية (شرح المزامير وبحث عن الزواج والطلاق) ولا ريب انهما لابن الطيب ومن قلمه . ومن ثم اذا لم يذكر المؤرخون السريان الدياطرون في لائحة تآليفه فقد يكون ذلك ناشئاً عن النسيان او الجهل ، فلا عبرة به على الاطلاق . غير ان الاب مرمرجي يردّ على هذا القول قائلًا: لا مبرّر لافتراض الجهل والنسيان، اما اذا عللنا هذا الاهمال بان ابن الطيب لم يؤلف الترجمة فعلًا، فلدينا على ذلك برهان ، وهو الثاني لنقض قول النسخ المخطوطة ، نأخذه مما في التعبير من ركاكة وفي التركيب من تشويش، مما لا يتفق مع ما هي عليه تآليف ابن الطيب العربية من دقة وحسن تركيب ، اذ لا يعقل ان تكون هذه الترجمة، كما هي الآن بين يدينا ، من قلم ابن الطيب، بل الارجح انها عُزيت له ترويجاً لها ، كما كان يغلب حدوثه في تلك العصور .

وتأييداً لما كان لابن الطيب من طول الباع في الانشاء العربي ومتانة في التعبير ، ودقة في تطبيق القواعد الصرفية والنحوية، يعرض الناشر بعض الامثال من تآليفه العربية مأخوذة عن مخطوطات محفوظة في المكتبتين الفاتيكانية والباريسية الوطنية . اليك مثلًا هذا النصّ كما ورد في ترجمة الاناجيل لابن الطيب ، نعرض بجانبه ما يقابله في الدياطرون ، فترى ما بينهما من الفروق الشاسعة في التعبير وسبك المعاني:

الدياطرون ٧: ٣٤–٣٥	ابن الطيب: مرقس ٢: ٢١–٢٢
ليس يلقي انسان رقعة جديدة ويخيطها في ثوب بال . لئلا تأخذ جدة الجديدة من البالي، ويحدث خرق عظيم . ولا يجعل انسان شراباً طريّاً في زقاق بالية ، لئلا يخرق الشراب الزقاق ، وتهلك الزقاق ، ويهرق الخمر . لكن يلقون الشراب الطريّ في الزقاق الجدد .	لا يرقع احد ثوباً بالياً بخرقة جديدة ، لئلا تأخذ قوة ذلك الجديد من الخَلَق فيزيد خرقُه . ولا يطرح انسان خمراً حديثة في زقاق مُخلَقة ، لئلا تَفري الخمر الزقاق ، وتهلك الزقاق، وتنصبّ الخمر . لكن تُلقى الخمر الحديثة في الزقاق الجُدد.
	B. N., Paris, MS 86.

وهناك امثلة اخرى اوردها الناشر ، اذا قابلتها بلغة الدياطسرون تحققت فورًا ان هذا الاخير ، كما هو الان ، ليس فيه ما يجعله مقارناً لسائر تآليف ابن الطيب.

وتوغل الناشر في اثبات رأيه هذا ، فتذرّع بالحجة التالية: صُدِّرت مجموعة الاناجيل المخطوطة ٤ الموجودة لدى الاب سباط ، وهي من القرن الـ ١٢ ، بمقدمة مما جاء فيها :

« جمعتُ منها (الاناجيل الاربعة) انجيلاً واحدًا ، وكان قد تقدمني في ذلك جماعة من الافاضل ، من جملتهم القس الفاضل ، ابو الفرج بن الطيّب الشرقي ، رحمه الله . فلما وقفتُ على الانجيل الذي جمعه ، وقابلت به على الاناجيل المحرَّرة ، المتّفق على صحتها ، من السرياني والقبطي والرومي ، وجدته قد اهمل بعض النصوص الانجيلية وحذفها من الاصل بالكلية ... فاصلحت ذلك جميعه ... واعتمدت في توصيعه وترتيبه على فصول اللسان القبطي . فان من يعتمد على لغة قومه ، يصيب ولا يخطئ ... » .

فالاب مرمرجي يرى في هذا القول ما يؤيد نظريته في ان ابن الطيب لم يترجم « الدياطسرون » ، بل ألّف مجموعة من الاناجيل الاربعة ، كما كانت العادة جارية في تلك الازمنة ، دون ان يكون اية صلة بين هذه المجموعة وتآليف ططيانس ، وقد اهمل كاتبنا القبطي حتى ذكره .

على ان في مثل هذه الحجة شيئاً من المبالغة ، من شأنه ان يؤيد أيضاً وبالوقت نفسه عكس ما يريد البحّاثة الدومنكي ، من حيث ان حجته هذه تتعدّى الى ابعد ما يتوخى بيانه . فالاب مرمرجي يسلّم بان مؤلف المخطوطة الـ ٤ رجل عالم يعرف قيمة كلامه ، وان مجموعة ابن الطيب كانت بين يديه ، فقلّبها واستعان بها لتأليف مجموعته .

فأين هي هذه المجموعة ؟ وكيف لم يبقَ لها من اثر ؟ بينما في محل آخر يصرّح الاب مرمرجي ان بين المخطوطة الـ ٤ القبطية ، والمخطوطة الـ ٣ صلة وثيقة من جهة الاصل . فلا بدَّ من القول ، بناء على هذه الشهادة التي يحلّها الاب مرمرجي مكاناً عالياً في معرض كلامه ، ان الترجمة التي لدينا هي لابن

الطيب ، وان كانت مشوشة العبارة والانشاء . وهـذا اول وجه للتناقض في بحث الاب الناشر . بل مما تقدّم يتبيّن وجه آخر لهذا التناقض، وهو ان النصوص، التي نحن بصددها الآن والمدوَّنة في مخطوطات الفاتيكان وبطريركية الاقباط، لا تنتمي بشيء الى الدياطسرون الاصلي لططيانس، اللهمّ الا بما يتعلق بالمشروع الاساسي ، اي تأليف مجموعة للاناجيل الاربعة وحسب .

فلو ان ابن الطيب ألَّف مجموعـة ، فهي ، في رأي الاب مرمرجي ، تأليف خاصّ قام به ابن الطيب لا علاقة له بالدياطسرون لططيانس .

ونحن ايضاً على هذا المنوال ، يمكننا القول ان الدياطسرون العربي الذي يذيعه الاب العالم على جمهور العلماء لا ينتمي بصلة الى الدياطسرون الاصلي . لا سيّما وان حضرته اثبت ان هذه الترجمة العربية لم تؤخذ عن ترجمـة ططيانس السريانية بل عن « البسيطة » .

وايضاً كما انه ينبذ ما جاء في التصريحين المثبتين في صدر المخطوطتين ١ و ٢ وفي خاتمة المخطوطة ٢ ، في ما يتعلق بنسبة الترجمة لابن الطيب ، يتحتم ايضاً وبالتالي نبذ القسم الآخر من هذين التصريحين ومن خاتمتي المخطوطتين ١ و ٢ حيث يعيّن جليًا ان التأليف هو الدياطسرون وان صاحبه ططيانس . ومن ثمّ كان على الناشر ان ينبذ تماماً من تأليفه عنوان « الدياطسرون » ونسبتـه لططيانس بعد ان نبذ اسم ناقله الى العربية ، فيكتفي بتسميتـه « مجموعة الاناجيل الاربعة » . اما وقد قبل بالقسم الاول من المقدمة فكان عليه ان يسلّم بالآخر ، اذ لا يجوز السلب والايجاب في موضع واحد وضمن حدود واحدة .

كذلك « الاناجيل الدياطسرية » المنشورة في ملحق الكتاب تؤيـد هذه النظريـة القائلة ان العادة جرت بجمع بعض الفصول الانجيليـة من المبشرين الاربعة طبقاً لحاجة الطقوس وفائدة المؤمنين . على ان هذه المجموعات لا تمتّ بصلة الى الدياطسرون الذي ألفه ططيانس .

هذا في ما يتعلق بصاحب الترجمة ونسبتها الى الاصل السرياني . وقد كنا نرغب لو ان المؤلف العلّامـة نشر القطعة اليونانية من الدياطسرون التي اكتُشفت في دورا ، وبيّن صلتها بمجموعتنا هـذه . وكذلك تمنينا لو انه

تكرّم ببعض المعلومات عن الترجمة الارمنية لشرح القديس افرام للدياطسرون، وما قد يكون بينها وبين مجموعته من الصلات، لعله كان اكتشف في هذا الشرح بعض الدلائل التي تهدينا الى معرفة شيء من حالة الدياطسرون الاصلي . كما واننا لم نفهم لماذا لم يضف، الى النسخ التي عارضها، المخطوطة الـ ٤ خاصة الاب سباط، وتلك التي في المكتبة الشرقية لكلية القديس يوسف ببيروت. لا سيما وان هذه الاخيرة تتألف من ورقتين فقط يرتقي عهدها الى منتصف ك ٢ ١٣٥٢ ونُقلتا «عن نسخة عتيقة جدًا.»

واخيرًا نأسف لكون حضرته لم يكتفِ بنصّ مخطوطة واحدة يثبته في المتن، كما هو، دون ما تغيير ولا تعديل، ولا زيادة علامات الشكل والوقف، مدوّنًا في الحواشي وجوه الاختلاف بين شتى المخطوطات : فلو اتّبع هذه الخطّة المثلى، كما اعتاد الآن العاملون في نقد النصوص الخطية وناشروها، لكان تسنّى للمنقبين معرفة النصّ الحقيقي للنسخ وما بينها من الصلات ووقفوا على حالة اللغة كما كانت لما أُلف الكتاب . اما في النشرة الحاضرة فيشق على الدارس غربلة ما لديه من المواد المختلفة، ويتعذّر عليه نسبتها الى المخطوط الاصلي ومعارضتها مع غيرها . وهذا خلل لا يستهان به في مثل هذه الابحاث التي غايتها ان تكون اداة صالحة لدروس جديدة.

. على ان تأليف الاب الدومنيكي العلامة طافح بالفوائد والمحاسن العميمة التي من شأنها ان تسدل ستارًا واسعًا على ما قدمنا من التحفظات النقدية . ولا يسع كل مطالع الا ان يُعجب لما اقتضى التأليف في صاحبه من جهود طويلة ومعارف واسعة .

والكتاب كبير الحجم في نحو ٧٨٧ صفحة، حسن التنظيم والتنسيق، جميل الورق . وعدا محاسنه العلمية القيمة، فانه يُعدّ من حيث حسن طبعه تحفة فنية، بديعة، لا سيما وقد اشتبكت فيه مختلف الحروف الفرنسية والعربية والسريانية مما يستدعي كثيرًا من العناية والدقة وتستحق عليه المطبعة الكاثوليكية التي تولت طبعه غاية الشكر والثناء. فنشكر للاب العالم هديته الرائعة وندعو له بأيد الله لمتابعة جهوده في خدمة الكنيسة بواسطة ابحاثه القيمة وعلومه الواسعة.

شذرات

بيان حنيف

وردنا من حضرة الاب صاحب التوقيع ما يلي :

جاء في الكتاب المدعو « دلائل العناية الصمدانية في ترجمة السعيد الذكر البطريرك الحويك » ، الصادر من مطبعة المرسلين اللبنانيين في جونية ، بقلم الخوري ابراهيم حرفوش ، عبارة غير مطابقة للحقيقة ، عند تكلمه عن ادارة الآباء اللعازريين للمدرسة المارونية الرومانية في سنة ١٩٠٥ ، وهي الآتية ، في صفحة ٣٧٨ ، قال :

« غير ان الآمال المعقودة على هذا التغيير لم تأتِ بالنتيجة المرغوبة . فان البطريرك على اثر زيارته رومية سنة ١٩٠٥ اقال الآباء اللعازريين من هذه الادارة . . . »

فنقول : ان المدرسة كانت سائرة سيرها الطبيعي ، والمجمع المقدس كان مسرورًا منها ، فضلًا عن رؤسائها . فلا نعرف الى اي شيء استند الخوري ابراهيم حتى قال : « ان الآمال المعقودة لم تأتِ بالنتيجة . »

اما قوله : « ان البطريرك اقال الآباء اللعازريين » فهو غلط ، لان البطريرك لم يكن قادرًا على اقالتهم . اذ انَّ تعيينهم لهذه الوظيفة لم يكن منه ، بل من المجمع المقدس بارادة خاصة من البابا نفسه . والآباء اللعازريون استقالوا من تلقاء نفوسهم لاسباب صوابية ، فاضطرَّ المجمع المقدس ان يقبل استقالتهم لظروف عارضة آنئذٍ .

فحبًا للحقيقة التاريخية ، وازالةً للاشتباه الصادر من كلام الخوري ابراهيم حرفوش ، اتينا نرجو نشر كلمتنا هذه في مجلتكم « المشرق » الغراء ، مع اسداء الشكر سلفًا .

طرابلس ، في ١٨ تموز ١٩٣٦

الاب يوسف علوان
اللعازري

جريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري

عود على بدء

تكرَّم حضرة الخوري قسطنطين الباشا بالردّ على ملاحظتنا السابقة وقد كنّا نودّ ان نتزل عند رغبته فترضى بالجواب. ولكن انّى لنا ذلك، وحضرته قد نسي في ايضاحه الكثير من اقواله في مقدمته المعهودة، واهمل الكثير مما ورد في ملاحظتنا. فنستسمح القرّاء عذرًا لنعود بحضرته الى صلب موضوعنا، فنراه نقطةً نقطةً.

١ قال حضرته في مقدمته لجريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري» ما يلي حرفيًا عن الامير يوسف: «انه احدث انقلاباً مهماً في طبقات سكان هذه البلاد (بلاد جبيل والبترون) بان اقطع عدة قرى لذوي الزعامة الذين اعانوه على قتال بني حماده. فانه جعلهم برتبة المشايخ، واقطع لهم الاقطاعات الكافية.»[1] ويُفهم من كلامه هذا ان العائلات التي عدّدها ليست فقط من المشايخ، بل انها من كبار المشايخ اصحاب الاقطاع.

فاستغربنا صدور مثل هـذا التصريح من مؤرخ معروف كحضرة الخوري قسطنطين، وابدينا استغرابنا في سؤال طرحناه عليه، واحببنا ان يأتينا بجواب منيد، فقلنا: «ان التقاليد المشهورة التي تؤيدها التواريخ الصحيحة لا تعرف في لبنان الشهابي الّا بضع عائلات اقطاعية ذكر شيئاً عنها العينطوريني واورد الشدياق اخبارها مفصلة ... فاذا كان الناشر الكريم قد اكتشف اكتشافاً جديداً يسمح له بهذا الإكثار في تعداد ذوي الاقطاع فليتفضل ويرشدنا الى مصادره»[2].

وكان من حقنا ان ننتظر من الخوري قسطنطين امّا شرحاً مختلفاً عن شرحنا للنصوص التاريخية يُثبت قوله ويُبطل اعتراضنا، وإمّا اصولاً جديدة نجهلها واعتمد عليها حضرته في مقاله.

---

١) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٣٢٤

٢) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٦١٢

فأجاب حضرته : « اخذ عليّ اني اكثرت من المشايخ في لبنان بمن ذكرت منهم هناك غيرةً منه على شرف هذه الرتبة في اهله محتجاً بأن ليس لهم كلهم ذكر في تاريخ أعيان لبنان »[١].

ويرى القرّاء من جملتنا التي اوردناها اعلاه انّنا اخذنا على الخوري قسطنطين، ليس إكثاره من المشايخ ايّاً كانوا، وانما إكثاره من المشايخ ذوي الاقطاع دون سواهم . وأردف قائلاً عن تاريخ الاعيان : « لم يذكر صاحبه فيه من الاعيان الّا من وردت اليه اخبارهم من اهلهم كما يظهر هذا من كلامه في صفحة ٢٠٠ من كتابه »[٢] .

امّا كلام الشدياق الحقيقي فهذا هو : « واعلم اني لم استوفِ الكلام في نسبة بعض الأعيان لأني لم اجد في كتب الاقدمين الّا ما ذكرتهُ عنهم . وهذا هو احتجاجي لدى الذين لم ادخل نسبتهم في هذا المؤلف »[٣] . . .

ثم تابع حضرته سلسلته الكريمة فاضاف الى العائلات التسع التي ذكرها في مقاله الاول احدى عشرة عائلة جديدة ـــ ما خلا العائلات الاربع عشرة التي ذكرناها نقلاً عن الشدياق[٤] . ولم ينسَ ان يؤكد انهم « لا محالة اكثر من ذلك »[٥] .

---

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢١

٢) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢١

٣) اخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص ٢٠٠ — ويا للعجب كيف تحوّلت « كتب الاقدمين » عند الشدياق الى « اهل الاعيان » عند حضرة الخوري قسطنطين ! ولعلّ هذا التفسير جعله يقول في مكان آخر : « ان كاتب الفصل الخاص بتاريخ بني الدحداح هو من كبار مشائخهم » . . .

٤) قال حضرته انه يعدّ للطبع « اصح واتمّ ما كُتب في بيان نظام لبنان الاقطاعي » ، رسالةً لناصيف اليازجي منذ سنة ١٨٣٣ . وهذه الرسالة مطبوعة في مجلة « الهلال » (١٣ : ص ٥١٢) . وقد ذكر اليازجي العائلات الاقطاعية كما وردت عند الشدياق ، ولم يختلف الاثنان الّا فيما يلي :

١ً ذكر اليازجي بني الخوري صالح بين العائلات الثنوية اي النبر الاقطاعية خلافاً للشدياق الذي عدّهم من الاقطاعيين .

٢ً ذكر اليازجي بين الاقطاعيين بني العيد وهؤلاء لم يروِ اخبارهم الشدياق .

٥) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢١

وكنا نقرأ حتى الآن ايضاح حضرته بشوق عظيم الى مصادره وقد اغنته عن الاعتماد على الشدياق، فاذا به يقول:

« فان كان حضرة الشيخ الكريم يضنّ على المذكورين بلقب شيخ او يريد ان يجعلهم ادنى رتبة في المقام من بيت الدحداح او بمقام شيخ ضيعة فالامر بذلك بينه وبين احفادهم »[1].

فكان اندهالنا عظيماً، ولا نظن قراء حضرة المؤرخ الّا شركاء لنا في الانذهال! اذًا أيسمح الخوري قسطنطين لنفسه بتوزيع الالقاب والمراتب التاريخية، ثم، عندما نسأله عن مستنداته، يتملص من البرهان ويحيلنا الى احفاد مَن الصق بهم تلك الالقاب، طالباً اليهم الدفاع عن اقواله في اجدادهم؟

انها طريقة في التاريخ غريبة كانت تكفينا مؤونة الجدال مع حضرته، لو لم يكن له احترام في نفسنا يجعلنا نعتقد الاعتقاد الكلي ان عبارته لم تعبّر تماماً عن فكرته الحقيقية.

ان هذا الاعتقاد حملنا على البحث عمّا قد نشتمّ منه رائحة البرهان في مقاله. فوجدنا هذين القولين:

اولاً: « وحسبي ان اقول له اني اعلم العلم اليقين مثلاً ان المشايخ من بيت ابي طربيه في تنورين ما كانوا يتزاوجون من نحو ستين سنة واكثر الّا مع بيت الخازن وبيت ابي صعب وبيت الظاهر. ومن هم بمقامهم »[2]. قلنا: وكأنّ حضرته، بدلاً من ان يبرهن على صحة اقواله في اقطاعية العائلات المشرين، اكتفى « بعلمه اليقين » عن مزاويج اسرة واحدة. وليست قضية الزواج لتدل على وجود رتبة الاقطاعيين عند عائلة ما.

وثانياً: « والدليل على ان من ذكرت هم من كبار المشايخ سعة املاكهم التي اقطعها لهم الامير يوسف في بلاد جبيل والبترون »[3].

---

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٣
٢) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٢
٣) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٤

وغنيٌ عن البيان ان سمة الاملاك لا تفيد شيئاً ثابتاً. فان الامير الحاكم كان يهب الكثير لجميع الناس من اقطاعيين وغير اقطاعيين وغير مشايخ. وهل املاك الرهبان، وهي من هبات الحكّام، دليل على انهم كانوا اصحاب مقاطعات يحكمونها بالوراثة؟

٢ً احببنا ان ينظر معنا حضرته في التناقض الواقع بين قوله المنقول عن الشدياق ان الامير يوسف كتب «الاخ العزيز» الى الشيخ سعد الخوري، وبين قول الامير يوسف نفسه: «عزيزنا الشيخ سعد الخوري»[١]. فأجاب[٢]:

«ان الشيخ سعد الخوري كان اقرب المقرّبين الى الامير يوسف وفوق الجميع لا لكونه كاخيه فقط بل لكونه مربّيهُ»[٣].

لا ندري ما هي العلاقة بين محبّة الامير يوسف لمربّيه وبين قولنا. والمعلوم ان الحكّام اللبنانيين كانوا يتخذون لهم مدبّرين من جميع الطبقات. فان الامير بشيراً الكبير مثلاً قد اتخذ ستة مدبّرين معروفين[٤]. وكان اثنان منهم من العامة وهما فارس ناصيف وجدعون الترك، وواحدٌ من المشايخ التنوبين هو الشيخ نجم العقيلي، واثنان من المشايخ الاقطاعيين هما الشيخان سلّوم ومنصور الدحداح، وواحد من الغرباء عن لبنان هو بطرس كرامه، كاتب الامير امين بشير ورفيقه.

٣ً سألنا حضرته سؤالاً واضحاً عمّا «يثبت قوله ان الامير يوسف كتب الى الشيخ سمعان البيطار «الاخ العزيز»[٥]، مع علمنا ان الامير يوسف شيّخ المذكور على البترون، وذلك لانه لم يكن جميع المشايخ، حتى الاقطاعيين[٦]

---

١) سلسلة بطاركة الطائفة المارونية، طبعة الشرتوني، ص ٧٤

٢) ظنّ حضرته اننا نريد ان نقابل بين بني الدحداح وبعض العائلات. وحاشا ان نخوض هذه المواضيع الصبيانية.

٣) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٢

٤) المشرق ٢٢ [١٩٢٤] ٥٧١

٥) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٦١٤

٦) كبني العازار اصحاب الكورة وكان يكتب اليهم الحاكم «عزيزنا» فقط (اليازجي: الهلال ١٣ ص ٥١٦).

منهم ، من رتبة « الاخ العزيز ».

فقال اننا سألناه عمّا « يثبت قوله ان الامير يوسف جعل سمعان البيطار شيخاً »[1]، والفرق بين الامرين ظاهر. وراح يستشهد بالمرحوم والدنا لانه قال في احدى مقالاته: « الشيخين منصور الدحداح وسمعان البيطار»، ثم بالشدياق. فأورد النصّ التالي: « فتولى الامير يوسف المقاطعات المذكورة وجعل منصور يوسف الدحداح شيخاً على بلاد جبيل وكتب له صكًّا بذلك برسم عهدة. وسلّم سمعان البيطار مقاطعة البترون وشيَّخه عليها وعمرَّها »[2].

فنقول اولًا ان قولَي الشدياق والمرحوم والدنا لا يفيان بالمراد لاننا لم نشك بمشيخة البيطار على البترون ، بل سألنا عن رتبة « الاخ العزيز ».

ثم نعود الى نصّ الشدياق الوارد اعلاه فنراه يحوي امرين: مشيخة منصور الدحداح من قِبَل الامير يوسف على بلاد جبيل ، ومشيخة سمعان البيطار من قِبَل الامير ذاته على البترون . فكيف استند اليه حضرته للقول في مقدمته:

« وكان الامير الكبير الحاكم اذا اختار رجلًا من لبنان لتدبير اموره من غير المشايخ او كاخيةً له رقاه الى رتبة المشايخ وصار يكتب له « الاخ العزيز » واقطعه بعض الضيع كما فعل الامير يوسف ... مع سمعان البيطار ، وكما فعل الامير بشير مع بني الدحداح... »[3] ؟

أيجوز ان نستعمل القسم الاخير من النصّ لنبرهن على امر ما ، وان نهمل، بل نناقض القسم الاول منه لأنه لا يروقنا ؟ أهذا هو الانصاف العلمي الواجبة سيطرته على جميع ابحاث المؤرخين ؟

ونستغرب ايضاً توسّع حضرته هنا في الكلام عن ظلم الحكّام المتاولة للنصارى ، وعن عدم امكان هؤلاء الحكّام ان يكتبوا « الاخ العزيز » لرجل

---

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٢
٢) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٤ ؛ واخبار الاعيان ص ١١٣
٣) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٢٢٤

مسيحي[١]. . وحضرته يعلم ان كتابة « الاخ العزيز » عادة درج عليها الحكّام الشهابيون دون سواهم . اما مقـام بني الدحداح من الحكّام المتاولة فاننـا نكتفي الآن لوصفه بما ورد في تلك المخطوطة التي كان حضرته يتلذّذ بقراءتها وهو صغير[٢] ، اي مخطوطة العينطوريني ، وقد جاء فيها عن الشيخ يوسف الدحداح انه « توجه الى بلاد بعلبك فصـار يازجي عند بيت الحرفوش مدة . وبعده رجع الى بلاد جبيل وتقدم عند الشيخ اسمعيل حمادي وسلّمه كل شيء بيده »[٣]. ولم يكن الشيخ اسماعيل المذكور بأقـل شأناً من معاصريه الاميرين بشير الاول وحيدر الشهابيّين ، فان المؤرخ عينه يقول انه « اشتدّ بأسه في كامل المقاطعات . وصارت تهابه كافّة حكّامها . وباقي امره نافذ الى حدّ حلب لخوف الناس منه »[٤].

فاقوال العينطوريني هذه ، ونصّ الشدياق الذي اورده مناظرنا الكريم ، تدلّ دلالةً واضحة على بطـلان زعمه في ما سبق ان « الامير بشير رقّى بني الدحداح الى رتبة المشايخ . . . واقطعهم بعض الضيع ».

امّا النصّ الذي استشهد به حضرته لانه يقول ان الشيخ سمعان البيطـار كان معتمد الديوس عند الامير يوسف، وان الشيخ ظاهر الدحداح كان يازجي الامير[٥]، فيدلّ على ان ظاهرًا المذكور كان شيخاً فلم « يرفع » الامير بشير اذًا بني الدحداح الى هذا المقام . . .

٥° بقيت قضية « المعلّم » . يصرّ حضرته على ان الامير الكبير كان ينح هذا اللقب لمدبّريه النرباء عن لبنـان . ولمّا سألناه رأيه في المعلّمين الياس اده ونقولا الترك اللبنانيين اجاب : « ولا يخرج من هذا الحكم المعلم نقولا الترك شاعر الامير ، اذ هو اسطنبولي الاصـل كما يدلّ على ذلك لقبه « الترك » .

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٣
٢) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٤
٣) مخطوطة المكتبة الشرقية 47°n ص٢٦ ؛ والمشرق ٤ [١٩٠١] ٨٢٦
٤) مخطوطة المكتبة الشرقية 47°n ص ٢٢ ؛ والمشرق ٤ [١٩٠١] ٨٢٤
٥) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٤

وكذلك المعلم الياس ادّي (كذا بالحرف الاخير) كاتب الامير فانه بيروتي الاصل . »[1].

لنكن صريحين ولنتّفق على احد امرين لا مناص من الاختيار بينهما : إمّا ان يكفي اسم المكان للدلالة على اصل حامله ، وامّا ان لا يكفي للدلالة عليه . فاذا كان يدل على شيء يجب ان نطبقه على الرجلين معاً لا على الواحد دون الآخر . يقول حضرته ان اسم « الترك » يدل على اصله الاسطنبولي . فلماذا لا يريد ان يدل اسم « ادّه » على اصله وهي قرية في بلاد جبيل ؟ ولا سيما ان المعلم الياس مولود في تلك القرية[2].

واذا كان اسم المكان لا يدل على شيء، واذا كان ينبغي ان ننظر الى موطن الرجل في مولده وحياته ، فلماذا يضنّ حضرته باللبنانية على نقولا الترك وهو قد ولد ومات في دير القمر وعاش في بلاط الامير[3] ؟

وفي كل حال ، لنفترض جدلاً ان جميع من سُمّوا « معلمين » كانوا غرباء عن لبنان فماذا يفيد ذلك ؟ لماذا حتّم حضرته على الامير الحاكم ان يمنح هذا اللقب وان توازي « رتبة » المعلم رتبة الشيخ ؟ اجل ، كنا نودّ لو ان حضرته لم ينسَ في هذه المرة ايضاً المصادر ، وهي يجب ان تكون الحكَم الفصل في مثل هذه الشؤون .

وفي الاخير نؤكد لحضرة الخوري قسطنطين الباشا اننا لم نسأله سؤالاً واحداً « للتعجيز » كما ظن ، ولا انتقدنا « غيرة منا على شرف الرتبة في اهلنا »[4] بل اضطررنا مكرهين الى ابداء ملاحظتنا غيرةً منا على الحقيقة التاريخية ، وقد كثر مشوّهوها في لبنان. نجيب سليم الدحداح

١) المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ١٢٥ — ويظهر ان حضرته اجاب بعجلة كما ترى من كتابته « اده » بالياء وكما يظهر من جملته هذه : « في الوقت الذي كان فيها المشايخ بيت الهاشم من العاديين » ولا معنى لها لأن العاديين فرع من بيت الهاشم .

٢) المشرق ٢ [١٨٩٩] ٦٦٤

٣) تاريخ الآداب العربية للاب شيخو ؛ الجزء الاول : ٢٢

٤) ومن رأينا ان تُلغى جميع الالقاب لأنه لم يبقَ لها ادنى معنىً . امّا فائدتها التاريخية ففي امكان طالبيها ان يبحثوا عنها في كتب التاريخ الصحيحة .

مطبوعات شرقية جديدة

P. Dr Christophorus Berutti, O. P., **Institutiones Juris Canonici.** Vol. I, Normae generales. In-8°, 180 pp., Torino, Marietti, 1935. Prix : Lib. ital. 12.

اصول الحق القانوني

في الوقت الذي تجتمع فيه لجنة خاصة من موفدي الطوائف الشرقية في رومة ، فتهتمّ باعداد مجلّة الحقّ القانوني الشرقي ، وفي الزمن الذي يُتوقّع فيه تحقق هذا المشروع الخطير ، يسرّ جميع الكهنة ان يطلعوا على كل شرح جديد للحقّ القانوني في الكنيسة الرومانية ، فيدرسوه ويستعينوا به لدى ظهور المجلّة الشرقية . وذلك انه ، وان يكن للحق القانوني الشرقي شيء من الاستقلال المقرّر بارادة الحبر الاعظم نفسه ، فهو لا يبعد عمليًّا عن الحقّ القانوني الروماني لما هناك من وحدة المبادئ بين الحقّين ، ووحدة الاصول وهي قرارات المجامع القديمة ، ووحدة الاختبار الذي استفاد منه الجميع مدة تسعة عشر قرناً . ولهذا نرى جديرًا بالذكر تأليف الاب بروتي ، وقد اصدر منه الجزء الاول باحثاً فيه الكتاب الاول من مجموعة « القوانين العامة » ، متصفاً بالوضوح والايجاز ، مستفيدًا من جميع التآليف السابقة ، عارضاً عرضاً تامًّا كل ما تضمّنته القوانين الـ ٨٦ الاولى من المجموعة ، وهي اشهر القوانين في الشرائع الكنسية .

ي . م .

P. Matthaeus Conte a Coronata, O. M. C., **Institutiones Juris Canonici ad usum utriusque cleri et scolarum.** Vol. IV, De Delictis et Poenis. In-8°, 680 pp., Torino, Marietti, 1935. Prix : Lib. ital. 30.

في الحق القانوني

هو المجلّد الرابع من تأليف الاب آ كورونانا خصّه بدرس الجرائم والعقوبات في الشرائع الكنسية ، وهي مادّة الكتاب الخامس من مجموعة الحق القانوني ، وما يقابل « قانون الجزاء » في الحكومات العصرية ، على فرق ان

في الحقّ القانوني لا مجال للكلام عن عقوبة السجن ، ولا عن عقوبة الإعدام ، كما انه لا مجال للبحث عن السرقة ولا عن القتل . انما هناك عقوبات كنسيّة كالحرم ، والقطع ، والتوقيف ... تنزلها السلطة الدينية بمن ينتهك شرائع الكنيسة المهمّة .

ولما كان هذا القسم من الحقّ القانوني اصعب الاقسام واقلّها حظًا بالشرح والايضاح ، كان عمل الأب المؤلّف جزيل الفائدة لوضوحه ، وشموله جميع هذه الشرائع المتعلّقة مباشرةً بمصالح الاكليروس والرعية . واذًا فلا نشكّ بمنفعة كتابه لا للطلّاب فقط ، بل للكهنة واساتذة الحقّ القانوني انفسهم .

ي . م .

R. Lortal, P. S. S., Morale sociale générale. Eléments de théologie morale sociale, I. In-8°, 203 pp. Paris, P. Téqui, 1935. Prix : 3 fr. 16.

في اللاهوت الادبي الاجتماعي

كان مؤلّف الكتاب ، وهو من كهنة سان سولبيس ، واستاذ في اكليريكية اثينيون العالية ، قد القى سنة ١٩٣٣–١٩٣٤ ، دروسًا في اللاهوت الادبي الاجتماعي العام . فاعاد فيها النظر ، ونشرها في هذا المجلّد جزءًا أول ، بادئًا بمقدّمة في ماهية الموضوع ، واقسامه ، واصوله ، وتاريخه ، وطرق درسه ، واهميته ، منتقلًا الى درس الهيئة الاجتماعية ، وما تتضمن من جماعات وطبقات ، مدققًا في تحليل الفضائل الاجتماعية ، خاتمًا بلحق في الدور الاجتماعي لمواهب الروح القدس ، وفي العدالة الموزّعة في المجتمع .

ولا يخفى ما في الموضوع من جدّة ، وما كان للمؤلّف من فضل في جميع عناصر بحثه وترتيبها . بيدَ انه ، وان يكن هذا اللاهوت الادبي الاجتماعي غير معروف كوحدة علمية حتى اليوم ، فان مظاهره كانت منتشرة في المعاملات البشرية ، وهو ما يُعرف عن كثير من المعلومات الجديدة أن تكون جارية في مجال التطبيق ، قبل ان تتمركز عناصرها في وحدة العلم النظري .

ج . ل .

Fr.-X. Kortleitner, **Religio a patriarchis Israelitarum exercitata.** In-8°, VII+184 pp. Œniponte, Libraria societatis Marianae, 1936.

ديانة آباء اسرائيل

يتابع حضرة الاب كورتليتنر نشر دروسه الكتابيـــة التي باشرها منذ السنة ١٩٠٨ ؛ وقد كان لنا ان نشير اليها ، غير مرة ، على صفحات المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٣٠٠ ؛ ٢٨ [١٩٣٠] ٤٧١ ؛ ٣٠ [١٩٣٢] ٤٧٦ ؛ ٣١ [١٩٣٣] ١٥٠ ، ٩٥١ ؛ ٣٣ [١٩٣٥] ٤٤٩ ؛ ٣٤ [١٩٣٦] ١٣١) وهو ينشرها باللغة اللاتينية ، فيسهل الاستفادة منها على جميع اساتـذة وطلاب الاكليريكيات الكاثوليكية في العالم . وهي ميزة جديرة بالمدح ، وفضل لا ينكر للمؤلف ، ولا سيما اذا ذكرنا ان عدد كتبه يبلغ العشرين بـين كراس صغير ، ومجلد ضخم كذلك الذي خصه بعلم الآثار الكتابية ، بالغاً به ، في طبعته الثانية ، ٨٢٥ صفحة مزينة بالرسوم . ولا يسعنا الا الاعجاب بهـذا الدأب المتواصل ، والاغتباط بان يكون لطلاب المعاهد الاكليريكية من يخص حياته بنشر المعلومات الصحيحة في جميع العلوم التاريخية والعنصرية والاثرية المتعلقة بالكتاب المقدس ، وذلك على افضل ما يمكن من دقة وتجرد واخلاص نحن في اشد حاجة اليها في عصرنا الحاضر . حتى امكننا ان نلقب الاب كورتليتنر بـ « ڤيگورو » النمسا ، ولا غرو فهو اقدر علمائها بشؤون الكتاب المقدس .

هذا ، وقد رمى في المجلد الحاضر الى البرهان أن دين الاسرائيليين الذي اقره موسى ونشره انبياء القرن الثامن هو الدين نفسه الذي كان يقوم بشعائره ابراهيم عندما ترك ، مع قومه ، بلاد ما بين النهرين . ولا يخفى ان ارباب المذهب العقلي يجمعون على نفي هذه الموافقة بين الدينين ، زاعمين ان ابراهيم كان من عبدة الاوثان ، قائلين بان ابناءه وخلفاءه تركوا الآثار الناطقة في هذا الموضوع ، وان من اتى بعدهم حولوهـا وقربوها من « التوحيد » . اما الاب كورتليتنر فيـدافع عن الرأي الكاثوليكي ، متتبعاً خطوة خطوةً تآليف المناقضين ، هادماً نظرياتهم واحدةً واحدةً ، متصلاً بكل الدقائق الضرورية

لفهم تلك النظريات ، باسطاً للاساتذة والطلاب كل ما يحتاجون اليه من معرفة آراء القوم في تاريخية الحوادث المذكورة ، ومن حملاتهم على الكتاب المقدس ، حتى انهم يستغنون عن مطالعة كتبهم بالاعتماد على هذا المجلد المفيد في بلادنا الشرقية خاصةً ، وليس فيها من يقرأ الالمانية بسهولة . ولذا يجدر بكل من يهتمّ بالشؤون الكتابية من رجال الاكليروس ان يضعوا هذا المجلد النفيس على مكاتب علمهم : س. ر.

A.-G. Barrois, O. P., Précis d'archéologie biblique [*Bibliothèque catholique des Sciences religieuses*]. In-12, 202 pp., Paris, Bloud et Gay, 1935.

موجز في علم الآثار الكتابية

ان « المكتبة الكاثوليكية للعلوم الدينية » — وهي التي انشأها مكتب النشر الباريسي « بلو وگاي » والتي تجاوزت منشوراتها مائة مجلد معروف كلها في الشرق — تعتني اليوم بمؤلَّف جديد كان من الضرورة ان تنشره ، وهو موجز في علم الآثار الكتابية للاب باروا ، احد علماء الدومنيكيين الشبان ، من المعهد الاختصاصي في اورشليم ، ومن بيئة « المجلة الكتابية » . واذا ذكرنا انه قضى عدة سنوات متتابعة في بلاد الشرق ، قائماً بالرحلات في فلسطين ، مطلعاً على حالة الحفريات المختلفة ، بل مباشراً بعضها بنفسه ، تحت ادارة العالم بالاشوريات الاستاذ تورو دانجن (Thureau-Dangin) ، وذلك في النيرب ، قرب حلب ، وفي تل الاحمر في سورية العليا ؛ اذا ذكرنا ذلك فاننا نشير الى توفّق مكتب النشر المذكور في اختياره عالماً من خيرة من يكتبون في هذا الموضوع . وهو ما يشعر به مطالع الكتاب فيتحقق ان للمؤلف اختبارَ معلّمي الشؤون الكتابية ، وهو مدرسها دون شك في معهد رهبانيته حيث دخل فجأة منذ بضع سنوات .

ومهما يكن من امر فان للمؤلف مقدرة الايجاز . فهو يجمع الكثير من المعلومات في القليل من الالفاظ ، مقدماً لاستاذ العلوم الكتابية نصاً لا مندوحة له عن توسيعه في دروسه . يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة في اسلوب البحث ،

والتحريات العلمية ، وطريقة التوقيت العام . ثم ينتقل الى درس الحياة البدوية، وهي اول مظاهر معيشة الاسرائيليين ، متبسطاً في ارتياد المناطق الفلسطينية المهنة ، ذاكرًا بعض المصادر، محيلاً المطالع الى « المجلة الكتابية » وقد ظهرت فيها ملخصات عن اعمال الحفريات ونتائجها . تأتي بعد ذلك فصول في وصف المدن الفلسطينية القديمة ، والمقابر والمشاهد المدفنية ، وفي ذكر الحركة الزراعية والصناعية بما فيها من حرف مختلفة خزفية ، ومعدنية ، ونسجية ، ومهن حرّة ، وفنون ؛ يلحق بها فصل في المقاييس والموازين والنقود ، والتجارة . هذا ملخص القسم الاول . وهناك قسم ثانٍ يشمل درس الهيئة الاجتماعية : الاسرة ، والقبيلة ، والمملكة ، والحقوق والحروب ، والديانات : ديانات الكنعانيين وهياكلها . . . ثم ديانة اسرائيل من موسى حتى نشأة البدع ، والكنيس . . .

هذا ، ولا يمكن القول ان المطالع يخرج راضياً على اقسام الكتاب جميعها . وذلك ان من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يُضمّن مجلد صغير كهذا علم الآثار الكتابية . فلا بدّ اذًا من مدرّس يستعين به من يرغب في التعمق بهذا العلم ، فيشرح له الكتاب ويتبسط في بعض اقسامه . على ان اظهر ما يمكن توجيهه من نقد للكتاب المذكور هو ما يتعلق بالصور والرسوم . وذلك اننا لا نتصوّر في ايامنا هذه ان يؤلف كتاب ، مهما كان موجزًا مختصرًا ، في علم الآثار القديمة ، دون ان يحفل بعدد من الرسوم والالواح التصويرية . وهو نقد قد يصيب الناشر اكثر من اصابته المؤلف . ومهما يكن من امر، فاننا نرجو ان تسدّ الطبعة الثانية هذه الثلمة ، وان دُفع الناشر الى رفع ثمن المجلد . س . ر .

LOUSSEAU ET COLLOMB, Manuel d'études bibliques. T. I. Introduction générale. In-8°,580 pp. Paris, Téqui, 1936. Prix: 30 fr.

كتاب تعليمي في الدروس الكتابية

هو آخر ما ظهر من تأليف لوسو وكولومب في الدروس الكتابية ، وان كان يمثل المجلد الاول من هذه المجموعة النفيسة . وفيه ما تحققناه في المنشورات المتقدّمة من وضوح في العرض ، ورصانة في العقيدة ، وسعة في المعلومات حتى

احدثها في تقدّم الدروس الكتابية . وقد خصّ القسم الاول بدرس الوحي ، وهو بحث مستفيض لا شكّ في انه من قلم الاستاذ لوسّو ، وله في الموضوع اطروحة مهمّة . يلي ذلك بحث في درس النصوص الاصلية ، واهم الفروق المتعلّقة بنصوص الكتاب المقدّس . ثم بحث ثالث في درس معاني الكتاب ، ونقد النصوص ، وقواعد التأويل . وكل هذه الابحاث متسمة واضحة على الغالب . على ان هنـاك نقاطاً نودّ ان يُعتنى بها مزيد عناية ، فنرى بضع صفحات تُخصّ بتاريخ التفسير ، وعرضاً اوضح وادق لفئات المخطوطات (ص ٥٢٩—٥٣١) . فان مبادئ كانتن (Dom Quentin) المقرّرة في احدى طبعات العهد القديم في ترجمته العامّة ، لا علاقة لها بتحقّقات ڤستكوت (Westcott) وفون سودن (Von Soden) وستريتر (Streeter) المختصّة بالاناجيل . ب . م .

J. Prado, Propaedeutica biblica sive introductio in universam Scripturam. In- 8°, XVI + 416 pp. Torino, Marietti. Prix : Lib. ital. 30.

في الدروس الكتابية

يؤلف هذا المجلّد حلقة من سلسلة « الشروح الكتابية » التي يديرها الاب سيمون من آباء الفداء . وان طبعته الثانية لدليل على ما لاقاه من الرواج في المعاهد الاكليريكية الكاثوليكية . وانه لرواج يستحقّه لدقة نصوصه ، ووفرة مصادره ، واتقان فهارسه ، وصوره . ج . ل .

Giuseppe Furlani, Il primo Libro dei Primi Analitici di Aristotele nella versione syriaca di Giorgio delle Nazioni. [*Publication de l'Académie dei Lincei*, série VI, vol. V, fasc. III, année CCCXXXII — 1935]. In-4°, 88 pp. Rome, Bardi, 1935.

الكتاب الاوّل من التحليلات (أنالوطيقا) الاولى لارسطو في ترجمة السريانية

لا يخفى ما للترجمات السريانية من اهمية في تاريخ الفلسفة اليونانية وانتشارها بين الشعوب الشرقية ، ومن فضل في مساعدتنا على فهم النصّ اليوناني الاصلي ، وقد ساء حفظهُ احياناً . هذا ما اهاب بالمستشرق الفاضل فورلاني ، من جامعة

فلورنسة ، الى نشر ترجمات ارسطو السريانية المجموعة في المخطوطة (Add. 14659)
وهي من قلم الاسقف اليعقوبي جرجس المنسوب الى الأمم او الى العرب .
وانّ هذه الترجمة لتزداد قيمةً اذا ما عرفنا ان المترجم توفي في السنة ٧٢٤ ،
اي قبل ازدهار الترجمات العربية . اما النشر فجميل بارز بالحرف الاسطرنجلي
الجلي ، حافل بكثير من الحواشي المنقولة عن المخطوطة السريانية نفسها ، ويرى
الاستاذ فورلاني ان هذه الحواشي مترجمة ايضاً عن اليونانية .

ب . م .

Ritus pro ordinibus conferendis ex pontificali romano recognito ad utilitatem clericorum cum codice juris canonici collatus. In-32, 117 pp. Torino, Marietti. Prix : Lib. ital. 1.

رتب منح الدرجات المقدسة .

لقد نُشر على حدة هذا المختصر مقابلًا بالحق الكنسي في سبيل الاكليريكيين،
وجعل ثمنه زهيداً جداً .

Blasius Verghetti, **Joannis Ludovici Vives colloquia. Nova editio et emendatio.** In-8°, VIII + 200 pp. Torino, Marietti, 1934. Prix : Lib. ital. 5.

مناجيات ڤيڤس

وهذا ايضاً من المنشورات على حدة في طبعة سهلة مفيدة بسعة انتشارها .
وقد كان مؤلّفه كتبه لفائدة من اصبح في ما بعد فيليب الثاني . وما ان
فائدته تتجاوز الى الكثير من القرّاء بما فيه من آراء صائبة، ولغة لاتينية راقية .

Le Vénérable Louis Blosius, **Speculum monachorum.** In-16, 86 pp. Torino, Marietti. Prix : Lib. ital. 2.

مرآة الرهبان .

لهذا الكتاب شهرة واسعة جازت القرون حتى يومنا هذا . فرأى مكتب
ماريتي ان يسهّل على ابناء العصر الاغتباط بهذه الطريقة السهلة البسيطة في نوال
السلام الداخلي والوصول الى الله ، فكان له ما شاء بطبعة الكتاب الجميلة ،
وحجمه الموافق ، وثمنه الزهيد .

Carl Watzinger, **Denkmaeler Palaestinas**. Eine Einführung... II, Von der Herrschaft der Assyrer bis zur arabischen Proberung. In-8°, 169 pp., 15 fig. dans le texte et 82 en 40 planches à part. Hinrichs, 1935. Prix : 9 Marks.

الآثار الفلسطينية

الجزء الثاني : من تسلّط الاشوريين الى الفتح العربي

سبق لنا (٣٢ [١٩٣٤] ١٣٥) ان قدّمنا ، بكل سرور ، الجزء الاول من هذا الكتاب الذي دعاه المؤلف « بالآثار الفلسطينية » وقال عنه بتواضع انه « توطئة لدرس الأثريات في الاراضي المقدّسة » . وها اننا نسرّ كذلك بتقديم الجزء الثاني ، وهو اكبر من الاول حجماً واجمع رسوماً وصوراً ، مؤلفاً مع سابقه أثراً لا نبالغ اذا قلنا انه افضل ما يُعرَف في موضوعه ايجازاً وشمولاً لجميع ما جرى من تنقيبات في ارض فلسطين منذ القرن التاسع عشر الى اليوم . ولهذا نراه جديراً بان يوضع في ايدي كل من تهمّهم دروس الآثار الشرقية عامّة ، والكتابية خاصة ، يجدون فيه ملخّصاً لجميع المشاكل التي اثارتها ، او حلّتها، الحفريات والتنقيبات العلمية ، ويعينهم ، بما يعرضه من لوائح المصادر المبوبة في الموضوع ، على ان يكوّنوا فكرة معقولة مرتّبة في هذه الشؤون . ولمّا كان المؤلف من علماء الاثريات المحترفين ، وقد ساهم بنفسه في بعض الرحلات العلمية الى بلادنا ، لم يرضَ بالتقريب في الشرح ، بل تعمّق في جميع ابحاثه ، عارضاً امام المطالع كثيراً من مخطّطات المدن، ورسوم الآثار الحالية وما كانت عليه سابقاً . فليس لنا الّا ان نهنّئه باخلاص لعمله هذا المتّصف بالامانة والدقة ، كما نهنّئ الناشر لما اظهره من اتقان في الطبع والرسوم . س . ر .

Le Coran, Traduit par Ahmed Laïmèche et B. Ben Daoud. In-8°, 348 pp., Oran, Editions Heintz Frères.

ترجمة القرآن الى الفرنسوية

هي ترجمة عادية لا تأتي بالفائدة الكثيرة بعد ترجمة كازمرسكي وما يليها . ولاسيما ان المترجمَين لم يتكلّفا كتابة شيء عدا ترجمة النص ، فلا مقدمة تصف عملهما واسلوبهما ، ولا حواشي تحاول شيئاً من الايضاح والشرح . الّا انهما ختما

الكتاب بفهرسين : فهرس عادي للسور ، وفهرس آخر للسور مرتبة حسب تاريخ نزولها ، ولا نعلم الى اي مستند استندا في هذا الترتيب التاريخي !

ف . ا . ب .

Abu-Mansūr ʿAbd-Al-Kāhir ibn Ṭāhir al-Baghdādi, **Al-Fark Bain al-Firak.** Moslem Schisms and Sects. Part II. Translated from the Arabic with introduction and notes by Abraham S. Halkin. In-8°, XVIII + 261 pp., Tel-Aviv, 1935.

ترجمة « الفَرق بين الفِرَق » الى الانكليزية

يُقسم الكتاب الى قسمين : في الاول منها ذكرٌ لجميع البِدَع التي نشأت في الإسلام ، ولم تلبث ان انفصلت عنه بما اتصفت به عقائدها من المبالغات والانحرافات ، واكثرها تولي مؤسسيها ، او ائمتها ، شيئاً من الصفات الالوهية او الإلوهة بعينها . وقد خصّ صاحب الكتاب الباطنيّة وما اليها بنصيب وافر من البحث دلّ على خطر هذه الفِرَق في عصره . اما القسم الثاني فيشمل العقائد الاساسية في المعتقد السُنّي ، ومنها وجود السماوات السبع المتمايزة . وقد اضاف المترجم حواشي مهمّة مستفيضة لو جُمعت لعادلت المتن على اقل تقدير ، حتى اصبح المجلّد دائرة معارف تاريخية للبدع الاسلامية وما يتعلّق بها ، فدلّ على سعة اطلاع المترجم ، وما عاناه من التفتيش في المصادر العربية والاستشراقية ، وما استحقّه من ثناء لا يشاركه فيه الطابع الفلسطيني — والكتاب مطبوع في تل أبيب — لاهماله مراقبة العمل حتى طار كثير من الحروف ، وتكسّر كثير غيرها ، فصعبت القراءة في كتاب تزدحم فيه اسماء العَلَم ازدحاماً . ه . ل .

Joseph Schacht, **G. Bergstraesser's Grundzüge des islamischen Rechts.** [*Lehrbücher des Seminars für orientalischen Sprachen zu Berlin*, t. 35]. In-8°, 145 pp. Berlin et Leipzig, Verlag von Walter de Gruyter et C°, 1935.

في الفقه الاسلامي

توفي الاستاذ برگستراسر سنة ١٩٣٣، قبل ان ينجز كتابه هـذا في الفقه الاسلامي . وهو مجموعة دروس كان الفقيد قد القاها في السنة ١٩٢٨–١٩٢٩،

وكان يعدّ العدّة لنشرها في مجلّد خاص عند ما فاجأته المنية في الخامسة والاربعين من عمره. فكان له من صديقه الدكتور شخت، وسائر المعجبين به، خير القائمين على اثره، فتعهّدوه بالعناية حتى ظهر في هذا الكتاب متصفاً بما تتصف به موادّ التعاليم من دقّة ووضوح، مقسوماً الى اثني عشر فصلًا تبحث في موادّ الفقه جميعها من الاشخاص، الى الاشياء، الى الأسرة، الى الاجرام والعقوبات، الى الوصيّات والدعاوى ... حتى ينتهي بابحاث شاملة في قيمة الفقه الاسلامي وميزاته الفارقة، مختتماً بجدولين للكلمات الوضعية منها واحد باللغة العربية، مسهّلًا بذلك الفائدة لمن تهتمهم هذه الابحاث، وهم يتكاثرون يوماً عن يوم.

ج. ل.

Die Diwan der Hudailiten-Dichter. Herausgegeben und übersetzt von JOSEPH HELL. In-4°. XXVII + 112+١٢١ pp. Leipzig, Otto Harrassowitz, 1933.

الجزء الثاني من مجموعة اشعار الهُذليين

لقد نال الشعراء الهذليّون نصيباً وافراً من عناية الاستاذ يوسف هل، فخصّهم بجزءٍ اول نشر فيه قصائد ابي ذؤيب مع ترجمتها الى الالمانية سنة ١٩٢٦؛ وها انه يتوفّق الآن الى نشر هذه المجموعة الجديدة محتويةً على دواوين ساعدة ابن جُؤيّة، وابي خراش، والمتنخّل، وأسامة بن الحرث، متصفةً بما اتصف به الجزء الاول من حسن الضبط، ودقّة الطبع، واتقان الترتيب، ووفرة الحواشي. وقد ترجم الناشر اشعار المجموعة الى الالمانية، وقدّم عليها بحثاً مستفيضاً بلغته درس فيه ما استعان به من مخطوط على طبعته، مشيراً الى بعض ما ورد عن هؤلاء الشعراء في كتب الادب. وختم الترجمة بكثير من التعاليق والحواشي والروايات، كما انه ختم النص العربي بفهارس ثلاثة: لقوافي الاشعار وبحورها، ولاسماء الرجال والنساء والعشائر والاحياء، وللمواضع وما يُنسب اليها. اما موضوعات الديوان فلا تكاد تختلف عن المعروف من امثالها للجاهليين والمخضرمين كالغزل، والفخر، والرثاء، والهجو، ووصف بعض المشاهد البدوية كالقتال، وصيد حمار الوحش ايام الشتاء، واشتيار العسل، واختيال

الضبع حول القبور . يتخلل ذلك بعض الآراء الشخصية في الشيب والشيخوخة ، والنساء ... وعلى الجملة فالكتاب من خير المصادر للادب القديم ، وخير تتمة « لشرح اشعار الهذليين » الذي نشره كوسغارتن سنة ١٨٥٤ ؛ واذاً فلا غرو ان نشكر للاستاذ هل عنايته باضافته هذه الخدمة الجديدة للادب العربي .

ف . ا . ب .

Şari Mehemd Pasha-Naṣâ'iḥ ül-Vüzera ve'l-Ümera. **The Book of Counsel for Vizirs and Governors.** Turkish Text with Introduction, Translation and Notes, by Walter Livingston Wright. In-8°, 172+١٣٥ pp. London, Humphrey Milford, Oxford University Press. Princeton, Princeton University Press, 1935

نصائح الوزراء والامراء للدفتردار صارى محمد باشا.

في جامعة برنستون مؤسسة غايتها المساعدة المالية على درس تاريخ الامم القديمة والحديثة ، والبحث في علل سقوطها وانحطاطها ونموها واضمحلالها ؛ وما هذا الكتاب الا ثمرة من ثمار تلك المؤسسة التي قامت بنفقاته ، وعهدت بامره الى الاستاذ رَيت ، احد اساتذة التاريخ في الجامعة المذكورة ، ففتش عن مخطوطات الكتاب ، وطبعها لاول مرة في لغتها التركية ، مع الحواشي المأخوذة من المقابلة بين الاصول الخطية ونقلها الى اللغة الانكليزية ، فجاء كتابه حدثاً جديداً في نشر الآثار الشرقية عامة والتركية خاصة ، وهو ، بعد كتاب الاستاذ فيليب حتي الذي وصفناه سابقاً وعنوانه كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ ، الحلقة الثانية من منشورات جامعة برنستون .

لقد اتقن الاستاذ رَيت عمله ، واستحق الثناء على الجهاز العلمي الذي شفع به الكتاب ، من ذكره المراجع ، ووضعه الفهارس ، وتنقيبه على هوية المؤلف ، وتحليله الكتاب في فصوله العشرة وذيليه . شاء صارى محمد باشا ان يلتمس السبيل الى تجديد شباب الدولة العثمانية ، وقد طرأ عليها الهرم ، وادركت شيخوختها ادراكاً لم يشعر به الا القليلون . فأتى بما رآه مفيداً لاصلاح الدولة وتدرّج من النظر في اطوار واخلاق الصدر الاعظم ، الى الكلام على

احوال المناصب ومضرّات الارتشاء ، فامور الخزينة وديوان المالية ، فشؤون البكتاشية والعسكر الانكشاري ، فالعناية بالرعية وردّ المظالم ، فالنظر في حركة الاعداء وحماية الحدود ، فالوقاية من البخل والطمع والكبرياء ، فاقتناء الفضائل من الصدق وحسن الظن وترتيب امور الزعامة ، فغير ذلك من النصائح المفيدة للحكّام .

هذه المواد عالجها المؤلف معالجة داخلية كاحد رجالات تركية المتكلم عن شؤون بلاده ، فلا يلتفت الى المقابلة بينها وبين غيرها من البلاد . وله من تقلبه في الوظائف الخبرة في احوال تركية الادارية والمالية ، وهي في طور من اطوار انحطاطها السريع في اوائل القرن الثامن عشر . وكانت نهاية الباشا كنهاية الكثيرين من رجال السياسة العثمانيين . حُكم عليه بالاعدام ، وقتل سنة ١٧١٧ فمات ضحية الفتن والدسائس .

وقد قدّم الاستاذ رَيت على الكتاب درساً مطولاً حلّل فيه المواد ، ثم جمعها في فصول مرتبة زادت في قيمة الاصل ما يساعد على فهمه وحفظه واستغلال فوائده ، فكانت ديباجة تاريخية فلسفية اجتماعية سياسية موضوعها السلطان ، والصدر الاعظم ، والجيش الدائم والاقطاعي ، والخزينة ، ومساوئ الادارة . وختم بنظرات قيّمة رأينا ان نروي شيئاً منها ليكون القارئ على بيّنة من اسلوب الاستاذ ومقدرته ، وفي كلامه صفحة من تاريخ بلاد كانت بلادنا جزءاً منها . قال (ص ٥٥—٦٠) :

ـ كان لنظام الدولة العثمانية في القرن السادس عشر مفاعيل صالحة ملموسة ، ما لبثت ان وهنت مع الايام فتغيرت . واصبح البون شاسعاً ، في شؤون الدولة ، بين ما كانت عليه آنذاك وما صارت اليه في اوائل القرن الثامن عشر ، في عهد تولي صاري محمد باشا المناصب في الدوائر المالية .

كان العسكر الانكشاري ولم يزل صاحب القوة والبطش ، وكان مصاف الموظفين ورجالات الادارة في احوال لم تتغير ظاهراً . ولكن كان من البديهي ان وضع مقاليد الامر في ايدي جيش اصله من الرقيق اتقاء المخاطر يوقع الدولة بالمخاطر نفسها على يد ذلك الجيش ، فدبّ الخراب الى الدولة وأمست ، في بدء

القرن الثامن عشر ، في حالة تنذر بموت لا مناص منه.

على ان الدولة العثمانية لم تنقرض لساعتها ؛ فظلّت متحدرة الى السقوط ، مدة القرن الثامن عشر كله وهي على اساسها ونظامها المعهود في ايام عزها ، وقد تغير شيء من ذلك النظام في القرن التاسع عشر ، ولم يدنُ اجلها الا بعد مضيه الى العهد القريب منا . وكان ذلك التغير لا بد منه . واننا نريد ان ننظر اليه لا لكونه علامة السقوط ، ولكن لكونه حدثاً احدث اموراً خطيرة في فصل التطوّر السياسي.

تغيرت احوال السلطان ، فترك زمام الامر الى غيره ، وعاش في قصره ضمن نطاق اهل البلاط من متزلفين ومتخنثين وسراري. فاصبح ملكاً بالخيال، ومع ذلك فيده قابضة على مقاليد الملك .. واذا ما صدرت ارادة سنية ، لم يُعرف اكانت تلك ارادة السلطان ام ارادة احدى الجلائق السافلة المفسودة ؟ وما ادراك بما تحويه اسرار السرايا ؟ ولكن من الاكيد ان لتلك الارادة كان ردّ فعل خطير في شؤون الملك ، فهي تعزل وتنصب ، وتحيي وتميت.

اما حاشية السلطان من نسوة وخصيان فكان يحيطهم مغلقاً كحيطه ، يوحون اليه مشاريع ومراسيم ليست منهم ، ولكن من غيرهم ، من ذوي النيات السيئة ؛ والحرم السلطاني انما هو آلة يديرها محرك من الخارج . اما اهل البلاط فهم اداة الوصل بين السرايا في الداخل والحكومة في الخارج.

ومن هم اهل البلاط ؟ هم اعضاء الطبقة التي كانت مؤلفة من الرقيق سابقاً ، وهم اليوم في مناصب الامر والتأمير. لقد امحت علامة الرق من محيّا المملوك ، وهو في مقام الحكم ، ولكن نظام تربية المماليك لم يتغير . فهناك المدرسة التي ينشأ فيها العبيد،ومنها ينتخبون رجالات الحكومة ورفقة السلطان. واكثر المماليك الصغار من بلاد الكرج ، وبعضهم كان من الباشاوات مَن يستحضرونهم من الاقاليم ليقدّموهم هدايا للسلطان ، ويعتمدوهم سنداً لهم وقت الحاجة ، ومن كان من المماليك في معية السلطان كانت بيدهم سلطة الحل والعقد في الدولة.

كثيرون ممن اقاموا في مقامات الحكم العليا ، لم يكن لهم وظيفة رسمية

اعلى من وظيفة الحاجب الاكبر ، ومع ذلك فهم الذين يتساعون حق جمع الضرائب ، وتعيين الصدر الاعظم او عزله.

وكانوا يتحاشون الظهور في المناصب التي تعرّضهم للانظار ، وتجعلهم هدفاً للانقلابات السياسية ، وهم يعرفون ان الولاة في الاقاليم كثيرًا ما يُعزلون عن تشكي الرعية ، وان الصدر الاعظم قد يذهب في الجهاد ، ضحية الفشل ، وفي كل حادث عزل او سقوط كانت تضبط اموال المعزول واملاكه وتعود الى السلطان ، مغربلةً بيد اهل البلاط . فيدب الفقر الى الاقاليم ، وتباع الضمائر. وهم يتقاضون المال على كل عملية بيع وشراء ، وما اكثر ما كان السلطان واعضاء الديوان العوبة في ايدي بعض ذوي الاغراض السافلة والانانية الطامعة ، ودأبهم الانتفاع من اموال الدولة ، من غير ان يقعوا في خطر ، او يتعرّضوا لكارثة . حتى اعتادوا العمل موافقةً مع سائر القائمين في المناصب ، وطبقاً لمؤسسات الدولة ونظامها ، وربما إتفقوا مع العلماء فاتخذوا السلطان دريئةً اختفوا وراءها لكي يستجروا الاموال الى جيوبهم .

والويل للمجددين في ذلك النظام ، لان من كان منهم في وظيفة عالية ، وأتى برأي او عمل جديد مخالف للمألوف ، كان سيف العسكر الانكشاري يناله حال وجود غيره ليشغل منصبه . اما غضب العسكر فيهدأ دائماً بالهبات المالية . ولك عن ذلك مثالات : اظهر السلطان مصطفى انقيادًا للمفتي ، فحدثت واقعة ادرنه وكانت نتيجتها ابدال السلطان باخيه . واخذ سليم الثالث ينشئ جيشاً نظامياً ليسترد للدولة عزّها القديم ، فأثار غضب الانكشارية . ولم يستطع السلطان محمود الثاني ان يغيّر هذه الحالة ، الا بعد ان تربص لها ثماني عشرة سنة ، ولم يكن ليتسنى للسلطان السفر من العاصمة خوفاً من انه اذا عاد اليها ظافرًا بعد حرب ، لم يتمكن من استعادة سطوة بني عثمان على عمّالهم .

فكان سلب الدولة ونهبها دأب رجالات البلاط . لكنهم لم يريدوا فناءها ، فكانوا ، اذا تهددها خطر عظيم ، يدعون الى شغل المناصب العليا رجالاً مقتدرين ، يطلبونهم من الاقاليم البعيدة الى العاصمة لاستلام زمام الامر . كانت الحالة على ما نقول لما اقاموا صدرًا اعظم محمد قوپرولو ، وكانت

الازمة في اشدها ، ولم يكن من امل ان يقيم الصدر الاعظم في وظيفته الى نهاية سنة واحدة ، فالعسكر في حالة الفوضى ، والاموال مرهونة لخمس سنوات . فكان الدواء لذلك الداء ان أقيم في الصدارة العظمى رجل قاسي الطبع ، وكان من اصل حقير ، مجهولًا ، فقيرًا ، مديونًا ، مهملًا ، وهو في احدى الولايات . لكن الايام علمته فبدا ذا بأس وحزم ، فجمع حطام الدولة وجبره ، واظهر من الحنكة ما يستحق الذكر ، فانه تدارك الايام المقبلة واجتهد في ان يسلم الامر بعده رجالًا مقتدرين .

في حمى قوبرولو نشأ ، وعليه تعلم ، من جملة من تعلم الادارة ، محمد باشا صاحب الكتاب الذي وصفناه ، وقد تدرَّب على استاذه ، فاتى كتابه ثمرة تلقنه العلم عليه . ومضت ايام قبل ان يتعلم رجال السياسة في تركية ، من تلك العائلة الالبانية ، كيف يتدبرون الامور . واتى قارا مصطفى وحارب المجر وارتدَّ عن ڤينة وانكسر . وكانت هزيمته اعظم كارثة حلت في الدولة العثمانية .

وظلت الانظمة المؤسسة تسيطر على الحكم . ولم يكن ذلك لخير السلطان فاستخدموا الوسائل ما استطاعوا ، انتفاعًا ، وتحالفوا مع العلماء ومع غيرهم من الاحزاب . وكان الانقسام يدب بينهم ويمزقهم ، ولكنهم كانوا يقفون جبهةً واحدة في وجه عدوهم . وفي الاجمال كانت الفئة المنوَّرة من المسلمين ، ومن يونان الفنار ، تجد في النظام السائد منفعة اعظم من ان يبتغوا الاصلاح دونها ، وكانوا كلهم كتلة واحدة لاستغلال مرافق الدولة المالية في سبيل انانيتهم . وكان الشعب الاسلامي كله ، من اهل الارياف وسكان المدن ، يكتفي ببعض الامتيازات المالية والمدنية ، فيرضى عن الحالة الحاضرة . ولما اصبح الجيش الانكشاري لا مقدرة له على مقاومة العدو الخارجي ، صار فلاحو الاناضول يتوهمون انهم اذا ما خدموا ذوي المناصب ، في النظام ، فانما هم يتجندون في خدمة الاسلام والخلافة ، وهي في نظرهم الهيبة ، او تكاد ان تكون .

فلا همَّ للمستقبل ولا لما تخبئه الليالي ، والولايات تُسلب وتُحمل مسلوباتها الى استانبول ، فتذهب في بنايات القصور ، وفي العيش الرغيد ، ولا ينقص السلطان شيء من كماليات الهناء . والمؤسسات الاسلامية والسياسية في

بده كسيف ذي حدَّين في يد سيد غشيم.

تلك هي الحالة الواقعة ، والساعون فيها وعليها لم يدركوا نتائجها في الغد ، وحسبهم اشباع نهمهم من طعام اليوم.

ومع ذلك ، وبالرغم من دوام ذلك النظام المتن ، ووجود ذلك البوليس الفاسد الضابط ذلك النظام ، كان يوجد رجال من امثال محمد باشا يسيرون في نور غير ذلك النور ، ومؤلفاتهم شاهدة على احوال زمانهم وعلى شرفهم ايضاً . لم يوفّقوا في منع الدولة عن السقوط ، ولكن خدماتهم أخّرت ذلك السقوط الى زمان ابعد مما كان يرغبه ويترقبه جيرانهم الطامعون بابصارهم الى خراب مملكة بني عثمان.

الاب فرديناند توتل اليسوعي

Cᵗ Lefebvre des Noëttes, De la marine antique à la marine moderne. La révolution du gouvernail. In-8°, 145 pp., et 64 pl. hors texte. Paris, Masson et Cie, 1935.

من الملاحة القديمة الى الملاحة العصرية

من الصعب على الكاتب في عصرنا الحاضر ان يطرق موضوعاً لم يسبقه اليه احد . بيد ان هذا نصيب صاحب الكتاب في درسه تاريخ الملاحة منذ اقدم عصورها الى عصرنا الحاضر . وقد بيّن ان القدماء لم يحسنوا استخدام القوة الحيوانية لانهم جهلوا استغلال تلك القوى المتتابعة على خط واحد . وكذلك لم يعرفوا استخدام الدفّة الدائرة . انما كانت دفّة سفنهم منذ القدم الى القرن الثالث عشر للمسيح لا تختلف عن اللوحة العاديّة . حتى ظهرت الدفة الدائرة في القرن الثالث عشر ، ولا يُعرف مكتشفها النابغة ، فنهضت الملاحة نهضة لا تزال متصلة حتى اليوم ، وذلك في سعة المراكب ، وحمولها ، ومقدرتها على مجابهة الامواج . يذكر المؤلف كل ذلك ويؤيّده بالرسوم العديدة دارساً طرق الملّاحين الشرقيين من يونان ورومان وبيزنطيين ، منتقلاً الى ملّاحي القرون الوسطى ، وملّاحي الشرق الاقصى ؛ مفنّداً الكثير من الاحكام الفاسدة والنظريات الجريئة . حتى اذا انتهى عمله ، واراد ذكر المصادر والمآخذ ، تحقق خلوّ اللغات التي يعرفها من ايّ كتاب يبحث في تاريخ الدفّة . ج. ل.

L. O. HOWARD. **La menace des insectes.** Traduit par L. BERLAND. In-12, 283 pp. 1934. Prix : 12 fr.

خطر الحشرات

وهذا الكتاب ايضاً ذو موضوع جديد ، وهو خطر الحشرات المهدّدة الانسان . كان للمؤلّف ان يقضي عدة سنوات مديرًا لدائرة درس الحشرات في وزارة الزراعة الاميركية ، فاستفاد اختبارًا واسعاً ومعلومات جمّة اودعها هذا الكتاب خدمةً للجمهور ، محذرًا اياه من الحشرات ، وهي خطر حقيقي يهدّد الانسانية . ولا عجب في ذلك ، والمؤلّف يعيش في بلاد مترامية الاطراف ، وقد تكون كثيرة الحشرات، حتى يبلغ ما تفسده كل سنة مليارين من الدولارات . ومما يزيد في خطرها وشدة اذاها انها سريعة التولّد ، سريعة النموّ حتى لا يعهد لها زمن طفولة ولا زمن شيخوخة . بيد ان طرق التخلّص منها عديدة كذلك ، وهي اذا نالتها بلغت ضحاياها الارقام الهائلة .

بدأ المؤلّف كتابه بدرس نشأة الحشرات وتاريخ وجودها على هذه الأرض، وهنا اكثر من النظريات الجريئة والاحكام المتسرة . حتى انتقل الى درس انواعها درساً موضوعياً دقيقاً ، واشار الى عمل الانسان في انتشارها ، عن غير قصد ، في كثير من الاحيان . وهو فصل لذيذ مفيد . انتقل منه الى ذكر طرق الوقاية من الحشرات والعمل على ملاشاتها ، والمؤلّف يرى ذلك في انشاء الدوائر ذات الاختصاص ، ذاكرًا ان في الولايات المتحدة وحدها ٥٠٠ رجل يشتغلون في دائرة درس الحشرات من وزارة الزراعة ، فوق ما هناك من الاختصاصيين المتفرّقين في انحاء الاتحاد . ولا شك في ان اهتمام العالم بهذه الدوائر يزداد يوماً فيوماً . وهكذا يضعف خطر الحشرات في آخر الكتاب عنه في اوله . ج. ل.

LADISLAS GORCZINSKI, **Climat solaire de Nice et de la Côte d'Azur.** [*Association des Naturalistes de Nice et des Alpes Maritimes.* Mémoire IV, Supplément au *Riviera scientifique.* Années 1933 et 1934]. In-8°, 208 pp. Nice, Association typographique, 1934.

نيس ومناخها الشمسي

لا يخفى على احد جودة المناخ في الكوت دازور . انما الصعوبة في تحديد عناصر هذه الجودة . وهو ما قام به المؤلّف مسمياً عمله بكل تواضع : «محاولة».

على ان هذه « المحاولة » تبدو للمطالع المدقق مثالاً بل اساساً لكل عمل من هذا النوع تُدرس فيه مناخات سواحل البحر المتوسط . وقد قسم الكتاب الى ستة فصول: يصف اولاً الآلات التي استعملها ، منذ السنة ١٩٢٨ ، في مركز دروسه في نيس - كارّاس ، ثم يعدّد العناصر الفلكية في المناخ الشمسي: مدة الاشعاع الشمسي وقوّته ايام الصفاء ، واتصاله خلال الطبقات الجوّية ، خاتماً بذكر كمية الاشعة التي تستقبلها المساحة الافقية في نيس . ح. ل.

P. Goemare, **Quand Israël rentre chez soi.** In-12, 185 pp. Paris, Denoël et Steele, 1935. Prix : 12 fr.

اسرائيل عائداً الى موطنه

يدرس مؤلف الكتاب ، وهو بلجيكي الاصل ، مشكلة اليهود ، ذاك الشعب الذي لم ينفكّ ، منذ جلائه عن وطنه ، تائهاً في انحاء العالم ، عرضةً للاحكام المتناقضة . وهو يلفت الانظار خاصّة لما في كيان هذا الشعب من سرّ عميق : ١٥ مليوناً من البشر لا وطن لهم . ومع هذا فانهم يرمون الى بسط سيادتهم على الاوطان المختلفة . ذاك الشعب هو الوحيد ، بين معاصريه ، الذي لا يزال في قيد الحياة شاهداً دائماً بين الشعوب الجديدة . الى آخر ما هنالك من افكار وآراء كثيراً ما خطرت على بال الناس منذ الحرب الكبرى والحوادث الحاضرة ، فكان للمؤلّف ان يعرضها باسلوب يتّصف بالقوة والبلاغة المقنعة . وقد زار فلسطين ، فعرض للمشكل الصهيوني بشيء من العطف ، اذ تحقّق في مَن عاشرهم من اليهود كثيراً من الثقة والتفاؤل. وهو يكاد يشاركهم في هذا التفاؤل ، اذ يختم قائلاً : « ان شعباً يبرهن عن مثل هذه المظاهر من الارادة والنشاط لجديرٌ بان يرى الافق وجهاً لوجه . ولماذا لا يحقّ له الأمل باجراء معجزات جديدة في الغد القريب ، وقد قام بمثل هذه المعجزات حتى اليوم ! » . ج. ل.

I. de Manziarly, **Pérégrinations asiatiques.** In-12, 407 pp. Paris, Geuthner, 1935. Prix : 18 fr.

جولات اسيوية

هي جولات عديدة في بلاد مختلفة، وإقامات امتدّت على نحو خمس عشرة

سنة ، يعرض المؤلف ما شاهد فيها ، او مـا فكر به لدى مشاهداته ، على طريقة خاصة ، فلا تاريخ ولا اشارة الى زمن الرحلات الا ما يستنتجه المطالع احياناً من نص الكتاب المتراكمة فيه اسماء المدن والقرى والمناطق غريبة في آراء المؤلف واحكامه . وفيها اسماء بيبلوس ، وانطاكية ، وحلب ، وبيروت ؛ على ان من يطلع عليها لا يزداد معرفة بشيء عن هـذه المدن . وهكذا تكون فائدة الكتاب للكاتب اكثر منها لمطالعيه . ج . ل .

Fulvio Cordignano, S. J., **Dizionario albanese-italiano.** In-8°, XXXI + 339 pp. Milan, Ulrico Höpli, 1934.

معجم الباني - ايطالي

لقد طالما انتظر الناس مثل هذا المعجم ، غير خاف عليهم صعوبة تأليفه . وذلك اولاً ان اللغة الالبـانية تنقسم الى لهجات متعددة اشهرها لهجتان : الكيك ، والتوسك . فكان ان خص المؤلف باللهجة الاولى ٢٥٠ صفحة من معجمه فيها نحو خمسة عشر الف كلمة ، وافرد للهجة الثانية ، وهي اقل اهمية ، ملحقاً في ٢٨ صفحة احتوى نحو الف وخمسمائة كلمة من اصل توسكي لا غبار عليه . ثم ان طريقة الامـلاء الالبانية لم يتفق عليها العلماء بعد ، في كثير من الاحيان ، على رغم ما قامت به المؤتمرات من جهود . واخيراً ان لغة الجرائد ، ولغة اكثر المجلات ، تتضمن ، فوق المفردات الالبانية القديمة ، خليطاً غريباً من مئات الالفاظ المأخوذة عن اللغات الاجنبية التي ساهمت في انهاض الثقافة الالبانية ، ولم يكن من السهل ان تحتل هذه المفردات مركزها من المعجم دون تمييز .

فرأى المؤلف ، والحالة هذه ، ان يستشير اشهر لغويي البلاد في سبيل اختيار افضل مـا يمكن من الالفاظ والتعابير . وقد اعمل نقـده الدقيق في معجم « بَشكيني » ، وهو اوسع قاموس وادقه للهجة الكيكية ، فوجد فيـه كثيراً من الاغلاط ، وعدداً لا يستهان به من مفردات لا وجود لها في النصوص . وكان مؤلف « بَشكيني » قد استند الى معجم الاب جاك يونك اليسوعي ، وهو اصغر حجماً ولكنه اوفر دقة وضبطاً . واستعان المؤلف ، طول عمله ، بمعجم قسطنطين كريستوفوريذي الفائق الدقة والغنى ؛ فلم يقبل الا عدداً قليلاً

من الكلمات الجديدة. وذلك ان هذه المستحدثات اكثر عدداً على اقلام الكتاب الالبانيين ممن لا يهمهم صفاء اللغة ونقاوتها، منها على السنة الشعب.

هذا، وان المؤلف يقرّ بكل تواضع، انه يستحيل الآن — والى زمن طويل — تأليف معجم تام النقد يرضي كل الرضى. بيد انه يقدم لنا ثمرة تنقيبات دقيقة صورة مدة السنوات الطويلة. ولا شك ان كتابه هذا يمثل خطوة واسعة في تقدم اللغة الالبانية فيمهد السبيل للمعجم النهائي.

اما الطبع فواضح، ظاهر العناية، يعمل على رفع قيمة المعجم، وكذلك القول عن الصفحات الخمس عشرة الاولى الحافلة بالمعلومات الغراماطيقية. بيد ان هناك نقصاً عملياً ادركه المؤلف واعتذر، في مقدمته، عن اضطراره اليه بعض الظروف العارضة، وذلك ان قسمي المعجم في اللهجتين ظهرا متتابعين الواحد بعد الآخر، بدل ان يكونا مجموعين في نسق واحد، تميز فيه كلمات كل لهجة باشارة خاصة: ثم ان للكتاب ملحقاً بالزيادات يبلغ ٥٢ صفحة، فيظهر كأنه معجم ثالث! ف. غ.

HUGH WALPOLE, **La Cathédrale.** Traduit de l'anglais par CHARLOTTE et MARIE-LOUISE PRESSOIR. In-16. Paris, Librairie académique Perrin. Prix : 12 fr.

الكاتدرائية

هذا الكتاب من اروع روايات ولبول، ومن ادق الدروس في الحياة الاكليريكية البروتستانية في انكلترة. صوّر فيه المؤلف احد اركان الكنيسة الانكليكانية، وما اتصف به من قوة ارادة، ودأب متواصل، وغرور بنفسه، مع ذلك. حتى اذا ادرك قمّة اهميّته، اخذ يشعر باضمحلال نفوذه ادبياً ومادياً، وانهيار تلك القمة التي كان يفخر بالوصول اليها. هذا على الجملة، موضوع الكتاب، فوق ما فيه من ملاحظات قيّمة في جميع مناحي الفكر البشري، ولاسيما في درس النفس، وما يشغل الناس من مساعٍ، ومطامع، ودسائس، وآلام، يغرقون فيها جميعاً في ظلّ تلك «الكاتدرائية» الشامخة.

الفاروق عمر بن الخطاب

بقلم دياب عثمان العرابي
مصدّر بمقدمة للاستاذ مصطفى صادق الرافعي
ص ٢٦٦ ، قطع ١٢ ، المطبعة اليوسفية ، بطنطا ، ١٩٣٦

اجمع المؤرخون من عرب ومستشرقين (لامنس ، كايتاني ، ومن بعدهما لافي دللا ڤيدا) على ان شخصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ابرز ما ظهر من امثالها في صدر الاسلام ، وقد زادت الاساطير العامة على خطط سيرة عمر ما عظّمه وجعله بطلاً يضرب به المثل ويقتدى به ؛ فلا عجب ان تقوم جمعية « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » التي طبعت على نفقتها هذا الكتاب ، فتقدمه للقراء بحلة بسيطة متهاودة السعر قريبة المنال،فتتناوله ايدي الكثيرين. وهو اشبه بما تنشره الجمعيات البروتستانية او غيرها من الجمعيات الخيرية المستعملة الطباعة آلة لدعاياتها .

يتصدّر الكتاب رسم امير الصعيد الفاروق (ملك مصر اليوم) ثم تأتي المقدمة، وفيها التغزل بمن « صار التاريخ سجلاً عظيماً لحسناته » (صفحة ط) الى ذكر عمر في الجاهلية فوصفه ونسبه ونشأته ، الى سبب اسلامه وصحبته رسول المسلمين ، الى ما كان من تأثره واثره في القرآن ونزول محمد على رأيه ، الى ما بعد ذلك من الوقائع الخطيرة التي اتخذ منها الاسلام وجوه سيره ، وهو ماش الى الامام يفتح البلاد ويشتّ الاحقاب . فكان لعمر تدبير في فتح الشام خاصة ، وفي وضع المنشئات الادارية ، واضاف المؤلف الى ذلك الاخبار عن حياة عمر العائلية وعن موته .

وهناك لائحة بمصادر الكتاب، وهي من مؤرخي العرب ، وكل يعلم انهم نقلوا الاخبار بعضهم عن بعض ، وقلما اهتموا لنقدها والتمييز بين الحقائق والاساطير . الى ان ظهر النقاد المحدثون، واخصهم المستشرقون، فحاولوا تصوير الشخصية التي نحن في صددها وأتوا بما لم يكن بالحسبان . ان لكايتاني ستة مجلدات ضخمة استوعب فيها البحث في اخبار عمر فكان من اللازم الوقوف

على اقواله اما للموافقة عليها واما لتفنيدها ، من امثال ذلك قوله : [١]

« قد يسعى المحدثون في اقناعنا ان ابا بكر عيّن عمر خليفة له . ولكن ذلك ضرب من المحال . فان ابا بكر وعمر وابا عبيدة الجراح كانوا كتلة واحدة ، وكان عمر كالنفس فيها من الجسد . فلما قبض محمد ، اشعر عمر بذكائه المفرط ان الساعة لم تأذن بعد لجلوسه على سدّة الخلافة ، فتنحى عنها لابي بكر الى ان خلفه بعد موته » وان هذا القول يناقض لما جاء في ص ٥٤ وما بعدها من الكتاب الذي نصفه . فاين الحقيقة ؟ هذه وامثالها من المشاكل التاريخية قد تفيض من صفحات المجموعات الاوروبية ومن كتب المستشرقين ، وصار بعض الكتاب العرب المحدثون يهتمون بها ؛ على ان امرها بعيد هدفاً عن مرامي العامة ، ذلك مما يبرر تورع مؤلف الكتاب وحياده عنها لانه كتب للعامة وليس في الحالة التي وصل اليها متوسط القراء في زماننا ما يكفي مؤنة وجع الراس عند بحث امثال هذه المشاكل البحث العلمي الدقيق . ويبالغ المؤلف في الحرص على الروايات بحرفها ، فنشرها بانتها القديمة الطيبة عسى ان يفهمها ويستطيبها قراء عصرنا . ف . ت .

تيسير المنفعة بكتابَي مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي

الكتاب الاول : الفهرس التفصيلي لصحيح البخاري ، ممدود الكتب والابواب ، ص ٩٦ ، قطع ٤، ثمنه ٥ غ . م .

الكتاب الثاني : الفهرس التفصيلي لصحيح مسلم ، ممدود الكتب والابواب والاحاديث ، ص ١١٣ قطع ٤ ، ثمنه ١٠ غ . م .

الكتاب الرابع : الفهرس التفصيلي لجامع الترمذي ، ممدود الكتب والابواب ، ص ٤٤ قطع ٤ ، ثمنه ٣ غ . م .

من وضع محمد فؤاد عبد الباقي ، مترجم كتاب مفتاح كنوز السنة

مطبعة المنار ، مصر ١٣٥٤—١٩٣٥

السُنّة عند المسلمين ما صدر عن نبيّهم ، غير القرآن ، او عن الصحابة ،

---

١) حوليات الاسلام : العام ١٣ الهجري ، ص ١٢٨ Caetani : *Annali dell'Islam*
واطلب ايضاً : Lammens : *Triumvirat*

من قول او فعل او تقرير . والحديث كل ما يؤثر عن محمد من خبر او اثر وان مجاميع السنة والحديث عديدة اخصّها واعظمها شهرة الكتب الستة وهي للبخاري († ٨٧٠) ومسلم († ٨٧٥) وابي داود († ٨٨٨) والترمذي († ٨٩٢) والنسائي († ٩١٥) وابن ماجه († ٨٨٦) ؛ ويضاف الى هذه اللائحة موطّأ مالك ، ومسند احمد بن حنبل ، وسنن الدارمي .

ولقد كان للدكتور فنسنك ، استاذ العربية في جامعة ليدن ، وأحد مؤلفي دائرة المعارف الاسلامية ، الفضل في وضع كتابين جليلين ، احدهما ظهر سنة ١٩٢٧ وعنوانه : *A handboock of early Muhammedan Tradition,* alphabetically arranged والثاني اخذ بالظهور متسلسلًا منذ ١٩٣٣ ، وعنوانه : *Concordances et indices de la Tradition Musulmane.*[1]

وغرض الكتابين انما هو تيسير الاهتداء الى الحديث في كتب الصحاح والسنن والمسانيد والمغازي والطبقات . وكما ان فكرة تأليفهما نشأت في ليدن ، فكذلك كان تحقيقها في ليدن . ولكن السيد محمد فؤاد عبد الباقي أبى الا ان يفيد بفوائدها البلاد العربية ، وما احق هذه البلاد العزيزة بالعناية بمثل هذه المؤلفات ! فترجم الى العربية كتاب فنسنك الاول وسمّاه «مفتاح كنوز السنة » واذ ان الكتابين يتفقان في الدلالة على موضع كل حديث في الصحاح والسنن ببيان رقم الكتاب وبيان رقم الباب ، كان لا بد ، للاستفادة منها ، من وجود الصحاح والسنن بطبعات تامة مرتبة الكتب والابواب ترتيباً مفيدًا مطلقاً يُرجع اليه .

ولكن في الواقع كل طبعة من هذه الاصول تختلف عن غيرها في عدد الكتب والابواب ، وليس لتقسيمها وترقيمها ترتيب كامل ، فالجأت الحاجة الى تلافي الصعوبات الناشئة من ذلك الى نشر فهارس الاصول المذكورة تكون ارقام كتبها واحاديثها مطابقة لارقام كتب وابواب احاديث النسخ الاصلية التي اعتمد عليها فنسنك والمستشرقون مساعدوه .

[1] وكان لمحرر هذه الاسطر نصيبه بالعمل في هذا المشروع الواسع النطاق الكثير المواد ، وفيه اشتغل لفيف من المستشرقين .

ذلك كان العمل الذي قام به « تيسير المنفعة » وقد نال استحسان ائمة مفكري المسلمين في مصر وفلسطين،ولا يسعنا الّا ان نهنئه على ما استحقه من ثناء ، ونشكر له مساعدته على تعميم الفوائد العلميـة الناتجة من جهود من تكبدوا المتاعب الجمة وصرفوا الساعات الطوال في سبيل احيـاء العلوم العربية . على اننا نستأذن بالاعراب عن امنية وهي ان يضيف صاحب التفسير الى صفحة تعداد الكتب بالرقم المتسلسل صفحة ترتيبها وفقاً للترتيب الابجدي ، حتى اذا قصدها المطـالع اهتدى اليها سريعاً من غير ان يضطر الى مراجعة الصفحتين بعواميدها الاربعة في الكتاب الاول ، وغيرها في غيره . . . عسى ان تبلغه كلمتنا هذه في اوانها ، قبل ان ينهي طبع سائر الكتب !

ف . ت .

مؤلفات السيد عبد الرزاق الحسني

الكتاب الاول: تاريخ الوزارات العراقية

الجزء الاول: ص ٢٢٣ — الثاني: ص ٢٤٣ ، قطع ٨

الكتاب الثاني: العراق في دوري الاحتلال والانتداب

ص ٣٢٠ ، قطع ٨ ، السنة ١٩٣٥ . الثمن : ٢٥٠ فلساً او ٢٥ غرشاً مصرياً

الكتاب الاول مجلد ضخم مطبوع على الورق الصقيـل اصدرته مطبعة « العرفان» في صيدا مزيناً بالرسوم والخرائط ، وهو كتاب تاريخ حقيق باسمه ، يتناول ذكر وقائع البـلاد العراقية منذ وصول السر برسي كوكس ، المعتمد السامي البريطاني، الى بغـداد في ١١ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ ومفاوضاته مع اعيان البـلاد لوضع اركان النظام الجديد ، الى ٢٩ تموز ١٩٢٥، وفيه تعديل القانون الاساسي .

ان مواد الكتاب الوافرة ، واسلوبه اللذيذ الوضّاح ، ونظراته البعيدة المرامي ، تبعث على الاعتقاد ان مؤلفه شاخ وهرم في التحبير والتسطير . ولكن ما ان تنظر الى صورته وتستقصي اخباره حتى تتحقق ان النضج قد سبق الايام في حياته ، فهنيئاً له بما اتاه من « سفر تاريخي خطير » .

كتب الحسني في تعريف الشيعة ، والصابئة ، واليزيدية ، والبابيين . ولم يستنكف عن جمع الاغاني الشعبية ، وفيها الروح القومية الفطرية ، ووضع تاريخ البلدان العراقية فاستعد بهذه المآثر الى المهمة التي صرف في تحقيقها السنين الطوال ، فاثمرت بهذا المؤلف وبالمؤلفات التي تخللها .

اقرأ اولاً كلمته الافتتاحية ، وفيها خلاصة كتابه فتتحقق ان القوس اعطيت باريها ، ولا بد من ان ناخذ شيئاً عنها فنلخص تاريخ العراق في عشر سنوات مضت ، ونعين في الزمان والمكان اهم المواد التي جمعها المؤلف . اقول جمّها ، او بالاحرى « نسقها » فانها ليست مدونة على النمط القديم الجاف المتبع الاخبار موجزة سنة فسنة ويوماً فيوماً ، بل هي بناية فخمة فيها طبقاتها ودورها وفيها يمثل الممثلون ادوارهم لا بالخيال ولكن بالحقيقة على مسرح الحياة .

دخلت تركية الحرب العظمى ، فالجأت الانكليز الى مهاجمة العراق سنة ١٩١٤ واحتلال البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ، وبغداد في ١١ اذار سنة ١٩١٧ ، حتى عقد معاهدة موندروس في ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وقد قضت بتسليم جميع المواقع العسكرية في سورية والعراق واليمن وعسير الى اقرب قائد من قواد دول الائتلاف .

وانتقل الحكم في العراق من الاتراك الى الانكليز . وكانوا قطعوا للعرب وعوداً انهم يخولونهم حقوق الحكم في البلاد العربية . ولكن السياسة حالت دون تحقيق الوعود في الحال فكانت ايام عنف وشدة لا بد من وقوعها بين غروب دولة وطلوع دولة ، تلك كانت ايام الثورة العراقية . ونالت الثورة مراميها بتأليف الحكم الوطني ، متوفقاً الى التمتع برعاية ملك كان حقيقاً باسمه . وقد شاءت التقادير ان ينزح الامير فيصل عن سورية في الظروف التي نعرفها ليتبوأ عرش العراق . وكان قبل جلوس الملك وفيه وبعده ، تطور في الادارة والحكم ، تعاقبت فيه وزارات عديدة ، واختلف فيه على كراسي الحكم رجال كان لهم اثرهم في قيادة المملكة الفتية ، من دور الانتداب الى الدور الذي بلغت اليه بعد المعاهدة بينها وبين بريطانية العظمى ، ودخول العراق في جمعية الامم . فكان مؤتمر القاهرة والبيعة للامير فيصل ، وكانت

حملات الوهابيين على العراق، وهياج العلماء، وافتتاح المجلس التأسيسي. ومن ثم نصوص المعاهدات والاتفاقات التي ابرمتها الوزارات المختلفة، وسجلت في الصكوك والوثائق مما تيسر للمؤلف جمعه.

الكتاب الثاني — يتناول الكتاب السابق الاخبار في داخلية البلاد، وهي تتدرج من رقي الى رقي بين وزارة ووزارة. اما هذا المجلد فيرمي الانظار الى ما وراء الحدود ويعالج المشاكل التي نشأت بطبيعة الحال بين حكومة العراق وغيرها من حكومات اجنبية كبريطانية العظمى، وتركية، وايران. اما قضية الثورة العراقية فقد شغلت جزءاً وافراً من الكتاب حتى استحقت ان تطبع على حدة بمجلد ثالث اهدي الينا.

وخلاصة كلامنا في هذه الاجزاء هي الثناء على همة المؤلف والطابع والملتزم، فيما يخدمون به الادب والعلم. واذ ان السيد الحسني تفضل وطلب ملاحظة منا فلن يلومنا ان لفتنا نظره ونظر قرائه الى مسئلة الاشوريين، ومسئلة الاجانب.

في خطاب تتويج الملك فيصل كلمات عسجدية، على امثالها تؤسس الممالك، قال (تاريخ الوزارات: ص ٢٣) «نحن الآن احوج الامم الى التعاضد والعمل بجدّ ونشاط ضمن دائرة السلم. واني لا آلو جهداً بان استعين برجال الامة على اختلاف مواهبهم، وتفاوت معتقداتهم. فالكل عندي سواء لا فرق بين حاضرهم وباديهم، ولا ميزة عندي الا بالعلم والمقدرة.»

وان هناك مشاكل، وثورات، واضطرابات حدثت في خلال السنين التي ارّخها الحسني، وعاهد نفسه على بسط الوقائع كما هي وسرد الحوادث كما جمعها دون ان يكون له بها رأي خاص (تاريخ الوزارات ص ٨) وفي غير موضع يقول: انه اضطر في الظروف الحالية الى السكوت عن بعض الوقائع وعن بعض الاسماء خشية محذور. وبالرغم من الاجتهاد في الوقوف على الحياد فلا يمكنك الا الاقرار بانه عالج المسئلة الاشورية لا من سائر وجوهها ولكن من بعضها فقط، وليست لهجته فيهم كلهجته في غيرهم ممن سببوا الاضطرابات! وهناك امر آخر معروف وهو ان الحكام الافرنج في البلاد العربية قد يسيئون السياسة.

ولكن المنصف لا يتمالك ان يقر بما لهم فيها من حسنات. وعلى المؤرخ ان ينظر الى الحوادث من اعالي المبادئ التي حركت الشعوب لا من دنايا حوادثها في اليوم! امّا نعت الانكليز «بالاجانب الغاصبين» بشحطة القلم من غير لفت النظر الى جهادهم في سبيل تحرير العراق من نير ثقل عليه اجيالاً فهو مناقض لما قاله الملك فيصل يوم التتويج:

«واجب آخر يدعوني لان ارتل آيات الشكر للامة البريطانية اذ اخذت بناصر العرب في اوقات الحرب الحرجة فجادت باموالها وضحّت بابنائها في سبيل تحريرهم واستقلالهم».

تلك اللهجة لهجة الملوك لجديرة بأن توحي للمؤرخ النزيه النظرات والتعابير الداعية الى الاعتدال والتوازن، لان حب البلاد الحقيقي لن يبخس كل ذي حق حقه، ولو اجنبياً. ف. ت.

سيدة لورد

تأليف هنري لاسِر — نقله الى العربية ببعض التصرف ا. ت.، احد المتعبدين لمريم البتول

نُشرت تباعاً في جريدة البشير — بيروت المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٥ — قطع ٨؛ ص ٢٢٤

سنة ١٨٥٤ ظهرت العذراء مريم القديسة على صخور مسابييل الجرداء، في جوار مدينة لورد، لابنة صغيرة اسمها برنديت. ومضت الايام على ذلك الظهور واذا بالبرية تتحول الى محجّة مكتظّة بالزوّار يأتون لورد من جميع انحاء العالم ليصلّوا وينالوا من السيدة، عليها السلام، شفاء النفوس والاجساد. فاصبحت لورد، مع رومة واورشليم، مقام العبادة العظيم للمسيحيين الكاثوليكيين.

وكان هنري لاسر احد الذين نالوا من العذراء، مع شفاء العيون من مرض عضال، شفاء النفس من قلة ايمانها فاعرب عن شكره للبتول صنيعها أن كتب هـذا الكتاب الشائق الممتع، وفيه وصف وصفاً تاريخياً ادبياً جميلاً حوادث لورد، وما كان من امر معارضة بعض رجال الحكومة اللادينيين لحركة سموها رجعية، ولكنهم ما لبثوا ان تحققوا اصلها المنبعث من قوة تفوق قوى البشر،

وهي ارادة الله تعالى ، في عصرنا عصر الاختراعات الطبية التي تأتي بنا يشبه الخوارق من اعمال مدهشة ، ان يعلن على رؤوس الملا ان بيده الحياة والموت وانه المبيد والمحيي فيشفي من غير طب ولا تطبب ، ليخضع كل عقل وعلم لاحكامه .

وكان كتاب لاسرّ كدستور لما عرف عن لورد وظهورات العذراء فيها ، وهو على بعد عهده في الظهور باللغة الافرنسية ، لم يكن معروفاً من القراء العرب ؛ فكان من فضل الكاتب الذي اخفى اسمه تحت حجاب ا. ت. ان نال ما ناله من الاجر عند الله ومن الشكر ، ليس من المتعبدين للبتول الطاهرة فقط ، بل من كل قارئ مشغف بالمطالعة الادبية اللذيذة، اذ نقل الى العربية كتاب لاسر باسلوب اتقن فيه كل الاتقان لهجة المؤلف الافرنسي الوضاحة اللطيفة ، واتحف الادب العربي المسيحي بكتاب جديد يُعدّ من خيرة ما ظهر من امثاله . ف. ت.

الثمر المبارك

من نفائس وروائع المواعظ الدينية والاجتماعية، والتصريحات والخطب السياسية والادبية

القاها بين عامي ١٩٢٦-١٩٣٦

صاحب السيادة المطران اغناطيوس مبارك ، رئيس اساقفة بيروت الماروني

جمعها ونسقها وطبعها على نفقته الخوراسقف بطرس حبيقه رئيس مدرسة مار بطرس بكفيا — لبنان

مطبعة المرسلين اللبنانيين، جونيه ، لبنان، ١٩٣٦ ، قطع ٨ ، ص ٤٥٤

لعظات سيادة المطران مبارك وخطبه صدى يتجاوز حدود الكنائس والمجتمعات ، تردده الصحافة السيارة فيبلغ آذان القاصي والداني. وكان من حظ جريدة البشير ان تنال من قلم سيادته،عند كل عظة يلقيها،رؤوس اقلام محررة كمذكرة لمعاني الوعظ ومواده . وان مجموعة البشير من السنة ١٩٢٩ الى السنة ١٩٣٤ تضمّ سلاسل مواعظ الصوم في كاتدرائية مار جرجس ، بخلاصتها ،

لكنها محفوظة في المكتبة الشرقية وفي مجموعات البشير البعيدة منالاً عن العامة ؟ فكان من فضل حضرة الجامع ان اخرجها وعمم فوائدها بنشرها كتاباً كاملاً سهل المطالعة قريب المنال.

لقد اصاب الناشر في قوله ان هـذا الكتاب انما هو بدرة من كنز لان اساليب البلاغة والفصاحة الفيّاضة لاوسع نطاقاً من ان تضمها صفحات قلائل ، ومواعظ المبارك حقيقة بان تدوّن وتطبع بحرفها فتزيد جهاز الوعظين بما يساعدهم على اتخاذ المطران قائداً ونبراساً لهم في الوعظ . ف . ت .

لباب الآداب

تأليف أسامة بن مُنقذ — بتحقيق احمد محمد شاكر

٢٢ + ٥٢٦ ص . متوسطة – مصر القاهرة ، مكتبة لويس سركيس ، ١٩٣٥

هو كتاب ادب ، بالمعنى الواسع القديم ، اي كتاب ثقافة ، فيه من التاريخ ، وفيه من الشعر ، وفيه من الحكم ، وفيه من النوادر على نحو ما نعرفه في تآليف ابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهما . وان يكن له من قيمة خاصة فنسبته الى الامير أسامة بن منقذ ، وبجمعه القليل مما شاهده المؤلف واختبره في حياته الطويلة (١٠٩٥ – ١١٨٨) ، وقد وضع الكتاب في آخرها ، مقسماً اياه الى ابواب في الوصايا ، والسياسة ، والكرم ، والشجاعة ، والآداب ، والبلاغة ، والحكمة . فالى فصول . . . ، بادئاً كلاً منها بالآيات القرآنية الموافقة ، ثم بالاحاديث ، من صحيحة ومنحولة ، وباقوال الحكماء والشعراء ، ونوادر الظرفاء والمتأدبين . يتخلل ذلك ذكريات خاصة للمؤلف وددنا لو كانت كثيرة ، وقد عاش في عصر وافر الاحداث كثير الاضطراب ، اذاً لخرجت بالكتاب من صف المجاميع الجامدة الى نوع المذكّرات الحية . ومهما يكن من امر ، فقد احسن الاستاذ احمد محمد شاكر صنعاً بتحقيقه النص ، وكتابة مقدمتـه الواسعة في حياة المؤلف ووصف اثره ، ويوضعه الفهارس المطولة لابواب الكتاب ، واعلامه ، وايام العرب ، والاماكن ، والقوافي الواردة فيه ؛ كما احسنت مكتبة لويس سركيس باخراجه اثراً مفيداً في تاريخ الثقافة العربية . ف . ا . ب .

اساطين العلم الحديث

بقلم فؤاد صرّوف

٢٨٥ ص . متوسطة – مصر ، مطبعة المقتطف ، ١٩٣٥

للاستاذ فؤاد صرّوف عناية لا تعرف الكلل في اطلاع ابناء العالم العربي على حركة العلم العالمي ، متابعاً تلك الخدمة الجزيلة التي اداها « المقتطف » ، مدة ستين سنة ، منتهزاً كل سانحة لنقل نظرية حديثة ، او وصف اكتشاف جديد ، او عرض اختبار عصري . وها هو يجمع اليوم بين العلم والتاريخ ، فيهدي الى قرّاء العربية مجلداً جمع فيه حياة ثلاثين نابغة « من اساطين العلم الحديث » في مختلف مظاهره : من بناة العوالم ، الى روّاد الطبيعة ، الى غزاة الذرّة ، الى أساة وسحرة اي اطبـاء ، ومكتشفين في عوالم الكهرباء والاثير . كل ذلك في اسلوب سهل ، وطريقة موافقة في بسط هذه النظريات المستصعبة على الجمهور . وهذا ما سيعرفه للمؤلف تاريخ الثقافة العربية العصرية ، دون شك .

ف . ا . ب .

ابن خلدون : منتخبات

لجميل صليبا وكامل عياد

١١٢ ص . متوسطة صغيرة – دمشق ، مكتب النشر العربي ، ١٩٣٣

الغزالي : المنقذ من الضلال

لجميل صليبا وكامل عياد

طبعة ثانية : ١٦٨ ص . متوسطة – دمشق : مكتب النشر العربي – الثمن : ٢٠ ق . س .

في شباب دمشق المثقف عناصر نهضة مباركة ترمي الى التخلص من قيود التقليد دون ان تطفر الى غرابة التجديد المزعوم : فهي تقرن ، او تجتهد ان تقرن ، مادة القديم الصافية باسلوب العصر العلمي . تتحقق ذلك اذا ما اطلعنا على ما يصدره « مكتب النشر العربي » من مجلدات لطيفة تسهّل على طلّابنا ومتأدّبينا الاتصال بتراثهم الثقافي القيّم .

هذا ابن خلدون قرّبه من منال« فلاسفة » المدارس التجهيزية الاستاذان جميل صليبا وكامل عياد ، بما اختاراه من آرائه في الفلسفية الكونية ، ونطاق العقل ، وعلم الكلام ، وتصنيف العلوم ، والتعاليم . . . وبما قدّما على ذلك من بحث وافٍ في حياة الفيلسوف ونظرياته .

وهذا الغزالي يظهر « منقذه من الضلال » في حلة نقدية سابغة ، حافلة بلائحة آثار الفيلسوف ، مطبوعة ومخطوطة ، صحيحة ومنحولة ، وبجدول لاهم المصادر عن الغزالي من عربية واجنبية ؛ وبمقدمة واسعة للاستاذين المذكورين في حياة الامام ، وفلسفته عامّة ، وآرائه في « المنقذ من الضلال » خاصّة . يلي ذلك نص « المنقذ » بحرف اكبر من حرف المقدمة ، وعليه حواشٍ مفيدة ظاهرة العناية في كل صفحة . ف . ا . ب .

ادباء معاصرون

بقلم حبيب الزحلاوي

١٧٣ ص . متوسطة — مصر ، مطبعة الاخاء ، ١٩٣٥ ، — الثمن : ١٠ غ . صاغ

لا يخفى ان لبعض « ادباء الشباب » في مصر ميزة خاصّة من حبّ الظهور ، والهيمنة على مظاهر الانتاج الادبي ، يستخدمون ، في الوصول الى ذلك ، كل ما في شبابهم من حماسة ، وما في محيطهم من سذاجة وغرور ؛ منصرفين الى تأليه بعضهم البعض ، متقايضين كتابة « المقدمات » الطنّانة . وقد غاظ مؤلّف الكتاب هذا الاندفاع في سبيل الشهرة بما فيه من شاغل عن الادب الحقّ والثقافة الصحيحة ، فاخذ ينبّههم في مقالات لم تجرؤ الصحافة المصرية على نشرها كاملةً ، فجمعها في هذا المجلّد الحافل بالنقد الدامغ لا يكاد يأخذ بتحفّظ ، وبالتهكّم اللاذع لا يهاب مركزاً ولا شخصية ، وبالحياة الفيّاضة في التعابير والمقاطع تفرض نفسها على المطالع فيقرأ ، ويقرأ مأخوذاً ، حتى يكاد ينسى انه لا يوافق الكاتب في بعض احكامه . ومهما يكن من أمر فالكتاب مفيد ، بل هو ضروري ، لكل من يرغب في درس ادباء مصر المعاصرين ، فيرى فيه للدكاترة طه حسين ، وابراهيم ناجي ، واحمد زكي ابو شادي ، وغيرهم من كتّاب

« المقدمات » ، ومن يلتف حولهم من ادباء وشعراء كابراهيم المصري ، وحسن محمود ، وطاهر لاشين ، وصالح جودت ، واحمد الصاوي محمد ، وعلي محمود طه ... ، غير تلك الصور الخلابة التي يقيمها لهم كتاب « صفحات الادب » في الجرائد اليومية ، او ارباب الاعلان في مكاتب النشر ودوائر الطبع .

ف . ا . ب .

تاريخ ولاية سليمان باشا العادل

تأليف المعلم ابراهيم العورة — نشره الخوري قسطنطين الباشا المخلصي

٥٢٦ ص . متوسطة — مطبعة دير المخلص ، صيدا ، لبنان ، ١٩٣٥ — الثمن : ١٠٠ غ . س .

اذا عُدّت الاصول العربية لتاريخ بلادنا في اوائل القرن التاسع عشر ، كان تاريخ سليمان باشا مما يُذكر في اوائلها . فهو ، فوقما يتصف به من التدقيق في مآتي والي صيدا وحياته الخاصة ، يتناول كثيراً من الحوادث المتعلقة بتاريخ لبنان ، وفلسطين ، والشام ، وبلاد العلويين ؛ وانه لمن المفيد ان يقابل دارس التاريخ اليوم ، اذا عرض لبعض الحوادث اللبنانية ، بين روايات ابرهيم العورة ، رئيس كتّاب الوالي ، وفيها صدى الآراء الرسمية في ديوان الايالة ، وما يذكره الامير حيدر اللبناني المؤرخ الرسمي للامير بشير الكبير ، او ما يورده المؤرخ الدمشقي ميخائيل . ولهذا فاننا نرى للخوري قسطنطين الباشا فضلاً جزيلاً بنشره هذا المخطوط الذي ضاع اصله ولم يبقَ منه الّا نسخة « المكتبة الشرقية » في جامعة القديس يوسف ونسخة الناشر ، وبما علّق عليه من ايضاحات . ويزيد فضله أنه اجتهد في المحافظة على نصّ المخطوطة « بدون حذف شيء » . نقول : « اجتهد » ، لأنه لم يوفّق دائماً الى هذه المحافظة التامّة . وذلك لأسباب منها : انه ورد في المخطوطة احياناً عبارات تركية وعربية حافلة بالبذاءة وفحش الكلام فاضطرّ الى حذفها « مراعاة وحرمة لآداب قرّاء الكتاب » ، ومنها ان غموض بعض التعابير الاصلية دفعه الى شيء من الشرح جعله بين هلالين . ومنها ان « المعنى المقصود من المؤلف ظاهراً » حمله على تبديل حرف من حروف الجرّ بآخر . ومنها « ان الحال اقتضى في بعض المواضع ان يقدّم بعض اجزاء الجملة

الواحد على الآخر لاقتضاء المعنى لذلك اي ليكون المعنى المقصود من المؤلف سهلًا واضحاً وخالياً من التعقيد . . . » وقد جرّ اقتضاء الحال هذا الى نقل بعض حوادث من مكان الى مكان .

قلنا : وقد وددنا لو ان الناشر لم يهتمّ هـذا الاهتمام بتبرئة المؤلف من الغموض ، وبتوضيح جمله وتراكيبه ، فترك نصّه على مـا هو ، متقيدًا التقيد كلّه بالمبدأ العام الذي اعلنه اولًا في المحافظة على المخطوطة ، حتى اذا كان لا بدّ من شرح أو توضيح ، جعل ذلك في الحواشي شأنه في كثير من التعاليق . على ان هذه الهنات لا تضعف كثيرًا من قيمة الكتاب ، ولا من فضل الناشر .

ف . ا . ب .

كفيل العروض والقافية

تأليف ادوار مرقص

١٠٦ ص . متوسطة – اللاذقية ، المطبعة التجارية ، ١٩٣٥ – الثمن : ١٥ غرشاً سورياً

« مختصر في هذين العالمين يضمن للدارس ان يتبوأ منهما درجة حسنة في وقت قصير بعناء يسير ، لوضوح مقاصده ، وسهولة طريقته ، وكثرة تمارينه » ، ورخص ثمنه .

تعاليق ريشار سيمون على رحلة دنديني

عرّبها وعلّق عليها الخوراسقف يوسف العشيتي

١٨٤ ص . متوسطة — مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣٦

كان حضرة المعرّب قد عرّب ونشر رحلة الاب ايرونيموس دنديني اليسوعي، السفير البابوي الى لبنـان سنة ١٥٩٦ ، فلاقت من الإقبال ما دفعه الى تعريب هذا الكتاب الذي يُتمّم تلك الرحلة ، وهو مجموعة تعاليق وملاحظات كتبها مترجم الرحلة الى الفرنسوية ، ريشار سيمون من علماء القرن السابع عشر . ولمّا كان معلّق الحواشي قد تعرّض لعدة امور تاريخية واجتماعية ودينية ضلّ فيهـا سواء السبيل ، رأى المترجم ان يعلّق عليه هو ايضاً ، بما يقيم زيغ « تعاليقه » ،

وينير بصيرة المطالع الشرقي . فكان له من كلّ ذلك مجلّد لا نشكّ بان الراغبين في تاريخ الطائفة المارونية ، بل في تاريخ الشرق المسيحي ، يقبلون عليه اقبالهم على سابقه .
ف. ا. ب.

التعليم المسيحي للكاثوليك الشرقيين : الكتاب الثاني

بقلم الخوري انطون كيورك الباسيلي المخلصي

١٨٦ ص . صغيرة - مطبعة دير المخلّص ، صيدا ، لبنان ، ١٩٣٥ - الثمن : ٣ فرنكات

وُضع هذا الكتاب بحسب « التعليم الكاثوليكي » الطيب الأثر الكردينال گسپاري ، وباسمه كفاية للدلالة على شهرته ، وسعة فائدته للناشئة المسيحية على اختلاف طوائفها .

مآثر عريضه : ٤

بقلم الخوراسقف بطرس حبيقة

١٤٨ + 108 ص . متوسطة — مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣٦

جمع الخوراسقف بطرس حبيقه في هذا الجزء الرابع من ترجمة مار انطون بطرس عريضه ، البطريرك الماروني ، ما جرى في السنة الرابعة من بطريركية غبطته ، وهي حافلة بالاحداث السياسية والاجتماعية . ولخّص كل ذلك باللغة الفرنسوية تنويراً لاذهان من لا يقرأون العربية .

الصداقة الفرنسية اللبنانية

بقلم الخوراسقف بطرس حبيقه

١٥ + 12 ص . متوسطة — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦

وهذا ايضاً من آثار المؤلف جمع فيه كثيراً من الكلمات المأثورة في الروابط الولائية ، الفرنسوية - اللبنانية ، فاه بها او كتبها ، في مناسبات مختلفة ، بطاركة الموارنة ورجالات فرنسة ؛ نشرها الجامع باللغتين العربية والفرنسوية ، مشيراً الى مصادرها ، وما دعا اليها .

الفتية الثلاثة

بقلم الخوراسقف بطرس حبيقه

٢٨ ص . قطع ١٢ — المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦

وهذه الرواية من آثار المؤلف نفسه ، اخذ موضوعها من الكتاب المقدس (الفصل الثالث من نبوّة دانيال) وجعلها تمثيلية ذات فصل واحد يتضمن خمسة عشر مشهدًا ، فاستحق شكر ارباب المدارس .

كتاب تعليم المبتدئين واجبات الناذرين

بقلم الاب يوسف نادر الانطوني

١٨٥ ص . قطع ١٢ — مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣٥ — الثمن : ٢٥ غرشًا سوريًا

وُضع هذا الكتاب ، على طريقة السؤال والجواب ، في سبيل الاخوة المبتدئين وارشادهم الى فهم النذور الرهبانية ؛ استنار فيه مؤلفه بانوار القديس توما الاكويني وسائر الملافنة ، ومعلمي السيرة النسكية القدماء والحديثين . وقد علّق شروحاً وجيزة على المبادئ الرهبانية ، واستشهد بمقتطفات من الحق القانوني الرهباني ، وذيّل الكتاب بسرد مواد الفحص الخاص وفقاً للفضائل ، وبملخص تاريخي عن نشأة الرهبانيات والجمعيات القانونية شرقية وغربية ، قديمة وحديثة ؛ فاتى كتابه افضل ما يوضع من نوعه بين ايدي الناشئات الرهبانية .

البيت الالزاسي

تأليف رينه بازين — تعريب ادوار مرقص

٩١ ص . متوسطة صغيرة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٦ — الثمن : ١٥ غ . ل . س .

هو تأليف وطني مشهور للكاتب الفرنسوي الكبير رينه بازين ، رأى الاستاذ ادوار مرقص ان يفيد به ابناء اللغة العربية ، فنقله بعبارة طليّة ،

واسلوب منسجم ، ونشره تباعاً في جريدة « البشير » ثم طبعه على حدة بهذا الحجم اللطيف .

* الجنرال ميشال حدّاد * لمحة تاريخية موجزة كتبها الشيخ ادمون بليبل ، ونشرها مجلّة « المرائس » في بكفيا ، عن لبناني شبابي تولّى قيادة جيش غناوي († ١٩٣٤) — ٩ ص . متوسطة ، بكفيا ، ١٩٣٦ .

* « كتاب المدى » * « ردّ على مقال حضرة الاب فيليب السمراني المرسل اللبناني » بقلم الاخ بطرس فهد الراهب الحلبي اللبناني — ١٣ ص . قطع ٨ ، المطبعة المارونية ، حلب ، ١٩٣٦ ، ظهر في مجلة « الشهباء » .

* الحب والسلام * مجلّة كاثوليكية شهرية مصوّرة ، تبحث في الدين والعلم والتهذيب وامجاد الامّة السريانية ؛ مركزها في دار المطرانية السريانية بحمص ، سورية — ٤٨ ص . قطع ٨ ، كل جزء — اشتراكها السنوي : ١٠ فرنكات في سورية ولبنان ؛ ١٥ فرنكاً في الخارج .

* الصلاح * مجلة ادبية علمية روحية ، مركزها بالدار البطريركية للاقباط الكاثوليك بالقاهرة — ٧٤ ص . قطع ٨ ، كل جزء — اشتراكها السنوي : ١٥ قرشاً صاغاً .

* تذكار اليوبيل الفضي لاخوية الحبل بالعذراء بلا دنس لطائفة الاقباط الكاثوليك * في يوم الاحد اول مارس ١٩٣٦ — ٦٣ ص . قطع ٨ ، باللغتين العربية والفرنسوية ، حافل بالصور .

* التأبين الذي القاه إبّان الصلاة على جثمان المرحوم الاب انطونيوس عارج ، احد مدبّري الرهبانية اللبنانية ، في كنيسة دير سيدة المعونات (جبيل) ، الاب انطونيوس شبلي اللبناني ، رئيس انطوش جبيل * ١٣ ص . قطع ٨ — مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٣٦ .

* بيان صادر من الجمعية الخيرية البشرّاوية * يتضمّن ما ورد لصندوقها من الاموال وما صرف منه من تاريخ تأسيسها في ١٧ كانون الثاني ١٩٠٦ لغاية ٣١ كانون الاول ١٩٣٥ — ١٦٣ ص . قطع ٨ — مطبعة المرسلين اللبنانيين ، جونية ، ١٩٣٦

* خلاصة اعمال شركة القديس منصور دي پول في بيروت ، عن سنة ١٩٣٥ * ٦٩ ص . قطع ١٢ ، بيروت ١٩٣٦ .

* تقرير عن اعمال الجمعية الخيرية للقديس منصور دي پول في دمشق ، عن سنة ١٩٣٥ * ٦٩ ص . قطع ٨ ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٣٦ .

* تقرير عن اعمال الجمعية الخيرية للقديس يوحنا الدمشقي في دمشق ، سنة ١٩٣٥ * ٢٠ ص . قطع ٨ ، مطبعة القديس بولس ، حريصا ، ١٩٣٦ .